ألفــــة الادلبي

دمشق يا بسمة الحزن

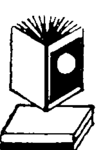


ألفة الادلبي

الفت الادلبي

دمشق

يا بسمة الحزن



منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي

دمشق – ١٩٨٠

الفصل الأول

كانت الدار في ذلك المساء الربيعي وكأنّها في لحظات التجلي الخارقة . لقد زوّقها نيسان . . . فنان أهوج بعثر الالوان ، فاذا هي سيمفونية متناغمة .

ازهار البنفشة تنحدر على الجدران شلالات ثلج أبيض ؛

النفنوفة الحمراء تتسلّق قوس الليوان ؛

الياسمينة الصفراء سطت على الدالية ، نسجت فوق العريشة مظلة موشاة بالاصفر والاخضر .

البحرة تحتضن القمر ، النافورة تردد أغنيتها الرتيبة الموزونة .

زهر الليمون والنارنج ينشر في الجو عبقا يغري باسترخاء لذيذ .

تبدو الدار وكأنّها قد اعدت لحفلة عرس . الكراسي مصفوفة في الباحة الفسيحة . الانوار تشعّ من الدهليز الى الليوان . ربما تصورتها هكذا لأنّه خطر ببالي ماسمعته ذات مرة من قريبة لنا تقول لأمي : كأن دار بيت حميك صمّمت لحفلات الافراح والاعْراس ، ان شاء الله تقيمين فيها فرح عرس بنتك بالهناءة والسعادة .

واتخيّل عروسين فتيين يدخلان من الدهليز ، الشاب مشيق القوام يرتدي بذلة سوداء ، وقد رشق في عروة سترته وردة بيضاء ، يتأبط

ذراع صبيـــة حلوة ذات خصر نحيل ، ترفل بثياب بيضاء شفافة كأنّها محاطة بغيمة خريفية . وبحركة لاارادية اجدني اتحسس خصري بيدي لأطمئن على نحافته .

ان الامور لاتأتي في احيان كثيرة كما نحب ونشتهي . . كنت اعرف ان الدار لم تعد في ذاك المساء لحفلة عرس كماتخيلتها ، انّما اعدت لحفلة مأتم ! . . . . كأن للخيال الفنّي شطحات تأتي صدى لرغبات مكبوتة تعتمل في الاعماق، قد يخجل الانسان من نفسه ، او يضحك منها عندما تمر بخاطره ، ولشد مايخشى ان يكتشفها الآخرون .

ويتوقف خيالي عن جريه السريع فجأة عندما يدخل من الدهليز بدلا من العروسين عشرة مشايخ بعمائم بيضاء وجبات سابغة ، يقودهم أبو العز – رجل كهل من اقربائنا البعيدين – ويجلسهم في صدر الديوان ، ويروح يتحدّث اليهم بصوت خافت ، كان واضحا انّه جاء بهم ليقرأوا القرآن على روح صاحب الدار الذي هو جدي لأبي ، بعد ان مضى على وفاته اربعون يوماً .

كان لم يسبق لي ان حضرت حفلات المآتم ، لان العادات المتبّعة آنذاك في بلادي كانت لاتسمح للصبايا الصغيرات مثيلاتي اللواتي لم يتخطين الخامسة عشرة بعد بحضور ولائم المآتم الاّ اذا كن متزوجات او كان المتوفى من الاقرباء الاقْربين ، فلو لم يكن المتوفّى جدي لما سمح لي بالمجيءّ ، كانوا اذا ارادوا ان يعيبوا على بنت تجاوزها الحدود المألوفة يضربون لها هـــذا المثل : بنت تَهنيء ، وبنت تعزّي ، وبنت تساهر المطالق – اي اللواتي داهمن الطلق – ! . . . هذه الواجبات كلها لاينبغي للصباياالصغيرات انيمارسنهاكي لايصبحن عرضة للنقدالشديد.

كان حب الاطلاع عادة متمكنة مني فاحببت ان اتخذ لنفسي مكانااستطيع ان اشرف منه على ارض الديار — هكذا كنّا نسمّي (باحة) الدار في بيوتنا الشامية القديمة — لأتابع مايجري فيها فلا يفوتني شيء ، فلم اجد خيرا من شباك النصية — الغرفة الصغيرة القائمة في منتصف الدرج — لأنّه يشرف على الباحة جميعها كما استطيع ان اصعد متى شئت دون ان يراني احد من الرجال الى الطابق الفوقاني حيث تجلس النساء يحطن بعمتي صاحبة العزاء ، لانها البنت الرحيدة لجدي ، وكانت جدتي قد ماتت منذ زمن بعيد .

بدأ المدعوون والمدعوات يتوافدون على الدار ، الرجال يجلسون على الكراسي المصفوفة في الباحة ، والنساء يدخلن متحجبات ويصعدن فورا الدرج المقابل للدهليز الى الدور الفوقاني ، فتسرقهن نظرات الرجال بكثير من البراعة وهنّ يصعدن الدرج .

لمحت ابي وعمّي يجلس كل واحد منهما في مكان بعيد عن الآخر متجهم الوجه لايأتي بحركة ، كأنه لايعنيه من امر هذا الحفل شيء .

بينما كان ابو العز لايهدأ أبدا . يستقبل الناس ، يقدم الشاي للمشايخ كأنّه هو وحده المسؤول عن كل شيْ .

ويتنحنح احد المشايخ ثم يسمي بالله ويبدأ يرتّل آيات من القرآن بصوت حنون يبعث الخشوع في النفس .

لكم ساءني ألاّ ارى على الوجوه مسحة حزن ولو خفيفة ، حتّى على وجوه أقرباء جدي واولاده واصدقائه .

ألأن جدي عاش اكثر مما ينبغي ؟ . . لقد نيف على الثمانين

عاما ، وامضى سنواته العشر الاخيرة مفلوجاً فتمنى له الموت اقرب اقربائه :

وأجدني ادعوالله أنأموت صبية . اليس اكرم للانسان انيموتوفيه بقية من نفع ليشيع باللوعة والاسف على الاقل ؟

وتمر بخاطري تلك الحادثة التي لن انساها ابداً على الرغم من صغر سني آنذاك : كنت في الخامسة من عمري ، ذات يوم رأيت ابي يعود الى البيت مربد الوجه ، كئيب السحنة على غير عادته ، وقد تأخر عن ميعاده بضع ساعات ، فتنطعت له امي قائلة :

— ماشاء الله،اين كنت ؟ ؟ . لقد انشغل بالي عليك، ظللت انا والبنت ساعات طويلة ننتظرك حتى كدنا نموت من الجوع .

فقاطعها قائلاً بلهجة حزينة :

— اتركيني بحالي ! . . . ابي مريض وقع في دكانه مفلوجاً حين بلغه خبر افلاسه ، بعثوا الينا بالخبر فأسرعنا اليه انا وأخي وحملناه الى البيت وجئنا له بالاطباء فأكدوا لنا يأسهم من شفائه ، تركناه مع أختي صبرية ، ونحن لاندري ماذا نستطيع ان نفعل له ، اتيت الى هنا وكأني في غير هذه الدنيا .

شهقت امي وضربت خدها بكفها وقالت :

— مسكين اصيب بالفالج ؟ ! . . رجل كبير ، الله يخفف عنه ، الفالج لاتعالج .

قالتها كمن يقرر امرا قاطعاً ، لوى ابي شفتيه دون ان يرد عليها . لم افهم مما قالته شيئاً ولكن يبدو ان القافية اعجبتني . تركت

امي وابي يتحدثان وخرجت الى السطيحة ألعب بطابتي اضرب بها الارض فترتد بسرعة الى يدي ورحت اردد وكأني اغني :

الله يخفّف عنو الفـالج لاتعـالج
الله يخفّف عنو الفـالج لاتعـالج

ربما حسبتها كلام دعاء ، او شيئاً من هذا القبيل ، بعد ايام قلائل ذهبت مع امي لنعود جدي ، تركتها مع عمّتي تتبادلان التحيات وتتحدثان واسرعت الى غرفة جدي ، وقفت امام سريره وقلت له وانا معتزة بما اقول وكأنني ألقي خطاباً :

– جدي الله يخفف عنك الفالج لاتعالج .

فاحمر وجهه فجأة وتقلصت عضلاته ، واربدت سحنته،وحملق الي هنيهة حتى بدت عيناه الزرقاوان الكبيرتان ، وكأنهما ستخرجان من محجريهما ثم قبض على معصمي بيده السليمة وجذبني اليه وقال لي بلهجة آمرة اخافتني :

– قولي لي يابنت من قال عني ماقلته لي الآن ؟

قلت له بصوت خفيض وانا ابتسم :

– امي قالت عنك هذا . . .

فترك معصمي وادار وجهه نحو الحائط وقال بصوت مرتجف وكأنه يبكي :

– بنت الكلب . . . ماذا فعلت لها حتى تريدني ان اموت ؟ ! ..

ادركت على الفور انني أخطأت ، وان ماقلته له ليس دعاءا وانما كلاما لاخير فيه . وأنسل من غرفته صامتة شاعرة بفداحة الذنب . منذ

ذلك الحين لاحظت ان جدي لم يعد يكلم امي أبداً ، كان يشيح بوجهه عنها كلما دخلت غرفته ، فاذا سألته عن صحته اجابها بهزة من رأسه فقط دون ان ينظر اليها . سمعتها مرة تقول لابي :

— ماذا فعلت لأبيك ؟ اشعر انّه يكرهني من صميم قلبه ، يكرهني الى حد لايستطيع ان ينظر الي .

فلوى ابي شفتيه دون ان يجيبها بكلمة كعادته دائما . كنت الوحيدة التي تعرف السبب ، وعلى الرغم من صغري عرفت كيف أكتم السر .

تركت شباك النصبة وصعدت الى الصالة في الطابق الفوقاني لأرى ماذا يجري هناك ايضا كان جمع كبير من النساء يرتدين كلهن ألبسة قاتمة يحطن بعمتي التي كانت ترتدي ثيابا سوداء وتضع على راسها غطاءاً اسود شفافا جدا ، وتحمل بيدها منديلا أبيض ذا اطار اسود تكفكف به دموعها الغزيرة وتردد بلوعة :

— يامصيبتي من بعدك يابي . . . كيف استطيع ان اعيش من بعدك ياحبيبي . . . ياليتك ظللت حيّا ، ويا ليتني ظللت اخدمك طوال عمري . .
وقفت امامها مشدوهة ، احدق اليها واعجب مما تقول ، اي كذب هذا الذي تفوه به هذه المرأة ؟ ؟

تمنيت ان اهمس في اذنها :

— اتذكرين يوم جئت ازورك قبل شهر فقط ؟ رأيتك واقفة في المطبخ وامامك كومة غسيل كبيرة ، كنت تبكين بحرقة وتتضرعين الى الله قائلة :

— ياالهي اما ان تأخذه اليك ، او ان تأخذني انا . . فلم يعد لي طاقة

على احتماله . . . ولمّا رأيتني امامك انفجرت قائلة لي وكأنني انا المسؤولة عن ذلك كله :

— كأن الحاج عبد الفتاح لم يخلف غيري ! . . . قد يمضي الاسبوع والاسبوعان ولا ارى منكم احداً ، اين ابوك وأمك، اين عمك وامرأة عمك ؟ . ان الذين لهم ضمير ، الذين يعرفون الواجب قد ماتوا ! . . . امي ، واخي سامي ماتا وتركاني وحدي احمل هذا العبء الثقيل الذي لايحتمل . ابوك لاهم له سوى ان يخرج من وظيفته الى المقهى ليلعب الشيش بيش مع اصدقائه ، وعمك تقلصت دنياه كلها بزوجه الفاجرة فلم يعد يرى في الدنيا غيرها ، انظري قبل قليل غسلته ، وغيرت له ثيابه وملاءات سريره ، ثم ذهبت الى المطبخ لأعدله الغداء. ماغبت عنه لحظة حتى راح يناديني، اسرعت اليه فاذا هو قد بال في ثيابه وسريره . انظري هذه الكومة من الغسيل. قبل قليل غسلت أكبر منها . لقد اهترأت يداي من الغسيل . ألم تخلق المرأة في هذه البلاد الا للهم والدرد ؟ . . . شيء لايطاق . . . لااستطيع ان اغفل عنه لحظة واحدة او اخرج من البيت ، انا مدفونة في هذا البيت وانا حية ، منذ عشر سنين ، طول الليل والنهار يصرخ : صبرية . . . صبرية . . . متى يأخذ الله صبرية ويريحها من هذا العذاب ؟ هل سموني صبرية لأصبر واصبر . وماذا بعد الصبر الا المجرفة والقبر ؟ ! . . . سكت ، وانا استمع اليك ، لم اجد مااقوله لك ، وجدتك على حق فيما تقولينه كلّه ، فما بالك الان تنوحين وتبكين بعد ان استمع الله لدعائك واستجاب لما تريدين ؟

سمعت امرأة من الجيران تهمس في اذن أخرى :

— كيف تستطيع صبرية ان تأتي بالدموع متى شاءت ؟ لاشك عندي

انها ارتاحت لموت ابيها . الا يكفي انها ظلت تخدمه عشر سنوات ؟ امضت شبابها كلّه كسجينة محكوم عليها بالاشغال الشاقة ، لقد استّراح الآن واراح .

ردت الاخرى بصوت خافت :

ـ لاتقولي هذا ، مهما يكن الامر فالاب عز ، انها الان لاتبكي على ابيها وانما تبكي على نفسها ،والى ماسيؤول اليه حالها من بعده ، مسكينة المرأة التي لم تتزوج . كم تشعر بالمرارة والمذلة حين تجد نفسها عبئاً ثقيلا على اخوتها او اهلها .

هزت الثانية رأسها وقالت :

ـ والله كلامك صحيح ، على رأي المثل : ياويل من كان رجالها بنيّها وعشاها من بيت خيّها .

كدت انفلق غيظا وانا استمع الى هذا الحوار الذي يجري امامي بين المرأتين دون ان تفطنا الي .

حقــاً ماتعس المرأة في بلادنا ! يحرمونهـــا العلم والعمل ، يكبلونها بالعادات والتقاليد ، يجعلون منها عالة بالرغم عنها ، ثم يروحون يتبرمون بها ، ويستثقلون حملها . ماأغباني . . كيف لم ادرك ماأدركته هذه المرأه العجوز ؟ رحت ألوم عمتي على بكائها واتهمها فيما بيني وبين نفسي بالنفاق ، انا التي اعرف من امرها مع اخويها مالم تعرفه هذه العجوز التي حنكها الدهر .

كان لم يمض على موت جدي سوى عشرة ايام اذ اجتمع في هذه الصالة التي نحن فيها الآن ابي وعمي وأمي وامرأة عمي ، وكانت عمتي قد

خرجت من البيت وذهبت الى المقبرة لتزور قبر ابيها ، وكأن عمي قد اغتنم فرصة غياب اخته فقال لأبي :

– مارأيك في ان نبيع هذا البيت بعد مضي اربعين يوما على وفاة ابينا ؟ سأطلب من احد الدلالين ان يجد لنا مشتريا له منذ الان .

قالت امرأة عمّي وكانت ذات عينين صغيرتين دائمتي الحركة توحيان بخبث صاحبتهما ومكرها :

– الاسراع ببيع البيت امر ضروري ، لان اسعار الاملاك مرتفعة الآن فيجب ان نغتنم الفرصة .

قال ابي :

– اذا بعنا البيت اين ستسكن اختي صبرية ؟ والله لو كان بيتنا واسعا لأسكناها معنا .

قالت امرأه عمّي متحدية :

– ليكن في معلومكم انا لن اسكن مع احد ابدا .

قالت امي :

– اين ستسكن بنت حميك ان لم تسكن مع اخيها الكبير ؟ انت ليس عندك اولاد وبيتك متسع ، أمّا نحن فليس في بيتنا مكان لسرير واحد .

التفتت امرأة عمي الى زوجها وقالت له بلهجة قاطعة :

— يوم تدخل اختك بيتنا سأخرج منه انا ؟

أنت اعرف الناس بطبعي ، انا عصبية ، وموسوسة ، لااحتمل احدا في بيتي . ان مداراة امرأة عانس شيء لايطاق .

قال عمتي ملاطفا زوجته :

— طولي بالك يامرة . . . لاتنزعجي سلفا . سنستأجر لها بيتا صغيرا ونسكنها وحدها .

اجابته هازئة منددة :

— ماشاء الله . . . تستأجر لها بيتا ؟ . . . من اين لك او لاخيك المال الكافي لاستئجار البيوت؟ موظفان صغيران ليس لديهما الا راتباهما ، ألا يكفي ان تسكن اختكما العانس في غرفة صغيرة عند جيران ؟

فقال عمتي :

— والله انها فكرة لابأس بها .

ويسود صمت . كأن ابي وامي قد وافقا ايضا على هذه الفكرة التي جادت بها قريحة امرأة عمي .

واشعر فجأة بكره لهم جميعا ، انهم يتآمرون على هذه المسكينة عمتي بعد تعبها المضني ، وصبرها الطويل عشر سنوات كاملة . لقد حزنت عليها من صميم قلبي . كنت اعرف كم تحب هذا البيت ، فلم يكن لها في حياتها البائسة من سلوى سواه . كانت تتسلى بزرع الاحواض التي حول باحة الدار بالازهار النادرة ، ودوالي العنب ، واشجار النارنج والكباد والليمون ، وتعلق عليها أقفاص الشحارير والحساسين والكناريا كما كانت تربي فيه القطط الشامية الحلوة .

وتضع في بحرته الاسماك الملونة ؛ وكانت تجد في ذلك كله متعة كبيرة ، ومؤنساً لها في وحدتها . وتتباهى به امام جيرانها وصديقاتها فتوزع ازهاره ونارنجه وكباده عليهم جميعا .

فكيف يريدون لها ان تسكن في غرفة صغيرة عند جيران ، وهي بنت تاجر كبير كانت له مكانته المرموقة بين أهل الحي، وبين زملائه التجار ؟

حاولت أن أشترك في الحديث فأبدي رأيي في الموضوع لكن خشيت أن يصدمني عمّي فقد عرفته فظا غليظا . واذا هو يقول لي :

ـ قومي يا سلمى اغلي لنا قهوة ، أنا أحبها سكر زيادة

قمت وفتحت الباب فاذا أنا أرى عمّتي تتوارى خلفه واضعة سبابتها على فمها مشيرة اليّ أن أصمت . فصمت مراعاة لها .

يبدو انها حين عادت الى البيت وجدتهم مجتمعين في الصالة فوقفت خلف الباب تسترق الحديث الذي كان يدور حولها . تبعتني الى المطبخ ، كانت صفراء شاحبة ، مكهربة الوجه ترتجف كلها .

قلت لها :

ـ لا تزعلي يا عمّتي . سأسكن أنا معك أينما سكنت .

وضممتها الى صدري وبكيت . راحت تربت كتفي وتقول لي:

ـ أنت طيّبة ، لكن من أين جاءتك هذه الطيبة ؟ . . . لا تبالي بي ، فليعلكوا كلامهم ما شاؤوا ، أنا لا يهمني أمرهم . ثقي انّني لم أفاجأ أبدا . كنت أعرف هذه النهاية سلفا . لن يستطيعوا أن يخرجوني

من بيتي هذا الا جثة هامدة . سترين كيف سأنتقم منهم : سأجعلهم سيرة تحكى في هذا البلد . . . .

عجبت من هذا التحدي ، من هذه القوة التي هبطت عليها فجأة ، وأشعر بشيء من الراحة ، وأتساءل فيما بيني وبين نفسي :

– ماذا نوت أن تفعل يا ترى ؟ . . .

طويت هذه الذكريات التي مرت بخاطري بسرعة خاطفة ، وعدت الى شباك النصية خشية أن يفوتني شيء مما يجري في الباحة ، تركت عمتي تنــدب أباها ، والنسوة من حولها يواسينها ويخففن عنها ، ويتهامسن عليها في آن واحد ، كانت أمي وامرأة عمي ترتديان ثيابا كحلية ، وتتظاهران بالحزن خشية النقد الذي ينصب عادة على الكنات بلا هوادة .

كانت باحة الدار قد امتلأت بالمدعووين ، وبالطفيليين أيضا الذين ينتهزون مثل هذه الفرص ليملأوا بطونهم ، فلم يبق كرسي واحد فارغا على الرغم من اتساع الباحة وكثرة الكراسي .

لاحظت أن أبي وعمي ما يزالان في مكانهما لم يتحركا منه أبدا وقد خيل الي أن كل واحد منهما ينظر الى الآخر نظرات تنم عن غيظ وغضب وكأنهما لا يعنيهما من أمر الحفل شيء ، شأنهما شأن غيرهما من المدعووين وأرى أبا العز يهرع الى الباب فيستقبل شيخ المولوية مع عشرة دراويش من رجاله ، وتقع نظراتي مصادفة على أبي وعمي فأرى الدهشة والتساؤل يبدوان على وجهيهما مما أثار عجبي وفضولي .

ويسير أبو العز مع شيخ المولوية ورجاله الى الديوان ، فيهيء لهم

فيه مكانا . كنت حين أصادف أحد هؤلاء الدراويش في طريقي لا يلفت زيه نظري كثيرا ، لكن حين رأيتهم مجتمعين بدا لي زيهم مهيبا وجميلا ، جباتهم سوداء سابغة تلوح من تحتها ثيابهم البيضاء الناصعة ، وعلى رؤوسهم قلانس من لباد اسطوانية الشكل ، أمّا شيخهم فقد كور حول قلنسوته شريطا أخضر ، كانوا يسيرون وراءه متئدي الخطوات بأدب جم .

أمّا المشايخ فكانوا ما يزالون يجودون القرآن ، كلّما سكت واحد انبرى زميله حتّى قرأوا جميعهم ما تيسر لهم منه ، ثمّ ختموا قراءاتهم بدعاء « ربّنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا » قرأوه معا بحماسة بالغة وهم يهزون جذوعهم الى الامام والوراء هزات رتيبة تتلاءم مع نغم الدعاء ، ثمّ وهبوا ما قرأوه لروح المتوفّى الحاج عبد الفتاح الصاروجي ، وما كادوا يذكرون اسمه حتّى اقشعرّ جسمي ، واعترتني رعشة ، ربّما رهبة من الموت ، ثمّ طفرت الدموع الى عيني دون توقّع منّي كأنّني أيقنت الآن أنّ جديّ قد مات حقّا ، وغاب عن هذه الدنيا غيبة لا أوبة بعدها ، فشعرت انّني قد افتقدته، وتلهفت على رؤيته. وأنظر صوب الليوان فتراءت لي صورته جالسا في سريره كأنّه قطعة من أثاث هذا البيت، أو شجرة من شجراته العتيقات، ألبسته بيضاء نظيفة . كذلك ملاءات سريره دائما ناصعة البياض ، ولحيته أيضا بيضاء مستديرة تحيط وجهه الوديع ، رأسه أصلع لامع ، وعيناه زرقاوان يفيضان حنانا ، يشع منه نور كوليّ من أولياء الله ، يداعب بيده السليمة سبحة من كهرمان أصفر ، شفتاه تتمتمان بذكر الله ، قد استسلم الى قدره لا يشكو ، ولا يتململ ، ولا يهتم بأمر من أمور هذه الدنيا ، كأنه قد

قطع علاقته بهذه الفانية وأخذ طريقه نحو الاخرى الباقية ، لكن الطريق قد طال وطال، كان يصرخ بين وحين وآخر: صبرية . . . صبرية . . . فيأتي صراخه وكأنّه يستجير ، أو كأنّه يصب شكواه كلها في هذا الصراخ ، فتهرع اليه عمّتي خفيفة نشيطة تعدل جلسته ، تضع خلفه حشية ، تطعمه أو تسقيه .

ويوقظني من تخيلاتي هذه نغم لاغنية ماجنة يلعلع فجأة فأحسب أنّ رجلا من الحاضرين قد جنّ فراح يغنّي في المأتم أغنية :

يا مارية يا مسوسحة القبطان والبحرية عد يا زماني عد .

وأصغي الى كلمات الاغنية وأنا مشدوهة فأدرك انّني مخطئة ! . . . فالرجل كان ينشد مديحا للنبي صاغه على وزن هذه الاغنية ولحنها .

أمّا النشوة البادية على وجه الرجل وهو ينشد وحركات وجهه المعبرة كانت تؤكد لي انّه ينشد مديحه للنبي ، ويفكّر بماريّة تلك التي سوسحت القبطان والبحريّة . . . .

وما كاد ينتهي ، حتّى يبدأ منشد آخر وكأنّه يباري زميله فينشد مديحا للنبي أيضا على وزن ولحن أغنية شائعة :

على اللوما اللوما اللوما   يـا حلـوة يـا مهضـومـا

وصلتينا لنص البيـــــر   وقطعـت الحبـل فينـــا

لكم بدا لي هذا كلّه غريبا وشائقا . لم يخطر ببالي أبدا أنّ حفلات المآتم في بلادي يجري فيها ما أراه يجري أمامي الآن .

عندما انتهى المنشدون من انشادهم . بدأ رجل يقرع على الطبل

قرعات وئيدة ، راحت تشتد شيئا فشيئا يرافقها ضرب الصناجات والمزاهر ، واذا المشايخ يقفون كلهم مع بعض المدعوين ويروحون يرددون: الله، الله ، الله . كانوا يقولونها على وتيرة واحدة وهم يهزون جذوعهم الى اليمين واليسار ، والى الامام والخلف .

خيّل اليّ انهم قد غابوا عن وعيهم وهم في هذه الدوامة . ووجدتني أقلّدهم ، ثم أنساق معهم ، وأردد : الله ، الله ، كأنّ العدوى قد سرت اليّ أيضا ، ولا أدري كم مضى علينا من الوقت ونحن في تلك الحالة ، الى أن بدأت دقات الطبل تخفت شيئا فشيئا حتّى هدأت تماما . فاذا الحركات تسكن ، والاصوات تصمت ، ويعمّ السكون كلّ شيء .

ويجلس الرجال وهم يجففون عرقهم ، ويستردون أنفاسهم المبهورة ، وكأنهم قد تخففوا من شيء ما . وفجأة ينساب نغم من الناي ناعما حنونا ، فيعيد الى الدار جوها الشاعري الساحر فعرفت انّه قد آن دور المولوية ، وأترك شباك النصية وأصعد الدرج بسرعة الى السطح لأرى باحة الدار بكاملها عندما يرقص الدراويش . واذا النساء كلهن يصعدن الدرج ، ويقفن حول الدرابزين التّي تؤطر السطح ليشاهدن رقص المولوية .

وأجد عمّتي تقف منفردة في زاوية فأقف الى جانبها أراقب بكثير من الانتباه والدهشة ما يجري أمامي في الباحة ، فأرى أحد الدراويش يقوم من مكانه ويقف أمام شيخ المولوية الذي يتميز عن رجاله بالشريط الاخضر المكور حول قلنسوته ، وينحني الدرويش أمام شيخه ضامّا يديه الى صدره بأدب جم ، فيجيبه هذا بانحناءة خفيفة من رأسه دون أن يتبادلا كلمة واحدة .

واسأل عمتي ما معنى هذه الطقوس ، فتقول لي :

ــ هذا الدرويش جاء ــ كما هي العادة ــ يستأذن الشيخ ويطلب منه أن يفتتح الرقص بنفسه .

واذا الشيخ الوقور ينهض ويقف في مكانه ويروح يتلو بصوت خافت دعاءاً باللغة الفارسية لم نفهم منه شيئا واذا الدراويش يقاطعونه بين حين وحين صارخين بنغم واحد : هو . و . و . و . ويأتينـــا صدى صراخهم كهدير البحر ، أو عويل الريح .

فاذا انتهى من دعائه تقدم الى الباحة بمفرده واضعا يده اليمنى على صدره رافعا طرف جبته بيده اليسرى ، ثمّ يروح يفتل حول البحرة بخطوات وئيدة ، حانيا رأسه بتواضع وانكسار ، ثمّ يعود الى مكانه وهو يتلو دعاءاً آخر بالفارسية ويقاطعه أيضا الدراويش صارخين : هو . و .و.

فاذا عاد وقعد في مكانه يهب الدراويش كلهم هبة واحدة ، ويفتلون حول البحرة على نسق شيخهم بضع فتلات ، ثمّ يخلعون جباتهم السود فتبدو قاماتهم رشيقة ممشوقة وهم بثيابهم البيضاء الفضفاضة المزمومة عند الخصر والمشدودة عليه بإحكام بالغ . ويبدأون الرقص بفتلات بطيئة ، الايدي متصالبة على الصدور والرؤوس منحنية الى الامام قليلا ، والنظرات منكسرة تعبر عن التوسّل ، والخضوع ، ثمّ يطوقون خصورهم بأيديهم ، وتسرع خطواتهم شيئا فشيئا ، ثمّ يضعون اليد اليمنى على موضع القلب ، ويرفعون اليسرى فوق الرأس وتزداد سرعة دورانهم فتنفرش أثوابهم المزمومـــة واذا هي دوائر كبيرة تنبثق من وسطها جذوعهم ثابتة دون اي التواء ، ثمّ ترتفع أيديهم بضراعة نحو السماء كأنها تستجير بها ، وتميل رؤوسهم قليلا الى اليمين ، وتتيه نظراتهم في

الفضاء دلالة على مرحلة الوجد ، مرحلة الانعتاق ، وترق الانسان الى الذات القدسية . واذا هم يعبرون بالرقص عن هذا كله تعبيراً بليغا تعجز عنه الكلمات .

قلت لعمتي :

ــ ما كنت أتصور أبدا أنّ رقص المولوية على هذا الحد من الجمال والاتقان . انّني أراه لاول مرّة في حياتي ، ترى من هو الذي ابتدع هذا الرقص ؟

قالت عمتي :

ــ ألم تسمعي بجلال الدين الرومي ؟ أكبر شعراء الصوفية الايرانيين وأعظم شعراء الحب الالهي ، هو الذي وضع طقوس المولوية وابتدع هذا الرقص الديني .

قلت :

ــ يا له من فنان كبير . . . انظري بربّك هذا الدرويش الفتى ذا الخصر النحيل ، والوجه الشاحب. ما أسرع دورانه ، وأرشق حركاته .

قالت عمتي :

ــ لكن الاعجب منه هو هذا الدرويش الكهل ، القصير البطين ، ذو اللحية الشمطاء الطويلة ، انّه لا يقل سرعة ورشاقة عن زميله الفتى الشاب النحيل .

ظللت مشدوهة بهذا المشهد الاسطوري الرائع ، الذي لم يرق خيالي يوما الى تصوره ، عشرة دراويش يرقصون حول البحرة في ضوء القمر بين الاشجار والازهار ، على أنغام الناي وايقاع المزاهر . وكأنّ التحديق الطويل الى دوران الدراويش السريع جعلني أرى كل شيء من حولي يدور ، ويدور ، الدراويش ، الاشجار ، الناس ، كدوران

هذا الكون السرمدي . ولو لم أقبض على الدرابزين لوقعت على الارض .

وتخفت أنغام الناي ثم تصمت . ويتوقّف الدراويش عن الرقص . ثمّ ينسحبون من الباحة بهدوء ، ويرتدون جبّاتهم السود ، ويعودون الى أماكنهم والارهاق باد عليهم . وتعود النساء الى الصالة . وتقعد عمّتي في مكانها صامتة ساهمة . وأعود أنا الى شباك النصية ، وأرى أبا العز متّجها الى القاعة المواجهة لشباك النصية الذي أتوارى خلفهويفتحباب القاعة على مصراعيه فتبدو فيها مائدة طعام كبيرة صفّت عليها أنواع من الحلويات الشامية ، وفي منتصف المائدة انتصب هرم من كرات حلوى (العوامة) المزينة بالفستق والقشدة . ويتهافت الناس الى القاعة بدعوة من أبي العز ، ويبدأون الاكل بشراهة عجيبة . واذا عمّي يقف ويشير بيده الى أبي ان اتبعني ، فيتبعه أبي ، ويصعدان الدرج ، وأفاجأ بهما يدخلان الى النصية ، ويوصد عمّي الباب خلفه . كان وجهه يعبر عن انفعال شديد ، وينفجر صارخا في وجه أبي مشيرا بأصبعه الى نفسه :

– ألست أنا أخاك الكبير ؟ ألست الابن البكر للمرحوم ؟

ويهز أبي رأسه موافقا ومتعجبا في آن واحد من هذا السؤال ويتابع عمّي كلامه :

– أيقام هذا الحفل الكبير بمناسبة مرور أربعين يوما على وفاة أبي دون أن يؤخذ رأيي فيه ؟ أأدعى اليه مثل غيري من المدعوين وكأنّني غريب عنكما أنت وأختك ؟

وبصوت أعلى ولهجة أكثر انفعالا :

— ما الداعي لتفعلا ما فعلتما اليوم ؟ هل جننت يا محمود ؟ ؟ ما كنت أحسبك سخيفا الى هذا الحد ! . . . . أنت الوحيد المثقف بيننا ، حامل شهادة الحقوق ما شاء الله ! . . أنا والله خجلت من النـــاس ، ما هذا الذي رأيته اليوم ؟ ؟ عادات سيئة ، تقاليد بالية بطلت من سنة آنست ، طبل ، زمر ، غناء ، رقص ، مشايخ ، مولوية ، أكل ، شرب ، وهذا كلّه يقام بمناسبة حزن ؟

كان يتكلّم بسرعة دون أن يدع فرصة لأبي لينطق بكلمة واحدة . كان أبي يقف مشدوها ، يصغي اليه بدهشة لا مزيد عليها ، وعمي يتابع كلامه دون توقّف :

— قل لي بربّك من نحن حتّى نقيم مثل هذا الحفل الكبير بمناسبة مرور أربعين يوما على وفاة أبينا ؟ هل كان أبوك بلا مؤاخذة عزت باشا العابد ، أم أسعد باشا العظم ؟ الناس كلها تعرف أنّ أبانا تاجر صغير مات مفلسا بعد أن ظلّ مفلوجا عشر سنوات . لا شك أنّ الناس ضحكوا علينا حتّى شبعوا ضحكا . أنا والله لن أسهم بتكاليف هذا الحفل بقرش واحد من مالي . تحمّله أنت وأختك يا صاحبا الحل والربط والآراء الخنفشارية .

وكأنّه قد وصل الى بيت القصيد فتوقّف عن الكلام وأخرج من جيبه علبة تبغ أخرج منها لفافة . أشعلها ووضعها جانب فمه ثمّ أخرج منديلاً وراح يجفّف عرقه وجلس على مقعد كان بالقرب منه . عندئذ وجد أبي فرصة للكلام فقال بصوت عال على غير عادته :

— خذني بحلمك يا أخي . أنا والله مثلي مثلك ، دعيت الى هذا

الحفل كأي واحد من هؤلاء المدعووين . وظننت والله انّك أنت الذي أقمته ،واستغربت ذلك منك، كما انّني عتبت عليك لأنك لم تسألني رأيي.

هبّ عمّي واقفا وقال بدهشة بالغة مشيراً بسبابته الى أبي :

— انت ايضا لا علم لك بهذا الحفل السخيف ؟ . . أصحيح ما تقول؟هذا كلّه اذن من ترتيب صبريّة اختنا المصونة ؟ أيّة جرأة هذه ؟ لقد جنّت هذه البنت ، ما الداعي لتفعل ما فعلت ، شيء يطيّر العقل من الرأس .

قال أبي :

— اليوم في حدود العصر بعثت اليّ صبرية بورقة مع اجير السمّان كتبت فيها :

— تعال انت وعائلتك هذا المساء لنسهر معا ونسمع القرآن على روح أبينا حيث مضى على وفاته أربعون يوما .

قال عمّي :

— لقد بعثت اليّ أيضاً بمثل ذلك .

قال أبي :

— أقسم لك انّني كنت ناسياً انّ هذا اليوم هو يوم أربعين أبي ولمّا بعثت اليّ صبرية بالورقة ظننت انّ الامر سيقتصر على شيخين يقرآن القرآن على روحه ثمّ تقدم لنا صبريّة شيئاً من الطعام فنتعشى مع الشيخين ثمّ ندفع لهما أجرهما ، وينصرف كل واحد منّا الى بيته ، فاذا أنا أفاجأ بهذا الحفل الكبير .

قال عمّي :

— كان هذا المفروض ، ولكن كيف تستطيع صبرية أن تقوم وحدها بهذا كلّه ؟

أجاب أبي :

— البركة في قريبنا أبي العز ، ألم تراه آخذاً كل شيء بصدره ؟ ولكن أستغرب كيف رضي أبو العز أن يقوم بهذا دون أن يأخذ رأينا ؟

ضحك عمّي ضحكته الساخرة وهز رأسه وقال :

— أبو العز ! . . . يا أبو العز ! . . . تريده أن يأخذ موافقتنا ، لماذا ؟ لنرفض ؟ انّه يأكل بالدين على مثل هذه الفرصة . . . أتذكر يوم ماتت أمّك؟ لقد أعطيته يومها مبلغاً كبيراً ، وكلفته أن يقوم بكل ما يلزم ، لانه أعرف منّا بهذه الامور ، فما كان منه الاّ أن قدّم لي بعد أن انتهى كل شيء ، علاوة على المبلغ الكبير الذي أخذه منّي قائمة حساب لها أول وليس لها آخر . ما كنت أحسب أنّ ذمّته واسعة الى هذا الحد ، كنت مغشوشاً بالسبحة والعمامة ، لكن عند المعاملة بان معدنه ، وانكشفت حقيقته . يعلم الله كم دفعت له اليوم صبريّة ، وكم سيوفّر لنفسه ؟ . وهذا كلّه سيذهب من مالي ومالك ، أتعلم ان عشر ذهبات عثمانية لا تكفي اليوم المولوية وحدهم ؟ . . . كنت أشك في أن لدى صبريّة مالاً تخفيه عنّا ، قد تكون أخذته من أمّها ، أو أبيها دون علم منّا . الآن أصبح شكي يقيناً . ألم تلاحظ أن والدينا كانا يؤثران اختنا علينا نحن الاثنين ؟

زفر أبي زفرة طويلة وقال :

— يا أخي ، يا راغب لا تكن شكوكاً الى هذا الحد . من أين لصبرية المال ؟ انت أعرف الناس بحال والدينا . أمّك باعت حليّها قبل أن تموت وصرفت ثمنه كلّه على التداوي من مرضها . وتعلم

أيضاً انها لم ترث من أبيها الثري شيئاً ، لانه خصّص ثروته كلها لابنائه الذكور ، وأعطى أمنـــا وأختهـــا بعض الحلي فقط . أمّـــا أبونا فقد مـــات مفلساً . ولو لم يلهمـــه الله عندما شعر بتدهور وضعه المـــالي أن يفرغ البيت والمخزن والاثاث الى اســـم أمّك لاخذهـــا كلها الدائنون ، وعندما مرض بالفالج أجرنا المخزن وتركنا أجره كلّه لصبرية ، كانت تستوفيه من المستأجر آخر كل شهر وتصرفه على نفسها وأبيها ، وهو مبلغ ضئيل جداً لا يمكن أن توفّر منه شيئاً ، وأنا والله لا أدري كيف كانت تستطيع أن تدبّر به أمورها ، لا أذكر انها طلبت مني أو منك قرشاً واحداً . لا تنس أن خدمة مريض مفلوج عشر سنوات كاملة أمر شاق لا يطاق . وعلى الرغم من ذلك كله لم تفكر يوماً أن تستعين بخادمة،صبرية جبارة من الجبابرة . يجب ألا ننكر تعبها وفضلها علينا .

قال عمّي :

— فهمنا يا سيدي . . . لا تخرج عن الموضوع كعادتك ، قل اذن من أين جاءت بتكاليف هذا الحفل ما دام هذا حالها ؟ ؟

لوى أبي شفتيه وقال :

— هذا ما يحيرني . . قد تكون استدانت .

قال عمّي :

— ما شاء الله ! . . . تستدين لتقيم هذا الحفل السخيف ؟ ومن يفي لها هذا الدين ؟ حصتها من البيت قد لا تكفي تكاليف هذه الليلة .

سأعرف كيف أحاسبها ، وكيف أضع حـداً لتحديها ، وسأجعلها تندم على ما فعلت .

نظر أبي من شبّاك النصيّة وقال :

– انتهى بعض الناس من طعامهم وبدأوا ينصرفون، سيفتقدوننا، يجب أن ننزل ونقف عند الباب لنتقبّل التعازي منهم .

قال عمّي :

– أنا لن أنزل ، ليعلم الناس انّني غير راض عن هذه السخافات كلها. لا أدري لماذا دعت صبرية أصحابي أيضاً فقد خجلت منهم ومن الجيران.

قال أبي :

– مضّي لنا هذه الليلة على خير . لا تعمل لنا فضيحة .

قال عمّي باصرار :

– لن أنزل ، اذهب وحدك .

رد أبي نافد الصبر :

– انّا لله وانّا اليه راجعون . الذي صار صار يا راحب . ما الفائدة من اطلاع الناس على أمورنا الداخلية ومشاكلنا ؟ ، ما هي الآ ساعة ويذهب الناس في حال سبيلهم ، عندئذ نصفي نحن أمورنا كما نريد ، معنا الليل بطوله . ويقبض على يد عمّي ويجذبه ، فيقف ويسير معه ، كأنّه قد اقتنع برأي أخيه .

ويخرجان من النصيّة دون أن يعيرا وجودي أي اهتمام ، أو يوجها اليّ كلمة واحدة منذ ان دخلا الى أن خرجا كأنّني غير موجودة، أو كأنني قطعة من أثاث هذه الغرفة .

أدرت ظهري للشباك ووقفت مشدوهة أفكّر بما سمعت .
ويتملكني العجب من تصرف عمّتي . وأجد عمّي على حق في لومها فلم يكن هناك أيّ داع لاقامة هذا الحفل .

وأجدني أتساءل ما الذي دفعها لتفعل ما فعلت ؟ لابد أن لها غاية من وراء ذلك كلّه ، وما عساها تكون تلك الغاية ؟ ولماذا عمي يتحامل دائماً على أخته ، بينما أبي يحاول أحياناً أن يبرر اخطاءها ويقف إلى جانبها ، وأحياناً يعترف بفضلها .

وأشعر بضيق شديد ، وأتمنّى أن أهرب من هذا البيت قبل أن يذهب الناس منه ، على الرغم من فضولي الملح لأعرف ماذا سيجري بين عمتي وأخيها . إن أكره ما أكره هو هذه المشاحنات التي تقع بين أفراد أسرة واحدة .

فتح الباب فجأة وأطلّت منه أمّي وقالت لي غاضبة منددة :

— ما شاء الله أنت هنا مختبئة وأنا ألوب عليك من مكان لمكان ؟ نحن الكبار نقدم القهوة ونشعل السيكارات للضيوف وأنت الصبية قاعدة مستريحة .

لم أرد عليها ، ولم أقل لها شيئاً ممّا دار بين أبي وعمّي . لاحظت ارتباكي فقالت لي :

— ما بك يا بنت ؟ قومي ، تحركي ، إذهبي وتناولي صحون الحلو من أبي العز . إنّه ينتظرك في أسفل الدرج .

أطعت ما أمرتني به ، فأسرعت أقفز على الدرجات ، ولمّا رآني أبو العز صعد أيضاً بضع درجات وناولني صحنين كبيرين مملوءين

بالكنافة المبرومة فحملتهما الى الصالة حيث تجلس المدعوات ، وأخذتهما أمي ووضعتهما على المائدة في منتصف الصالة ، بينما عدت أنا لآتي بغيرهما من صحون العوامة ، والبقلاوة وغيرها وغيرها .

دعت أمي المدعوات الى الطعام فتحلقن حول المائدة ، وأبين أن يأكلن شيئاً ما لم تأكل عمتي أولاً – حسب العادة المتبعة –

كانت عمتي شاحبة ، شاردة الذهن ، حزينة ، منهكة . وعلى الرغم من ذلك كله أخذت قطعة كنافة مراعاة لضيوفها ، وحسماً للاخذ والرد ، ثم انتحت بها في ركن منزو ، وراحت تقضمها على مهل ، وتجهد نفسها في بلعها . بينما كانت المدعوات يلتهمن قطع الحلوى بشراهة وسرعة عجيبة حتى كدن يأتين عليها كلها . ولما انتهين من الطعام قمن يودعن عمتي ، ويعزينها . كانت كل واحدة منهن تتخير الكلام الذي تجده مناسباً ، والذي يختلف عما قالته التي قبلها .

واحدة تقول لها :

– العمر لك ولاخوتك ، الحمد لله مات بعزه .

وأخرى تقول :

– الحمد لله مات في حياة أولاده ، ومن خلف ما مات .

وتلك تقول :

– ان شاء الله آخر التعازي عندكم ، ولا نأكل عندكم بعد اليوم الا بالافراح .

وواحدة تهمس في أذنها قائلة :

– هذه حال الدنيا ، انتبهي لنفسك ، لا يأتي من الحزن الا المرض والوجع . اسأليني أنا ماذا جنيت من الحزن .

وترد عليهنّ كلهنّ بكلمات مناسبة .

• • •

انصرف الناس جميعاً رجالاً ونساء . صعد أبي وعمتّي الى الصالة حيث كنّا نجلس مع عمتّي . عندما رأيتهما داخلين من باب الصالة انتبهت لاول مرة إلى هذا الفارق العظيم الذي كان بينهما .

ان من لا يعرفهما لا يمكن أن يحزر انهما اخوان . كانا على طرفي نقيض في شكلهما وخلقهما . أبي طويل نحيل ، هادىء الحركات ، لونه مائل الى الصفرة ، قليل الكلام ، خفيض الصوت ، نظراته تنمّ عن طيبة ووداعة ،أما عمّي فأسمر بدين ، قصير العنق ، عريض المنكبين ، جهوري الصوت ، وقح النظرات .

ما كاد عمّي يجلس حتّى راح ينظر الى أخته صبريّة نظرات قاسية تنمّ عن غيظ وموجدة . أمّا عمتّي فكانت تبدو صامدة ، غير مبالية بنظراته ،قد استرخت على المقعد واتكأت بمرفقيها عليه ، ووضعت رجلا على رجل ، غير مرتبكة ، بل متحدية ، ومتحفّزة لكل هجوم ، وقد أضفى عليها لباسها الاسود الطويل ، والغطاء الاسود الذي أسبلته على رأسها ، وشحوب لونها كثيراً من المهابة والوقار .

ساد سكون مصطنع فترة قصيرة كان خلالها كل واحد منهما يرصد حركات الآخر الى أن قال عمّي بلهجة ممطوطة ، فيها سخرية وعنف :

— ما هذا الذي فعلته اليوم يا ست صبرية ؟ ؟

قالت بهدوء ، وصوت خفيض :

— وماذا فعلت ؟

ردّ عليها منفعلا وبصوت عال :

ـ أتتجاهلين . . . ما معنى هذا الحفل السخيف الذي أقمته الليلة دون أن تأخذي رأينا ؟ كأنك وحدك بنت المرحوم ، ونحن الرجال لا حساب لنا .

أجابته ببرود دون أن تتحرك :

ـ ظللت ابنته وحدي مدة مرضه كلها ، عشر سنوات كاملة ، حين كنت لا أراكم الا خطفاً ، كالضيوف الاغراب تماماً ، وكنت وحدي المسؤولة عن كل شيء ، كأن لا أولاد له غيري ، فمن حقي اذن أن أظل ابنته وحدي بعد موته أيضاً .

قال منددا :

ـ لا فائدة من الدخول معك في جدال عقيم ، لكن من حقنا أن نسألك من أين أتيت بالمال لتكاليف هذا الحفل ؟

قالت :

ـ اطمئن لن أكلفك شيئاً . . .

نهض عمي واقفاً ، وصرخ في وجهها وهو يلتهمها بنظراته :

ـ أتضحكين علينا ؟ أجيبي يا بنت عن سؤالي بكلمة واحدة . لا أريد كلاماً فارغاً : من أين لك المال ؟ ؟ . . .

قالت له بهدوء دون أن يبدو عليها أقل اضطراب :

ـ تأكد انه لا يخيفني صراخك . . . اهدأ واجلس لأقول لك من أين أتيت بالمال .

فاذا هو يجلس كما أمرته . وكأنها بكلماتها الهادئة ، واتزانها قد بدأت تسيطر على الموقف . ثم راحت توجه نظراتها الى

كل واحد على حدة ، وترصد حركاتهم جميعاً ، ثمّ قالت وهي تبتسم ابتسامة شماتة وتشد على الكلمات وتمطّها وهي تنطقها :

— بعت السجادة . . . .

ويصرخ الجميع فوراً وهم يحملقون اليها :

— بعت السجادة ؟ ؟ . . . .

راحت تهز رأسها وتقول وهي تبتسم :

— نعم ، بعتها ، بعتها لرجل أجنبي ، وقد سافر بها الى بلده .

وتلتفت الى امّي وامرأة عمّي وتقول لهما :

— كنت أراكما يوم مات أبي ، وأنتما في المأتم تقيسان السجادة بنظراتكما طولاً وعرضاً ، لان كل واحدة منكما تريدها لبيتها ، فوفرت عليكما مغبة الخلاف عليها .

وتقول امرأة عمّي بلكنتها الاجنبية وهي تحاول أن تكبت انفعالها ما استطاعت :

— أنا لا يهمني ان كانت السجادة عندي ، أو عند غيري ، لكن بيعها جريمة كبيرة ، جريمة كبيرة ، لانها قطعة أثرية نادرة ، ومن الصعب تقدير ثمنها . . .

وتخرسها عمّتي بكلمتين لم تنطق بعدهما امرأة عمي بكلمة واحدة طول الجلسة . بعد أن قالت لها عمّتي بلهجة تمثيلية ساخرة :

— وما دخلك أنت بالموضوع ؟ هل كانت السجادة سجادة أبيك

خريستو ؟ قالت لها ذلك لانه كان يقال ان امرأة عمي من أصل يوناني .

وتستأنف عمتي كلامها : كلكم تعلمون أن السجادة سجادة أمي قدمها لها أبوها هدية على عرسها . وطالما قالت أمامكم جميعاً مرات ومرات : هذه السجادة لصبرية . سأهديها اليها يوم عرسها .

تتنطع أمي وتقول بلؤم :

-- ولكنك لم تتزوجي لتأخذي السجادة كهدية زواج .

وتجيب عمتي وقد بان عليها الانفعال وبدأ صوتها يرتجف :

– افرضي يا ستي أنّ الليلة عرسي . لقد اشتهيت طول عمري أن أفعل شيئاً خاصاً بي . أن أدعو الناس مرة . أن أقيم حفلا ، أو وليمة ، ولو بمناسبة حزن . أن أغيظ من يغيظني – وتنظر صوب عمي وزوجته – وقد فعلتها اليوم فافعلوا ما بدا لكم . . .

كان أبي صامتاً ، واضعاً كفه على خده ، يستمع الى ما يدور أمامه من حديث دون أن يشارك بكلمة واحدة ، كأنه لا يعنيه من ذلك كله شيء ، أمّا عمّي فقد احتقن وجهه حتّى ازرق ، واذا هو يقول لعمّتي متوعداً :

اسـكتي ، ما معنى هذا الكلام الفارغ . أنا أعرف كيف أحاسبك على تحديك هذا . لهذا سنبيع البيت وسأخصم ثمن السجادة من حصتك .

وتهب عمّتي واقفـة ، وتهجم على أخيها مشيرة إليه بسبابتها

حتّى تكاد أن تدخلها في احدى عينيه وهي تقول له :

– أنت تحاسبني ؟ . . تريد أن تحاسبني يا مجرم ؟ . . أنا التي سأحاسبك . . . . أنت قتلتني منذ تفتح صباي ، وتريد الآن أن تحاسب الموتى . . . .

قال عمّي وقد كشّر عن أسنانه الصفراء الكبيرة يوهمنا انّه يضحك :

– ماذا ؟ . . . ماذا تقول هذه المجنونة ؟ . . .

راحت عمّتي تعدد على أصابعها وتقول :

– أنت حرمتني حتّى في الحياة ، قتلتني مرتين . . يوم رحت تلفق عني الاكاذيب لأبي حتّى أقنعته أن يخرجني من المدرسة قبل أن أنال شهادتي بسنة واحدة. فعلت هذا كلّه لانك تغار منّي ، كنت أنا متفوقة بدراستي وكنت أنت فاشلا .

كان صوتها يعلو على صوته : والكلام يتدفّق من فمها كأنّها رددته مراراً حتّى حفظته تماماً . وتصرخ به :

– كنت فاشلا . . . وكنت أنا المتفوقة . . . وقتلتني يوم حرمتني من الزواج ممن أحب ؟ أتظن انّني لا أعرف انّك أنت الذي أرسلت اليه من يغتاله ؟ . . لقد شويت قلبي عليه . . . حرّمت الزواج من غيره ، وعشت عمري عانساً أجتر أحزاني ، وبعد هذا كلّه تريد أن تحاسبني ؟ ! . . .

وتبدو الدهشة على الوجوه كلها من هذا السر الخطير الذي أفشته عمّتي أمام الأسرة ، سر جريمة نكراء كان قد ارتكبها عمّي . . وينهض أبي ليتلافى ما لا يجب أن يقال أمامي ، وأمام زوجته ،

وزوجة أخيه فيحول بين عمّي وعمّتي ويروح يدفعها بلطف نحو مقعدها وهو يقول لها :

– اهدئي ياصبرية ، ماهذا الذي تقولينه ؟ . . هل جننت هذه الليلة ؟

فتقول له منددة :

– اسكت انت . ان وجودك كعدمه تماما . لو وقفت الى جانبي لاستطعت ان تنقذني . انت اناني . لامبالي ، ما استنجدت بك مرة واستطعت ان تنجدني . اعرف انّك تؤمن انني على حق ، ولكن ماالفائدة من ايمانك هذا مادمت لاتزعج نفسك . لو رأيت غيرك يحترق لمـــا حاولت ان تطفئه . ياخســـارة العلم فيك ! . لو استطعت ان اتم دراستي مثلك ، لكنت خيرا منك ومن اخيك المتبجح هذا بألف مرة ، ولما كنت بحاجة اليكما لتسكناني في غرفة صغيرة عند جيران كما اشــارت عليكما حضرة الست – وتشير بيدها الى امرأة عمّي – ان اكثر زميلاتي اصبحن مديرات مدارس ، او موظفات كبيرات وانا امضيت عمري اخدم مفلوجاً ! . . . .

بلع ابي الاهانة دون ان يجاوب . امّـــا عمّي فقد ظهر لي الان على حقيقته ، فعلى الرغم من تبجحه ، واعتزازه بنفسه كان من النوع الذي يخضع للقوي ، ويستشري على الضعيف ، فمنذ ان انفجرت عمّتي في وجهه استكان وانخفض صوته . ولمّا راحت توجه لومها الى ابي وجد عمّي فرصة مناسبة للانسحاب من الجلسة . وأراه يشير الى زوجه ان تتبعه. فيخرجان من الصالة ، ويهبطان الدرج بسرعة ، واسمع صوت

الباب وهو يغلق بشدة . ويخيم علينا الصمت هنيهة بعد ذهابهما ، ثم تقول عمتي :

ـ وانتم ، لقد آن لكم ان تذهبوا الى بيتكم ايضا .

وتقول امي :

ـ نحب والله ان ننام هذه الليله عندك ، ولكن . . .

واقاطعها انا قبل ان تتم كلامها :

ـ اذهبا انتما سأنام انا عند عمتي .

وترد عمتي قائلة باصرار :

ـ لا . . والله العظيم لاينام عندي احد . اذهبي انت مع اهلك . اريد ان اخلو الى نفسي . لااريد احداً معي ابدا .

قلت :

ـ لاتتعبي نفسك ، لن اذهب والله ولو طردتني ، لن اضايقك ابدا . سادخل فورا الى غرفتي .

وكانت لي غرفة في بيت جدي ، اعدت لي عمتي سريرا مريحـــا . وطاولة للكتابة ، كنت ألجأ الى هـــذه الغرفة أيام الامتحانات لأخلو الى دراستي ، وأتخلص من ثرثرة امي ، وملاحظاتها التي لاتنتهي .

وددت مخلصة ان اتحدث الى عمتي بعد ذهاب أبي وامي لأواسيها وأخفف عنها قليلا بعد تلك الليلة الرهيبة ، ماكدت افتح فمي حتى اومأت الي بيدها ان اسكت واضعة سبابتها على فمها ، ناظرة الي نظرة كأنها تذكرني بوعدي لها بان لا ازعجها ابدا . اذعنت لمشيئتها . كان

لامناص لي من هذا الاذعان بعد ان نظرت الى وجهها فاذا لونه العاجي قد استحال الى لون رمادي تشوبه زرقة ، واذا نظراتها تائهة زائغة ، وقد خيل الي وأنا أراقب رجفان يديها ان اعصابها اصبحت كأوتار مشدودة ، وانها الآن اشبه ما تكون بقنبلة قد سحب منها صمام الامان ، ماتكاد تمس حتى تنفجر . ويعتريني منها خوف شديد وأوثر السلامة ، فأظل صامتة كما طلبت مني .

وتمر لحظة صمت قصيرة ، ثم تقول بلهجة آمرة جافة :

ـ اذهبي ونامي في غرفتك . سندع الان كل شيء على حاله حتى الصباح.

ثم تردف :

ـ الصباح رباح . . .

قالتها بنغمة ممطوطة متوعدة وهي تهز رأسها .

وأشعر بشيء من الارتياح على الرغم من توجسي شرا من كلامها .

لأن اخشى ماكنت اخشاه هو ان تطلب مني ان نرتب البيت الذي أصبح بحالة بشعة من القذارة والفوضى ، الكراسي تملأ ارض الدار . بقايا المائدة بعد ان اخذ منها أبو العز مايستطيع حمله ، كاسات الشاي الفارغة ، صحون الحلوى الملوثة ، اعقاب السجاير ، هذا كله كان مبعثرا في ارض الديار حتى الطابق الفوقاني ، وفي غرف الدار كلها وكان لابد لي ان اعمل معها ، وقد لانتهي حتى الصباح ، فقد اشرفت الساعة على الثانية بعد منتصف الليل ، واقوم فورا واتجه نحو غرفتي التي كانت بجانب الصالة التي كنافيها ، بينما تتجه عمتي نحو السطح ، وتروح

تصعد الدرج الى الغرفة الوحيدة في الطابق الثالث وكانوا يسمونها « الطيارة ». كنت اعرف عمتي تحب هذه الغرفة اكثر من اي مكان آخر في البيت ، لقد وضعت فيها خزانتها ، ومكتبتها وصندوقها المقفل دائما وطالما قالت لي عندما كنت ازورها :

— كمم احب ان انام في هذه الطيارة ، ليس امتع من النوم فيها ، انها دافئة ايام الشتاء ، في ايام الصحو لا تفارقها الشمس من الصباح الى المساء ، و باردة ايام الصيف ، عندما نفتح شبابيكها يلعب فيها النسيم حاملا انفاس الورد والياسمين ، واريج زهر النارنج والزلف ، وليس اجمل منها في الصباح ، تستطيعين وانت في سريرك ان تري الشام كلها ، قبابها الضخمة ، ومآذنها الرشيقة ، سقوف بيوتها المتلاصقة ، السماء الزرقاء الصافية ، او الموشاة بالغيوم ، اسراب الحمام التي يطيرها مربو الحمام من الجيران ، لكن ما الفائدة مادمت لاستطيع ان ابعد عن جدك لحظة واحدة ، كما لاستطيع ان انقله من الطابق الارضي الى هذه الطيّارة البعيدة عن الحمام والمطبخ . وهو كما تعلمين لايفتر عن الصراخ صبرية . . . صبرية . . . ! هكذا كتب عليّ ان اسجن في هذا البيت ، اتحمل الصقيع والرطوبة في الشتاء ، والهواء الثقيل في الصيف ، هذا كله من اجله ، وياليته يشعر بما ابذل له ! . . .

مسكينه ياعمتّي ! . . . . حتّى هذه الرغبة الضئيلة لم يتح لك تحقيقها طول حياتك ! . . .

كان جسمي وذهني قد ارهقا تماماً فراحا يلحان عليّ في ان يخلدا الى الراحة بعد تلك الليلة العصيبة ، الحافلة بالمفاجآت المؤلمة .

لقد تكشفت لي امور كانت تجري في اسرتنا وكنت عنها غافلة ، ولم ترتح لها نفسي ابدا . لقد لمست انانية الانسان وقسوته حتى مع اخوته . لم يكن لديّ قدرة لأستعرض بذهني مارأيت وسمعت ، ثم أوازن ، واستنتج الحقائق الخالصة حسب اجتهادي .

ماكدت اضع رأسي على الوسادة حتّى غرقت في سبات عميق قد لاينعم بمثله بعد تلك الليلة الصاخبة الا من كان مثلي في مقتبل العمر .

تنبهت من نومي مذعورة على رنين الجرس المتواصل دون توقف هززت رأسي لأصحو ، وعركت عيني لأطرد منهما بقايا النوم . يبدو انني نمت كثيراً ، لقد ارتفعت الشمس وملأت الغرفة . نشبت من السرير كان اول مااسترعى انتباهي كراس سميك ذو جلد ازرق وضع قرب وسادتي ، وقد لاحظت على غلافه رقعة بيضاء كتب عليها بخط كبير واضح :

(الى بنت اخي سلمى) لقد مضى على هذا الحادث مامضى من سنين ومازلت الى الآن اتساءل : أي شعور خفي هذا الذي دفعني لأن اخفي الكراس تحت الفراش وانا في تلك العجلة من امري ؟ ؟ لابد ان شيئا من وراء الشعور كان يوحي الي ان امرا ما قد حدث .

هل فرّت عمّتي من البيت وتركت لي هذا الكراس ؟

الجرس مايزال يطن باستمرار مع خبطات قوية على الباب ، التففت بثوبي المنزلي ورحت اقفز الدرج ، الم تستيقظ عمّتي بعد ام تراها غادرت البيت ؟ ام صوت الجرس لايصل الى غرفة الطيارة حيث كانت تنام ؟

قبل ان انتهي من الدرج التفت نحو ارض الدار فوقع نظري عليها ،

واذا انا اصرخ صرخة مدوية من هول مارأيت .
لقد شنقت نفسها !

رأيتها طويلة ، طويلة وهي مدلاة من شجرة الليمون بثوبها الاسود وغطائها الاسود ، ورأسها منحن على صدرها قليلا ، ووجهها بقعة بيضاء شاحبة في محيط اسود !

لم اعد ادري كيف هرعت نحو الباب ، كيف فتحته وانا ألهث .

ويطالعني وجه عمّي ومن ورائه وجه ابي ، ومعهما رجل غريب علمت فيما بعد انه الدلاّل ، وقد اتيا به ليرى البيت .

وأصرخ في وجه عمّي وانا ألهث لهاثا يكاد قلبي يقف من شدته :
— تفضل انبسط . . اختك شنقت نفسها !
وأجدني ارتمي على صدر ابي ولم اعد اعي شيئا .

لاادري كم ظللت فاقدة الوعي . عندما صحوت وجدتني ممددة على اريكة في الليوان ، وكان ابي منحنياً علي يفرك يدي بيديه المرتجفتين ثم يرش وجهي بالماء البارد ، وقد ازداد وجهه شحوباً ، وكان عمي جالسا على كرسي قبالتي ، وقد اسند رأسه بكفه فحجبت بعض وجهه المتجهم المزرق ، امّا الشخص الثالث ، اي الدلال فقد اختفى تجنبا لمشاكل لادخل له فيها .

قال ابي بصوت خفيض مرتجف :
— متى رأيتها ؟
لم أرد عليه . كرر السؤال :
— متى ؟ عندما نزلت من غرفتك لتفتحي الباب ؟

هززت رأسي دون ان انطق .

سألني :

– هل قالت لك شيئاً بعد انصرافنا ؟

رفعت حاجبي اشير بالنفي .

ايقن ابي انّني لن استطيع ان انطق بكلمة واحدة فقال لي :

– تشجعي ساعدينا ، قومي وارتدي ملابسك بسرعة واذهبي الى البيت قبل ان تحضر الشرطة . الاحسن هو ان ننكر وجودك هنا كي نعفيك من التحقيق والاستنطاق ، امور صعبة عليك ، لاقدرة لك عليها وربما اوقعتنا في مشاكل .

نظرت اليه نظرة بلهاء دون ان اجيب بكلمة واحدة او آتي بحركة. لقد انحل توتري وتشنجي ، اصبحت كخرقة بالية مبتلة ملقاة على الاريكة .

قبض ابي على كتفي وجذبني اليه فجلست ، ثم هزني بعنف كي استعيد وعيي ، وراح يقول لي بصوت عال :

– قومي بسرعة . لاوقت عندنا . ارتدي ملابسك واذهبي الى البيت . خبري امك بما جرى وقولي لها ان تأتي الى هنا حالا .

امتثلت لكلامه وكأنني مسيرة لاقدرة لي على التفكير ،قمت وسرت اجرجر رجلي وأتكيء على الكراسي المبعثرة في الباحة ، واتجهت نحو الدرج ورحت اصعد . لكم كان شاقا علي هذا الصعود .خيل الي ان الدرج لن ينتهي . كانت ركبتاي تتقصفان ، فكنت استعين بالاتكاء

على الدرابزين خشية الوقوع ، وصلت الى غرفتي . وارتديت ملابسي كأنني آلة . وعلى الرغم من هذا كلّه لم انس ان آخذ الكراس الازرق من تحت الفراش واخفيه في حقيبتي واحملها معي .

عندما كنت انزل الدرج حاولت جهدي ان اتحاشى النظر اليها ، ولكنّني لم استطع ، كانلابد لي من نظرة اخيرة اودعها بها . كانت لا تزال مدلاة من الليمونة . راية سوداء منكسة ، رفعتاحتجاجا صارخا على الجور والظلم . كانت عيناها مغمضتين ، اما وجهها الشاحب فقد خيل اليّ ان فيه براءة الملائكة ، ووداعة الاطفال النائمين .

لقد قدر لي ان ارى الموت اول مرة في حياتي في اقسى مظاهره واشدها رهبة .

لمحت ايضا أقفاص الحساسين ، وقفصي الكناريا والشحرور مفتوحة كلها ، لقـد اطلقتها عمّتي كلّها من اسرها قبل ان تطلق روحها المعذبة من اسرها الطويل .

وتحين مني التفاتة فأرى عمّي يدور بين الكراسي وهو يضرب جبهته بيده ، وبيده الاخرى منديل يكفكف به دموعه ثم يتجه نحو المشنوقة فيعانق رجليها المؤرجحتين في الهواء ويدفن رأسه بينهما ثم يجهش بالبكاء بصوت عال .

ترى هل ادرك عمّي الآن نتائج تصرفاته مع اخته فندم حين لاينفع الندم ؟

ام هل انقشعت الغشاوة عن ذهنه فعرف الحق من الباطل في لحظة خاطفة لكن بعد فوات الاوان ؟ ؟ !

امر غريب حقاً ماكنت لأنتظره منه ابداً ، . . الكم شعرت بالشماتة وانا أراه يتعذب . كان ابي الرقيق القلب الجياش العاطفة اكثر تماسكا منه .

واتجه نحو الدهليز دون ان اتبادل معهما كلمة واحدة . فاذا أبي يتبعني ويقول لي :

– انتظري قليلا . يجب ان لايراك احد وانت خارجة من البيت ، ثم يمد يده الى جيبه ويخرج بعض النقود ويضعها في يدي ويقول لي :

– استأجري سيارة توصلك الى البيت .

ويفتح الباب وينظر يمينا ويسارا من اول الحارة الى آخرها ثم يقول لي :

– اخرجي بسرعة . تحاشي النظر الى الناس . اياك انه تتحدثي الى احد عمّا جرى سوى الى امّك .

خرجت . وأوصد هو الباب خلفي بهدوء .

لم افكر ان استأجر سيارة . آثرت ان اسير على قدمي مهما طال الطريق لأخلو الى نفسي قليلا ، اجمع شتات ذهني ، اعود الى اتزاني وأجدني اتمتم : ياعمتي المسكينة !

اهذا هو الانتقام الذي كنت حدثتني عنه ؟ انّك لم تنتقمي من احد انّما يئست وانهزمت ، لان قدرتك على التحمّل قد نفدت اخيراً . . . .

ماافظع ان تنتهي حياتك الشقية بالانتحار دون ان تتخللها ولو ومضات قصيرة من السعادة ! . . . .

وتنهمر الدموع المتجمدة في عيني فالتقطها بمنديلي وأسرع في سيري . كنت اسير دون وعي . واجدني اقف امام بيتنا،لاادري كيف وصلت ، كيف قطعت الطريق من حي سوق ساروجة حتّى منتصف طريق الصالحية حيث كان بيتنا في احدى الحارات المتفرعة منه كأنني كنت كالحيوانات التي تعود الى اماكنها مسوقة بغريزتها فقط .

وضعت يدي على جرس بيتنا ورحت اضغط دون توقف .

فتحت امي الباب وصرخت بي قائلة :

— العمى . . . ماذا بك ؟ الا تتوقفين قايلا ، ريثما اصل وافتح لك .

وقفت امامها جامدة .

راح صوتها يخفت وهي تحدق الى وجهي الممتقع الشاحب ، وعيني الحمراوين . كنت ايضا احدق اليها النظر بشراسة دون ان انبس بكلمة واحدة .

صرخت امي :

— ويلي ماذا جرى لك ؟ ؟ قولي .

وسحبتني من يدي فدفعتها عني ودخلت وانـــا اقول بصوت عال ولهجة جاءت تمثيلية دون قصد مني :

— مجرمون كلكم . . ، كلكم مجرمون . . .

شهقت مدهوشة ، وقالت :

ـ مجرمون ؟ . . اسم الله عليك ، ماذا جرى لعقلك ؟ هل جننت كفانا الله شرك ؟

اقتربت من وجهها وقلت بصوت عال وانا اشد على الكلمات :

ـ صبرية شنقت نفسها ، لانكم تكاتفتم كلكم ، كلكم ضدها ، انبسطوا الآن واستريحوا . . . . . .

حدقت أمي اليّ ثم ضربت صدرها بكفها وصرخت :

ـ شنقت نفسها ؟ . . . . ويلي من هذه المصيبة التي حلت بنا ! . . .

قلت :

ـ ارأيت ، لم تفكري بتلك التي شنقت نفسها ، فكرت بالمصيبة التي حلت بكم ، بالفضيحة التي ستجعلكم سيرة بشعة في افواه الناس . لم تهتم بكلامي . راحت اسئلتها تنهمر علي وهي في حالة فظيعة من الدهشة والروع :

ـ متى شنقت نفسها ؟ . . اين . . هل خمت ، ؟ اين كنت حين شنقت نفسها ؟

زعقت في وجهها :

ـ لاأعرف شيئا ، صحوت على رنين الجرس ، فلما نزلت لأفتح الباب لأبي وعمتي رأيتها مشنوقة بالليمونة . لقد فضلت الموت على الحياة بعد الذي جرى لها معكم البارحة . لاتسأليني شيئا . . . دعيني

ادخل غرفتي واوصد الباب علي . واياك وان تذكري لأي انسان انني كنت هناك لان ابي وعمتي يريدان ان ينكرا وجودي هناك . ابي يريدك ان تذهبي اليه حالا حالا .

كانت تستمع إلي وتنظر بهلع الى وجهي الذي لاأدري كيف اصبح شكله . تركتني ادخل غرفتي ، لم تعد تزعجني بأسئلتها وتعليقاتها ، ربما اشفاقا علي من المرض او الجنون ، او خوفا مني بعد ان رأتمني مارأت .

ارتميت على سريري كما انا بألبستي وحذائي . واغمضت عيني ، رأيتها ماثلة امامي ، طويلة طويلة وهي مدلاة من الليمونة بالبستها السوداء ورأسها منحن على صدرها . كيف استطيع ان اتناسى هذه الصورة الفظيعة التي انطبعت بذهني الى الابد ؟ . . . ماشعرت مرة انني احببت عمتي كما احبها الآن . وماكرهت اهلي ابدا كماكرههم الآن . لقد تصورتهم عصابة متآمرة على امرأةضعيفة . لاسيما عمتي وزوجه ثم امي ، اما ابي فكان يغيظني بلا مبالاته ، ولكنني كنت اشفق عليه لطيبته وكرم نفسه وأعرف ان لاحول له ولاقوة ، فهو ضعيف الارادة يسير تحت سيطرة زوجه واخيه ، ألم تقل له البارحة عمتي : مااستنجدت بك مرة واستطعت ان تنجدني . وقالت ايضا لعمتي : لقد قتلتني مرتين ، يوم حرمتني من الدراسة ويوم حرمتني من الزواج بمن احب . اتظن انني لااعرف انك كنت انت سبب موته ؟ ! . . . .

لماذا كانت تستنجد بابي ؟ وكيف كان عمتي سبب موت من تحب ؟ ان هناك اسراراً وقصصا رهيبة كانت تجري بين افراد أسرتنا لاعلم لي بها ، هذا ماسيجلوه لي الكراس الأزرق الذي تركته لي عمتي .

وامد يدي لأخرج الكراس من الحقيبة . لاادري لماذا تراجعت يدي عنه كأنه لسعني ، او كأنني تهيبته اوخفت منه .

لاشك انني خشيت ان اقرأ فيه اشياء تزيدني حزنا وغيظاً فأرجأت القراءة فيه لوقت آخر .

او ربما شعرت انني لن استوعب ماسأقرا فيه الآن وانا في تلك الحالة النفسية المضطربة . سحبت يدي من الحقيبة ،وظللت ممددة على سريري .

بدا شيءٌ من الهدوء يعاودني . صرت اسمع صوت خطوات امي حين تقترب من باب غرفتي الموصد وتتريث قليلا ثم تبتعد ، انها لاشك تتنصت علي ، تخشى ان يصيبني مكروه بعد الصدمة العنيفة التي اخرجتني عن طوري .

آه كم يضايقني حنانها الزائد ، اشعر احيانا انه يكبلني ، يكاد يخنقني . . . لماذا لاتتركني وشأني ؟ . . . مااصعب ان يكون الانسان وحيد ابويه ، وان يأتيهما بعد عقم طويل كما اتيت انا بعد عقم دام اكثر من خمس سنوات . كان مجيئي الى هذه الدنيا معجزة ، لأن امي كانت قد بلغت الاربعين من عمرها دون ان ترزق ولداً ، فلمّا رزقت بي تلقتني بكثير من التوق واللهفة ، ولم يكن ابي اقل حنانا منها ، كانا يريان الدنيا حلوها ومرها من خلالي انا ، فلا شاغل لهما سواي.كانا يحصيان علي انفاسي ، يراقبان طعامي وشرابي ويقظتي ومنامي . فرحي وحزني ، لقد شارفت الخامسة عشرة من عمري ومأزال في نظرهما طفلة تحبو تحتاج الى المساعدة والمراقبة . شيءٌ لايطاق ، متى اتحرر من هذا الكابوس الجاثم على صدري ، كابوس حنانهما ؟ . . . احيانا احنق عليهما ، واحيانا اجدني اشفق عليهما فأسايرهما جهدي . هاأنذي بدأت

أشفق على امي ، لقد قسوت عليها كثيراً حتى كأنها هي التي شنقت عمتي .

واسمعها تنقر الباب الموصود علي فأقوم من فوري وافتحلها الباب. كانت مرتدية ملاءتها ، تحمل بيدها كوب حليب ، تقدمت مني ونظرت الي بعينين لاهفتين متوسلتين وقالت :

– ياويلي ! . . . . كيف استطيع ان اذهب واتركك وحدك ؟! . .

قلت :

– اطمئني . . . ستجدينني كما تركتني .

قالت وهي تقدم لي كوب الحليب :

–والله لن اذهب من هنا ما لم تشربيه .

في الواقع كنت في اشد الحاجة اليه ، كان فمي جافا لايدور فيه لساني الا بصعوبة لكثرة ماذرفت من الدموع ، ونضح جسمي من العرق .

تناولت الكوب من يدها دون ان انطق ، وكرعته مرة واحدة كمن يكرع دواءا كريها .

قالت امي :

-- ستمرضين اذا ظللت على حالتك هذه . كلي شيء ياحبيبتي بيد الله وماعلينا الا ان نرضى بحكمه. هذا ما كتب على عمتك من وقت ما خلقت . اسألي الله تعالى ان يغفر لها فعلتها المنكرة هذه . انه غفور رحيم .

حملقت مركزة نظراتي الحانقة في عينيها ، وقلت :

ـ يغفر لها ؟ ؟ أليس هو الذي كتب عليها هذه النهاية منذ خلقت كما تقولين ؟ ماذنبها هي ليغفر لها ؟ ؟ .

قالت :

ـ لاتكفري يابنتي ، استغفري الله العظيم . . الخير من الله والشر من أنفسكم .

صحت وأنا أكزعلى أسناني غيظاً ...ما فائدة الجدال مــع أمي؟...

قالت :

ـ سأذهب الان ، لادري كيف سندبر هذه المصيبة التي حلت بنا . مسكين ابوك ، ان قلبه رقيق ، واعصابه ضعيفة . أسأل الله ان يجيره من المرض ، يجب ان نسعى انا وانت مااستطعنا للتخفيف عنه .

ظللت معتصمة بالصمت حتى خرجت من البيت .

آه . . . كم أغبط امي على ايمانها الخالص هذا . . انها تحيل كل شيءٍ على القضاء والقدر واللوح المحفوظ ، ثم تروح تنعم بالراحة والدعة والطمأنينة.واعود الى سريري . لم يكن لدي اية قدرة على الاتيان باي عمل . حتى لم استطع تغيير ثيابي او غسل وجهي . رحت اشعر بشيءٍ من الوحشة والخوف ، كنت ارى المشنوقة امامي كيفما تلفت . ويضايقني الصمت المطبق ، الصمت الذي تضج فيه الوساوس والاوهام ، الصمت الذي يجعل الحواس متنبهة لكل حركة او نأمة .

آه الموت ! . . مافظعه ! . . . وكم هو مخيف التفكير به . . . لكنه مصيرنا المحتوم . لا أدري كيف نستطيع ان نبعده دائماعن أذهاننا؟ ان نتناساه ، ولو بلغنا من العمر ارذله ، او ابتلينا بأبشع الامراض نؤمن بالمعجزات والخوارق كي نهرب منه مااستطعنا ، وكيف يسعى اليه المنتحرون وقد يكونون في اوج الشباب ، واحسن العافية ؟

هل الانتحار جبن ام شجاعة ؟

لاشك عندي انه جبن وشجاعة في آن واحد . هذا ماحدث لصبرية بالتأكيد . لقد جبنت من مواجهة واقع بشع لاتملك تغييره ابدا بعد ان وجدت نفسها كهلة محطمة ، لاتجيد عملا ولا تحمل شهادة ، وقد فرض عليها ان تعيش عالة على اخويها المتبرمين بها ملفا ، فآثرت الموت على هذه الحياة المهانة الذليلة . وكانت شجاعة حقا حين استطاعت ان تنفذ هذا الانتحار . لاشك انها صممت عليه منذ ان سمعت من اخويها انهما سيبيعان البيت وسيستأجران لها غرفة صغيرة عند جيران في بيت متواضع .

ألم تقل لي يومئذ انها لن تخرج من هذا البيت الا جثة هامدة ؟ وهاهي ذي تخرج منه جثة هامدة . لابد انها منذ تلك اللحظة وقد بلغ منها اليأس اشده قد حكمت على نفسها بالموت وظلت تعايش شبحه الرهيب شهراً كاملاً . يالها من انسانة شجاعة صامدة ، لم تشك مصابها لاحد ، كلما حللت شخصيتها الغريبة ازددت بها اعجابا ، وعليها ألما . ماذنبها اذا عاكستها الظروف ؟ انتحرت حين وجدت جميع الطرق مسدودة امامها. كان انتحارها احتجاجا كبيرا على ما حاق بها من ظلم .

لكن الذي حيرني حقاً هو ماالذي حدا بها لتقيم هذه الحفلة السخيفة بمناسبة مرور اربعين يوما على وفاة ابيها ، وهي على ماهي عليه من الذكاء والفهم .

أمن اجل ان تبيع السجادة النادرة وتغيظ اخويها ؟ شيْ غير معقول

طبعا . كان بامكانها ان تتبرع بثمنها للفقراء ، او تهديها لاحد الجوامع . أم تراها اقامت الحفلة لنفسها ، وليس لابيها. اقامت مأتمها وهي حية ، لانها كانت واثقة ان اخويها لن يقيما لها مأتما لائقا . ألم تقل لامي في تلك الليلة المشئومة :

— افرضي ياستّي ان الليلة عرسي .

اعلها كانت تقصد ليلة موتها ، وكانت قد صممت على الانتحار في تلك الليلة ذاتها . ام المنتحرون — كما يقال — لابد ان يطرأ على عقولهم شيْ من الخلل ؟ . ماهمية المأتم ان كان لائقا ام غير لائق بالنسبة لانسان يائس رفض الحياة وآثر عليها الموت بل سعى اليـه بنفسه ؟

ظلت هذه الاسئلة ، والصور تنتابني ، والمشنوقة ماثلة امامي ان فتحت عيني او اغمضتهما ، مرت الساعات بطيئة ، بطيئة . ضاق صدري . ازداد خفقان قلبي ، وهن جسمي . اشعر انني اختنق. اعتراني خوف ورهبة . خشيت ان اموت . نشبت من سريري . خرجت من غرفتي الى الردهة الصغيرة التي تتوسط الدار . كانت امي قد جعلت من هذه الردهة غرفة طعام لانأكل فيها الا بالمناسبات اي عندما يكون عندنا وليمة . كان في الردهة طاولة طعام كبيرة مغطـاة دائما بغطاء اصفر مطرز بالأغباني(١) مللت النظر اليه لكثرة ماكنت اراه في رواحي ومجيئي ، وحول الطاولة صفت الكراسي لصق بعضها فلم يبق من

---

(١) الاغباني : نوع من التطريز شائع في دمشق .

الردهة الا ممرات ضيقة بين الكراسي والجدران . رحت ادور في هذه الممرات الضيقة كحيوان محبوس في قفص .

لكم كان بيتنا كئيبا . . لم أشعر بكآبته كما أشعر بها اليوم .

كان من تلك البيوت الحديثة المرصوصة الى جانب بعضها في حواري ضيقة يكاد الهواء يشح فيها احيانا كثيرة ، وكنا نسكن الطابق الثاني ، كم حاولت انا وابي ان نغير ترتيب بيتنا هذا او تقسيمه لكن امي كانت تعارض رأينا ، ولم نفلح في اقناعها ابدا .

كانت أمّي من الصنف الذي يعيش للناس فقط ، من أجل أن يرضيهم ويعجبهم لا من أجل أن يرضي نفسه ويرفّه عنها. ويؤلمني أن أكثر نساء بلدنا من هذا النموذج . كانت أمّي قد جعلت من أحسن غرفة في البيت صالة استقبال . ووضعت فيها أجود ما لدينا من أثاث . وكانت تستقبل فيها ضيوفها مرة واحدة في الشهر . في اليوم الخامس عشر منه أو عندما يجيئنا ضيف طاريء ، وقلّما كان يجيء . ولمّا كنّا – أنا وأبي – نحب أن نجلس في هذه الغرفة لا سيما أيّام الشتاء حيث تنتشر فيها الشمس من دون البيت كلّه ، أو أيّام الصيف حيث يلعب فيها نسيم ندي عندما تفتح شبابيكها العريضة المطلّة على فسحة في نهاية الشارع مزروعة بالحشيش الاخضر ، وشجيرات الدفلى ذات الازهار الحمراء . كانت أمي تنزعج منّا جداً خشية أن يهترىء الاثاث من جلوسنا عليه ، أو تتّسخ الستائر البيضاء من دخان سجاير أبي الذي كان يدخنها باستمرار ، فصارت أمّي تقفل بابها بالمفتاح وتخفيه عنّا في مكان لا تطوله أيدينا .

أمّا بقية الغرف ، الغرفة الصغيرة التي تخصّني ، وتلك التي تكبرها قليلاً وينام فيها أبي وأمّي ، ثمّ الداكونة الملاصقة للمطبخ وقد حولتها

أمّي بعد أن فتحت فيها كوة صغيرة تطل على مدخل البيت الى غرفة جلوس وطعام في آن واحد فكنا نحشر فيها ونمضي أكثر أوقاتنا فيها . هذه الغرف كلّها كانت أشبه ما تكون بزنزانات محشوة بأثاث عتيق كالح . من أجل هذا كلّه كان أبي لا يستقر في البيت الا لماما ، أثناء النوم والطعام فقط ، ثم يهجره الى المقهى ليلعب لعبة الطاولة مع رفاقه ، وقد لا يعود من هناك قبل منتصف الليل .

الشيئان الوحيدان اللذان لم تستطع أمّي أن تمنع أبي عنهما هما التدخين والمقهى .

أتراه كان يستعين بهما على تحملها ؟ . . .

طالما تساءلت كيف تزوج أبواي وليس بينهما أي انسجام في الطبع أو الشكل ؟ ؟ بقدر ما كان أبي وديعاً ومسالماً كانت أمّي مشاكسة تحب السيطرة والهيمنة على من حولها. كانت تكبر أبي بعشر سنوات ، وتبدو مترهلة وليست على شيء من الجمال .

بينما كان أبي لا يزال محتفظاً بشبابه وأناقته . عيبه الوحيد كان يتجلّى بلا مبالته بكل ما كان يجرى حوله . أتراه لو لم يكن هكذا كان يستطيع العيش مع أمّي التي كانت تحشر نفسها في كل شيء ، وتحب أن تفرض سيطرتها على من حولها ؟ انّ ما يبرّر لامي تصرّفاتها هذه هو حنانها الفائض ، وتضحيتها المثلى في سبيل أسرتها الصغيرة . ثم قدرتها على تحمّل المسؤولية وحدها .

كانت اذا مرض أحدنا تظلّ ساهرة أمام سريره حتّى يشفى . تقوم وحدها بأعباء البيت دون شكوى أو تذمّر . تؤثرنا على نفسها بكل

شيء . لا تبخل علينا بشراء الاشياء المترفة ، بينما كانت لا تشتري لنفسها الاّ الاشياء الضروريّة .

لن أنسى يوم نشبت مشاحنة بين أبي وأمّي من أجل سهره كل يوم خارج البيت ، تركتهما يتشاحنان وذهبت لانام في بيت جدّي وأفرغ لدراستي .

كنت أشعر ان عمّتي – رحمها الله – تفرح بزيارتي وتستأنس بي . انّني أشعر بغصّة عندما أقول – رحمها الله – ستظلّ هذه الجملة منذ اليوم ملازمة لذكراها دائماً أبداً.أم ترانا سنتحاشى ذكرها أيضاً ونومىء اليه ايماءاً ؟ ! . . . لكأنّني أراها الآن أمامي بقامتها النحيلة الفارعة ، ووجهها القمحي المستطيل ، وعينيها السودواين العميقتين ، ونظراتها الحادّة تروح وتجيء أمام سرير جدّي تطعمه وتسقيه بيدها ، ثم تهيئه للنوم . فاذا فرغت منه جاءت بالعشاء الى الليوان ودعتني لنتعشّى معاً . قلت لها ونحن نأكل أقراص الكبّة المشوية التي كانت تجيد صنعها :

– أحبّ يا عمّتي أن أسألك سؤالاّ أرجو أن تجيبيني عليه بصراحة. قالت :

– اسألي ياحبيبتي مابدا لك ، وتأكدي انيّ لن أخفي عنك شيئاً . قلت :

– هل لك أن تخبريني كيف تزوج أبي من أمي ،ومن خطبها له ؟

فراحت تضحك وتضحك حتّى دمعت عيناها من الضحك كأنّني ألقيت عليها نكتة ، ممّا أثار دهشتي ثم قالت :

– لماذا خطرلك الان هذا السؤال؟تأكدي اننا لم نخطبها لهنحن . ثم أردفت :

– لقد بلغت ما بلغت من العمر ولم تعرفي بعد كيف تزوج أبوك أمّك أو على الاصح كيف اصطادت أمّك أباك ؟ . . .

قلت :

ـ ومن أنّى لي أن أعرف ذلك ان لم تقصي أنت عليّ قصتهما ؟ .

قالت :

ـ سأقصها عليك ان وعدتني بألاّ تخبري أمّك بما سأحكيه لك ، فياويلي منها اذا بلغها الخبر .

قلت : أظنّني أهلاً لثقتك .

قالت :

ـ أي والله .

ثمّ راحت تحكي :

ـ كان أبوك في الثالثة والعشرين من عمره عندما نال شهادة الحقوق . كان خجولاً منطوياً على نفسه ، لا يشبه أحداً منّا ، كأنّه نسيج وحده . بعد تخرجه راح يسعى وراء وظيفة شأن غيره من حملة الشهادات . ومن سوء حظّه انّه لم يوفّق الاّ لوظيفة صغيرة في فرع المالية في مدينة حمص ، ووعد أن ينقل الى دمشق بعد سنتين ، فسافر الىحمص ليباشر عمله . وأذكر أنّ أمّي رحمها الله توجست شراً يومئذ من سفره . فكانت تضرع الى الله أن يصرف عن ابنها الطيّب أولاد الحرام .

ويمكث أبوك هناك في فندق أياماً ، ثمّ يروح يتحرى عن غرفة يسكن بها ، لان راتبه الضئيل ما كان ليكفيه العيش في فندق ، ويعثر على غرفة صغيرة في بيت أرملة عجوز تعيش مع ابنتها العانس .

سمعنا فيما بعد أن تلك الارملة العجوز التي هي جدتك كانت

داهية لا مثيل لها في حمص كلّها . ويبدو منذ دخل أبوك بيتها راحت وابنتها تنسجان حوله شباكهما ، لقد وجدتاه صيداً ثميناً ، زوجاً مثالياً للبنت العانس التي فاتها القطار . وراحتا تفرطان في تدليله والترفيه عنه ، وتتظاهران أمامه بالتقوى والورع والترفع والغنى الوفير . وتوهمه العجوز انها لم تؤجره الغرفة عن حاجة وانّما للاستئناس به ، لانها سمعت الكثير عن خلقه ، وشرفه ومروءته ، وتدينه ، ولذا فهي تؤثر الا تتقاضى منه الا شيئاً رمزياً كي لا يشعر بالحرج .

ويبدو أن أباك قد صدّق كل ما قيل له ، ووجد في كنفهما — وهو الغريب عن بلده — دعة وطمأنينة ، فما أسرع ما وقع في الفخ . واستطاعت العجوز الداهية أن تزوجه من ابنتها بين ليلة وضحاها قبل أن يعود الى دمشق ويستشير أهله ، خشية أن يزهدوه فيها . ويكتشف أبوك بعد الزواج أن العروس أكبر منه بأكثر من عشر سنوات ، وليست على شيء من الجمال ، فهو لم يرها الا يوم العرس ، فأعجب بقامتها المديدة ، ويديها البضتين ، وكان هذا أجمل ما في أمّك .

أمّا الغنى الوفير فقد اقتصر على البيت المتواضع الذي تسكن فيه العجوز وابنتها ، وعلى دكان صغيرة في جانب البيت . وسرعان ما انقلبت العجوز الوديعة الى حماة شرسة ، وقد ذاق أبوك منها الامرين مدى ثلاث سنوات كاملة ، فلمّا ماتت آثر أن يعود الى دمشق . باعت أمّك البيت والدكان واشترت بثمنهما هذا البيت الذي تسكنون فيه الآن . لقد أبت أمّك أن تسكن معنا في هذا البيت الكبير ، ولم يستطع ابوك ان يقنعها بالسكن معنا على الرغم من حبه لذلك . لقد عودته منذ تزوجته ألاّ يخالف لها رأياً .

وكم كان هذا يقهر أمّي ، كانت تود أن يسكن أولادها معها

على جري العادة آنذاك . وعدا هذا كلّه لم ترزق أمك أولاداً مدى
خمس سنوات لم تدع خلالها طبيباً ، ولا قابلة ، أو شيخاً في دمشق كلها
الاّ لجأت اليه ولكن دون جدوى الى أن يئست من أمرها واستسلمت
الى ما كتبه الله عليها . فاذا بعد يأسها هذا بمدة وجيزة تحمل بك . لم
تصدق في باديء الامر ، ظنّت نفسها مريضة . فلمّا أكّد لها
الاطبّاء انها حامل كادت تجن من الفرح . لقد كان مجيئك
الى هذه الدنيا معجزة . وكانت أمّي رحمها الله تسميك . .
بيضة العقر . قلت :

– يبدو ان جدتي ذهبت من هذه الدنيا ولم تغفر لامي زواجها من ابنها.

قلت ذلك وقد بدا علي شيء من الامتعاض ، لانه لم يرضني هذا
التحامل على أمّي ، على الرغم من انّني كنت مؤمنة بكلام عمتّي ،
أجد فيه صدقاً وحقاً ، لكن ما نبيحه لانفسنا لا نبيحه للآخرين بخاصة
في حق من تربطنا به رابطة وثيقة .

ثمّ قلت لعمتّي :

– لا أعتقد انّ أمّي سيئة الى الحد الذي تتصورينها فيه .

قالت وقد لاحظت امتعاضي فأحبت أن تداريني :

– أنا لا أنكر أنّ لامّك مزايا كثيرة ، فهي سيدة بيت ممتازة ،
مدبرة وحنون على أسرتها ، وذات قلب طيّب ، لكن هل تعتقدين
أن أباك كان سعيداً معها ؟

قلت :

– ولكنه ليس شقياً كما تحسبين .

آه ما أسخفني وأبلد حسّي . . . كيف تخطر ببالي الآن هذه الامور التافهة وهناك أهم منها بكثير ؟ . . . ترى هل يشرد الذهن أثناء الاحزان الكبيرة الى مثل هذه الامور التافهة التي لا علاقة لها بالحاضر ليهرب من الواقع ويعطي الجسم فترة راحة من الحزن الذي ينخر فيه حتّى يكاد يوهنه ؟ . . .

هل واروا المشنوقة ترابها ؟ ؟ لقد ولّى النهار ، وبدأت عتمة كئيبة تهبط على البيت . لم يخطر لي أن أضيء النور ، بل خطر لي أن ألحق بهم الى هناك ، ليس من المعقول أن أبقى هنا وحدي .

وأكاد أهمّ بالذهاب عندما أسمع صوت المفتاح يدور بالغال . ويدخل أبي تتبعه أمّي . كانت عيناها منتفختين حمراوين ، ووجهها متورماً ممّا يدل انها بكت كثيراً . أمّا أبي فكان شاحباً كالموتى زائغ النظرات ، فلمّا رآني حاول أن يقول شيئاً فرجفت شفتاه ودمعت عيناه فراح يبلع ريقه كمن يغص بشيء في حلقه . ووجدتني أندفع اليه أعانقه ونبكي معاً . وتفرّق أمّي بيننا وهي تقول :

– ألا يكفينا اليوم مصيبة واحدة ؟ . . .

ثم تسحبني من يدي وتذهب بي الى المطبخ ، قلت لها :

– لماذا تأخرتما ؟ لقد انشغل بالي كثيراً ، حتّى كدت ألحق بكما . قالت :

– آه ، لم يمر بي طول عمري مثل هذا اليوم الرهيب . . . ولو لم يكن عملك على صلات طيّبة مع كبار موظّفي الدولة ، يعلم الله كم كنّا ارتبكنا . لقد شمل التحقيق الجيران ، وبعض الناس الذين

التمّوا علينا . ولم نوصلها الى قبرها حتّى كدنا نموت تعباً وقهراً.آه كم بكيت عليها ، كنت أشعر أنّ قلبي ينفطر حزناً . سامحها الله على فعلتها هذه .

هززت رأسي دون أن أجيب بكلمة .

قالت :

– أبوك لم يأكل شيئاً منذ البارحة ، وأنت تعلمين كم يقاسي من وجع معدته اذا تأخر ميعاد طعامه . تعالي نحضر العشاء واذا قلت له انّك لن تأكلي شيئاً مالم يأكل هو ، فلا بد أن يأكل من أجلك ، انّه خائف عليك كثيراً من هذه الصدمة .

ما أبرع أمّي . . . لقد استطاعت أن تصيب عصفورين بحجر واحد فتجبرنا أنا وأبي على الطعام كل واحد منّا في سبيل الآخر وان كنّا لا نشعر بأيّة شهية له .

راحت هي تحضر الشاي ، بينما أخذت أنا صينية كبيرة وضعت عليها أدوات الشاي ، وشيئاً من الخبز والجبن والمعقود والمكدوس والزيتون وحملتها الى حيث كان أبي في غرفة الجلوس ، وقلت له كما علمتني أمّي فاذا هو يستجيب لي دون تردد .

ونتحلق حول الصينية نروح نأكل بفتور أول الامر ، نستعين على بلع اللقم بجرعات من الشاي كي لا نغص بها ، ثم أجدنا نندفع من حيث لا نشعر الى المضغ والبلع وكرع الشاي حتّى أتينا على الطعام كلّه ، ثم يقوم كل واحد منا فيغسل يديه وأسنانه ويلبس ثياب نومه ، ويتّجه

الى سريره حاملاً أحزانه متحاشياً الحديث مع الآخرين كي لا نعود الى البكاء والحزن الذي راح يتطامن في أعماقنا ، ولعلّه بدأ منذ تلك اللحظة يتلاشى شيئاً فشيئاً مخلفاً وراءه كلمة أسف ، أو غصة ألم .

وهكذا انطوت حياة شقية معذّبة ، راح يجر عليها النسيان ذيوله ولما يمض على انتحار صاحبتها الاّ ساعات معدودات .

• • •

الفصل الثاني

الكراس الأزرق

الكراس الأزرق

ثلاثة أيّام مضت لم أذهب خلالها الى المدرسة . شعرت انّني لا أستطيع أن أقابل الناس وأتحدث اليهم أو أجيب عن الاسئلة التي لابدّ أن تلقى عليّ من قبل زميلاتي عن أسباب انتحار عمّتي التي أصبحت قصتها حديث البلد . آثرت أن أبقى وحدي في البيت . كان أبواي يخرجان منذ الصباح الباكر ، يذهب أبي الى وظيفته ، وتذهب أمّي الى بيت جدّي ، كانت اتّفقت مع امرأة عمّي على أن تستقبلا المعزيات هناك حيث انتحرت عمّتي .

لا ، لا ، لم أكن وحدي ، كنت مع المشنوقة . . . أعايشها من خلال الكرّاس الازرق الذي خلفته لي ، أتابع حياتها منذ تفتّح صباها حتّى اليوم الذي فارقت فيه الدنيا غير آسفة عليها .

رحت أقرأ الكرّاس برويّة وامعان .

بعض الفصول أحزنتني ، وهزتني حتّى أبكتني ، وبعضها أثار اشمئزازي ، وآخر أثار حنقي حتّى كدت أمزّق الكرّاس .

شعرت بالمهانة كأنني وأنا أقرأ هذا المقطع :

أشعر أحياناً انّني كلبة جموح ، مربوطة من عنقها بسلسلة مشدودة الى وتد مغروس في هذا البيت العتيق . وكلّما حاولت الكلبة الجموح الافلات من قيدها ازدادت السلسلة انطباقاً عليها حتّى انغرزت في

لحمها ، فكانت كلّما تحركّت يسيل دمها ويشتد ألمها . عقلي يرفض هذا النمط من العبوديّة ولكنّني لا أستطيع التحرر منه .

أنا عاجزة . . . عاجزة . . . هكذا ربوني منذ أجيال وأجيال . ان ما تراكم عبر الازمان الطويلة من ديانات وعادات وتقاليد هذه التابويات التي رسخت جذورها في النفوس حتّى أصبحت شبه مقدّسة هل يمكن لواحدة ضعيفة مثلي أن تتخطاها بمفردها ؟ . لا أدري كيف يلجم لساني أمام أبي ؟ كيف أصاب بالخرس أمام أخي راغب مهما كان على خطأ ، وكنت على صواب ؟ ولم لا أستطيع أن أبوح لامي بما يعتلج في صدري من أحاسيس على الرغم من حبها الكبير لي ، وحنانها الفائض علي ؟ ربّما لانني مقتنعة انها لن تفهمني أبداً مهما حاولت تقريب أفكاري من أفكارها .

في مكان آخر أقرأ هذا المقطع :

لقد انهزمت شر هزيمة حين انتصرت على نفسي ! . . .

استطعت أخيراً أن أقضي على الثورة الجامحة التي كانت تغلي في أعماقي دائماً أبداً كما يغلي الماء في المرجل . لقد أطفأتها بالكبت الطويل . . . بترويض النفس على الصبر والرضا بالواقع مهما كان مراً . كأن الظروف التي أحاطت بي جاءت كلها ضدي . انّ للتضحية حدوداً . . . تضحيتي كانت بلا حدود ! . . .

أجدني الآن أدفع الثمن غالياً . هذه هي غلطتي الكبرى ، وما دامت غلطتي فعليّ أن أتحمّلها حتّى النهاية . . .

كنت نويت أن أفرّ مع الرجل الذي أحببت ، كنت موقنة انّه

يفهمني ، وينسجم معي ، ويستطيع وحده أن ينقذني من هذا البيت السجن ، ومن سجانيه القساة .

— المصيبة انهم لايدركون أبداً انهم سجانون ، وانهم قساة — لأعيش حياتي كما تحلو لي لا كما يرسمها لي الآخرون .

لكن نظرات أمّي المريضة ، النظرات الحبيبة التي اسرتني بانكسارها وتوسلها الصامت ، كبلت تمردي بخيوط بقدر ما كانت واهية كانت قويّة ومحكمة لا أستطيع التملّص منها .

استطاعت أخيراً أن تقضي على تمرّدي الجامح ، ليظل سجيناً في أعماقي حتّى يقبر معي ! . . .

لقد استطاعت ذلك حين عزمت أنا مخلصة أن أتناسى نفسي وأظلّ الى جانبها حتّى النهاية . أمي التي أمرضها الحزن على أخي الحبيب سامي الذي استشهد في الثورة ، كنت شريكتها في هذا الحزن فكيف أتخلّى عنها في أيّامها الاخيرة ؟

كنت موقنة اذا فررت من البيت فلا رجعة لي اليه البتة ، وربّما قضيت على أمّي وعشت بعدها يأكلني الندم ، ويؤرقني تعذيب الضمير . كانت أمّي حين داهمها مرض الخنّاق الصدري في أوج صبـــاها ، فطال مرضها كثيراً . ما كدت أوصلها الى قبرها حتّى أصيب أبي بالفالج . أنا أحيا الآن لأخدمه فقط مهما طال مرضه — هكذا كتب عليّ — فاذا مات أبي لم يبق أي مسوغ لوجودي في هذه الدنيـــا بعد أن خسرت كل شيء ! . . . هرمت قبل الاوان. زهدت في مباهج الدنيا جميعها .

ماتت فيّ الرغبات كلّها. انّني أشعر الآن بالندم لكن بعد فوات الاوان!

طويت الكرّاس ورحت أفكّر :

عاشت المسكينة لتخدم أبويها فقط ! . . .

أعود الى القراءة يحزنني هذا المقطع الذي دون في أواخر الكرّاس :

هلّ الربيع..بدأت البراعم تنطلق من أغصانها وتشرئب الى أعلى .

شجرة الليمون الهرمة معتزة بصبيانها الخضر . انّها ما تزال قادرة على العطاء على الرغم من هرمها،فلم لا تزهو وتبتهج ؟ فراشتان تهومان في الجو . ترقصان . احداهما ترفرف حول الاخرى ، فاذا فازت منها بلمسة انثنت منتشية هاربة ، تعود الاخرى الى ملاحقتها والدوران حولها ، وتستمران في الرقص .

الشحرور يردد مواله . . يبدع فيه نغمات جديدة .

الشحرورة تنصت اليه . أراها تمد رأسها من عشها في أعلى شجرة النارنج ، تراقبه متباهية بما يقال لها .

ريشة زرقاء نبتت في جناح الحسون فراح يفرد جناحيه أمام أنثاه ليغريهـا بالريشـة الزرقاء وهو يزقزق وينط منتشـياً من غصن الى غصن .

القط ظريف يفتن في موائه .

حديثه اليوم ملون ، فيه غزل وعتاب ، استعطاف وتهديد،والقطة ظريفة تعرض مفاتنها باغراء ودلال ، تتمطمط أمامه وهي تتصنّع اللامبالاة به لتثيره أكثر فأكثر .

الكائنات كلها من حولي تمور بها الحياة ، تمارس حقها بفرح

وعفوية ، الآن انا ! . . . انسانة محرومة ممّا لم تحرم منه الحشرات الصغيرة ، والديدان الحقيرة ! . . .

أنوثتي تئن في قفصها كحيوان جريح .

أشعر انّني أجف لحظة فلحظة وأنا حبيسة هذه الجدران العالية في هذا البيت العتيق مع هذا العجوز المريض .

يبدو انّ عمّتي دونت هذه المذكرات في السنوات الاخيرة من حياتها لذا كانت الصفحات الاولى خالية من التواريخ. لقد عادت الى الذاكرة وركزت على الامور التي كان لها تأثير كبير في مجرى حياتها فدونتها بتفاصيل دقيقة . تأكّدت من ذلك وأنا أقرأ الصفحات الاولى التي كتبتها عن طفولتها ، كان فيها تحليل عادل للاحداث يثبت لي انّها كتبت هذه الصفحات بعد حدوثها بسنوات فتخلصت من الانفعال الآني وجاء حكمها منطقياً يدل على ذكاء ورويّة .

جاء في الصفحة الاولى :

كنت في العاشرة من عمري أبدو أكبر ممن كن يماثلنني في العمر. أرتدي حين أذهب الى المدرسة صداراً أسود ذا ياقة بيضاء ، وأضع على رأسي غطاءاً أبيض شفافاً أعقده حول عنقي .

نشد ما كان يضايقني هذا الغطاء ، كان يحجز ضفيرتي الطويلتين اللتين كنت أتباهى بهما ، ويمنعهما من أن تنوسا على ظهري .

كانت أمّي فرضت عليّ هذا الغطاء منذ كنت في السابعة من عمري ، وراحت تؤكد عليّ أن أنتبه كي لا ينزاح عن رأسي أبداً لانني أصبحت صبيّة لا يجوز أن يرى الرجال رأسي عارياً ، والا يعاقبني الله بنار

جهنّم يوم القيامة . كان يروق لي كثيراً أن أرافق أخي سامي وصديقه عادل حين يذهبان الى المدرسة . فكانا يوصلانني أولا الى مدرستي ثم يتابعان سيرهما .

كنت أسير بينهما لا أنبس بكلمة ، انّما أصغي بكثير من الانتباه الى حديثهما الذي كان يدور غالباً حول ما يقرآن من الكتب التي كانا يستأجرانها من المكاتب ثم يتبادلانها .

كان عادل يشملني بين حين وآخر بنظرات خاطفة .

وأحياناً كان يوجّه اليّ بعض الحديث . فأشعر أنّ آفاقاً واسعة كانت تنفتح أمامي لا أدرك مداها . لكم كنت أتمنّى أن يطول الطريق لاستمتع بحديث عادل الشهي .

في تلك الفترة بدأت أقرأ في كتب أخي سامي الذي كان يأتي بها من عند عادل .

وكم كنت أفرح عندما أجدني أفهم بعض ما كنت أقرأ .

كنت أصغر اخوتي الثلاثة ، وكان أبي يشهد لي أمامهم انّني أكثرهم اجتهاداً وألمعهم ذكاءً .

وان أنسى لا أنس أبداً يوم انتهت السنة الدراسية ونجحت الى الصف الرابع ، عدت يومئذ الى البيت أحمل ورقة علاماتي التي تشير الى أنّني نجحت بدرجة جيد جدا ، هذا مع بطاقة تقدير تشيد بذكائي واجتهادي. كانت الاسرة كلها مجتمعة في الليوان ميعاد الغداء ، هرعت الى أبي وقدمت اليه ورقة العلامات وبطاقة التقدير معتزة بتفوقي ، فراح يقرأهما بصوت عال . ثمّ قبلني وقال لي :

ـ لك عندي هديّة ثمينة جداً .

قالت أمّي :

ـ سوار ذهبي كما في العام الماضي ، أليس كذلك يا أبا راغب ؟

هزّ أبي رأسه وهو يقول :

ـ ان شاء الله ، ان شاء الله ، انّها والله تستحقّ ذلك .

ثم يلتفت أبي نحو أخي الكبير راغب الذي رسب في صفّه تلك السنة ، ويقول له :

ـ يا حمار . . . هذه البنت التي تصغرك بست سنوات تساوي في نظري عشرة صبيان مثلك ، ألم تخجل أمامها بطولك وعرضك ؟ هي تنجح وأنت ترسب في صفّك ؟ كنت تمضي أوقاتك كلّها باللعب ، وأكل الهوى حين كانت هي تدرس وتدرس ، وماذا ينفعها العلم ؟ غدا ستتزوج وتنقطع الى بيتها وأولادها . أمّا أنت فماذا يساوي الرجل في عصرنا هذا بلا علم وشهادات ؟

ويحمر وجه أخي راغب وينكس رأسه دون أن ينبس بكلمة واحدة .

ويردف أبي قائلا :

ـ لو كان حظي كبيراً لكنت خلقت أنت البنت وهي الصبي .

وأجدني أكركر ضاحكة بصوت عال على الرغم مني عندما أتصور أخي راغب بنتاً وكان قد خشن صوته وبدأ شارباه بالظهور .

فلما خرج ابي من البيت وتبعه أخواي محمود وسامي اغتنمها راغب فرصة ليصب علي حنقه كلّه فانهال علي ضرباًولكماوهو يقول لي :

ـ أتضحكين علي يا ملعونة ؟ سأحرمك من الضحك بعداليوم .

ورحت أصرخ وأبكي وأستغيث بأمّي فهرعت اليّ ولم تستطع أن تخلّصي منه الاّ بعد أن سال الدم من أنفي ، وكاد يغمى علي فراحت أمّي تهدده ، وتدعو عليه ، وتحلف أن تشكوه لابيه فكان يجيبها بوقاحة وتحد :

— افعلي ما بدا لك ان كنت مستغنية عن بنتك ، سأظلّ أضربها حتّى تحرّم الضحك أمامي .

لم يدرك أبي أبدا ، ربّما لجهله بأصول التّربية انّه كان بتصرفه هذا يزرع بذور الكره في قلبي ولديه .

لا أدري لماذا لم يخطر له ولو مرّة واحدة حين كان يوبّخ راغب على اهماله في دراسته — وما أكثر ما كان يوبخه أمامنا — أن يقارنه بأحد أخويه محمود أو سامي اللذين كانا ينجحان أيضا كل سنة ؟

ما كان يحلو له الاّ أن يقارنه بي وحدي . امعانا في اهانته ، لانني بنت ، وأصغر الاخوة أيضا .

وراح هذه الكره يكبر معنا حتّى رسخ في قلبينا . لا شك عندي الآن انّه كان لهذا الكره تأثير كبير على مجرى حياتي كلّها وربّما على حياة أخي راغب أيضا .

* * *

لم أدرك انّني وقعت في الحب الاّ حين جاءت العطلة المدرسية وحجزت في البيت لا أبرحه الاّ صحبة أمّي . شعرت عندئذ بشوق ملح الى رؤية عادل الفتى الاسمر ذي العينين الجذابتين والصوت الحنون. كان أبوه خبازاً يزود حيّنا كلّه بالخبز وكان عادل يوزع الخبز صباح كل يوم على بيوت الحارة كلها قبل أن يذهب الى المدرسة ، وكان آخر بيت يحمل اليه الخبز هو بيتنا ومن ثمّ يرافقنا الى المدرسة . فلمّا

جاءت العطلة الصيفية أصبحت أنتظر مجيئه كل صباح لأفتح له الباب وأتناول منه الخبز. كنّا نتفرس ببعضنا لحظات فتقول أعيننا ما لا نجرؤ على البوح به ، أو ما لا نعرف بعد كيف نبوح به .

ذات مرة سألني عادل وهو يناولني الخبز ، ويبدو انّه صعب عليه أن أحبس في البيت بينما يظل هو حراً طليقاً يلعب في الحارة مع أخي سامي وزملائهما :

– كيف تمضين أوقاتك طول النهار ؟

قلت بصوت خفيض وقد طفر الدم الى وجهي :

– أساعد أمي في شغل البيت ، ثم اقرأ في كتب سامي عندما يخرج ليلعب معك .

قال :

– اتحبين قراءة الروايات ؟

هززت برأسي بالايجاب . قال :

– سأعطي اليوم اخاك سامي رواية جميلة فرغت من قراءتها هذا الصباح ، اسمها (الفضيلة) ترجمها عن الفرنسية كاتب مصري شهير اسمه المنفلوطي ، ألم تسمعي باسمه ؟

اشرت برأسي بالنفي . قال :

– ستحبينها كثيراً .

صرخت أمي من المطبخ :

– مع من تتكلمين يا صبرية ؟

أغلقت الباب في وجهه بسرعة وهرعت الى المطبخ حاملة الخبز.

قلت لامي :

— انه عادل جاء بالخبز ، وسألني عن سامي لانه يريد منه كتبا .
قالت أمي :

— ضعي الخبز في المعجن ، وتعالي نهيء طعام الافطار فقد أوشك أبوك وأخوتك أن يفيقوا من نومهم .

كانت أمي توقظني كل يوم قبل شروق الشمس لأعينها على تنظيف البيت وتحضير طعام الافطار . في بلادنا يدربون البنت على خدمة الرجل منذ ان يتفتح وعيها ، أباً كان أو أخا ، زوجا أو ابنا ، حتى اذا كبرت شعرت ان خدمته امر بديهي . كنت احسد أخوتي على استمتاعهم بالنوم أكثر مني لا سيما أثناء العطلة .

قرأت رواية الفضيلة في يومين ، وفهمتها كلها ، بكيت كثيراً على بطلي الرواية العاشقين الصغيرين اللذين ذاقا مرارة الخيبة في الحب وتجرعا غصصها حتى الثمالة .

سألني عادل وهو يناولني الخبز :

— هل قرأت الرواية ؟

أجبته بهزة من رأسي ودمعتين طفرتا من عيني وانحدرتا على وجنتي .
ابتسم عادل وقال لي :

— لا ، لا ، لا أحب أن أراك باكية أبدا ، لن أختار لك بعد اليوم روايات محزنة . يبدو انك رقيقة الشعور جداً ، لقد أعطيت البارحة أخاك سامي رواية (ماجدولين) ترجمها أيضا المنفلوطي . اياك وأن تقرئيها ، ستبكيك كثيرا ، لانها محزنة جدا . أنا نفسي بكيت عندما قرأتها . وأنا أزعل جدا اذا بكيت أو تألمت .

تناولت منه الخبز وأنا أرمقه بنظرة ولهى ، فنظر الي بحنان ولهفة. أغلقت الباب على مهل وأنا أتملى من وجهه الحلو .

وضعت الخبز في المعجن وجلست تحت الياسمينة ورحت أفكّر :

— لماذا يزعــل عــادل اذا بكيت ؟ أيحبني ؟ ؟ . . . آه ما أجمل هذه الكلمة . . . .

رقص قلبي طربا .

شعرت يومئذ أنّ الدار ، والاشجار والنافورة كلّها ترقص معي. رحت أقطف زهرات الياسمين وأنا أغني ، جلست قرب البحرة ورحت أضم الزهرات في خيط طويل لأجعل منها عقدا .

وضعت العقد حول عنقي . وقفت أمام المرآة أعاين جمالي ، لكم تمنيت لو كنت أحلى الحلوات .

اجتمع أبي واخوتي لتناول طعام الافطار . لم انضمّ اليهم .

نادتني أمّي . قلت لها :

— كنت جائعة فأكلت قبلكم .

صعدت الى غرفة أخي سامي ، رحت أبحث عن الرواية ، وجدتها فوق وسادته ، بدأت أقرأ فيها . لقد جذبتني من أول صفحة .

خرج أبي واخوتي من البيت ، وأرادت أمّي أن تصطحبني معها لنزور بيت خالي . أبيت ، وأدعيت انّ لدي بعض الوظائف التي طلب منا انجازها أثناء العطلة وقد اقتربت نهايتها .

تركتني أخيراً وشأني بعد أن يئست منّي .

هذه أول مرة أترك فيها وحدي في البيت . لكم وجدتني سعيدة وأنا أشعر انّني حرة بتصرفاتي ، لا رقيب علي ، أفعل ما يحلو لي .

انكببت على قراءة الرواية كأنّني التهمها بنهم عجيب. أعجبتني الرسائل التّي كانت تكتبها بطلة الرواية ماجدولين الى حبيبها استفان وصديقتها سوزان تصف لها ذلك الحبيب ، لكم تمنيت أن تكون لي صديقة أتبادل معها الرسائل لأكتب لها عن عادل ، وعن شعوري نحوه . لقد بهرني أسلوب هذه الرسائل فنقلت مقاطع منها الى دفتر صغير أخفيته بين كتبي .

آلمتني الرواية كثيرا حتّى أبكتني كما توقّع لي عادل . لكم نقمت على بطلة الروايـــة عندما خانت حبيبها وتزوجت من صديقـــه ثم عطفت عليها كثيرا وغفرت لها عندما ندمت أشد الندم على ما فعلته وأدى بها ندمها الى الانتحار .

• • •

اوشكت العطلة الصيفية على الانتهاء ، وستعود مسيرتنا الى المدرسة صباح كل يوم نحن الاصدقاء الثلاثة عادل وسامي وانا الى سابق عهدها .

لكم كنت متلهفة على هذه المسيرة ، سأصغي الى حديث سامي وعادل وافهمه جيدا . وسأشترك انا ايضا في الحديث.ألم أصبح قارئة جادة مثلهما تماماً ؟

لم اكن انتظر ماتخبئه لي الظروف من خيبات !

قال راغب لأبي وقد رآني اعود مع امي من عند الخياطة :

– انظر ياأبي ، هل تجد في حارتنا كلها بنتا واحدة في طول اختي صبرية تخرج سافرة الوجه ؟

وينتبه ابي الى امر ماكان يجوز له ان يفوته أبداً ، فيريد ان يتلافى خطأه امامنا فيقول لأمي بلهجة قاسية :

– هذا تقصير منك ! ... أماكان الاولى بك ان تشتري للبنت ملاءة تتستر بها كمااوصيتك خير امن ذلك المعطف الذي ذهبت من اجله الى الخياطة ؟

قال سامي :

– لكن صبرية ياابي ماتزال صغيرة ولم تتجاوز العاشرة من عمرها. ماذنبها اذا خلقت طويلة ؟

قال ابي بانفعال :

– اخرس انت . . . ان من يرها يحسبها في الثانية او الثالثة عشرة من عمرها . كن ياولد مثل اخيك الكبير صاحب نخوة وشرف وغيرة على اختك .

ويصمت سـامي على مضض وقدبداعلى وجهه شيء من الامتعاض . وتقول امي :

– سأشتري لها (برالين) تلبسه فوق المعطف ومنديلا اسود تسبله على وجهها . هكذا يتحجب الان الصغيرات مثيلاتها ، لم تعد الملاءة دارجة لمن هن في مثل عمرها .

قال ابي :

– دارجةام غير دارجة ، المهم الا تخرج صبرية بعد الان سافرة الوجه .

قالت امي باستسلام وخضوع كعادتها دائما :

– امرك ياسيدنا . . .

ويبتسم راغب ابتسامة فوز واعتزاز بينما اظل انا مشدوهة استمع

الى مايدور بشأني بين افراد الاسرة دون ان اجرؤ على النطق بكلمة واحدة .

منذ تلك اللحظة ادركت انني اضعف بكثير من القوى التي تحيط بي وان قيودا ثقيلة بدأت تحكم انطباقها علي .

بعد اسبوع وجدتني اسير وحيدة الى المدرسة ، وقد انسدل على وجهي حجاب اسود كثيف . لااری طريقي من خلاله الا بصعوبة بالغة لان عيني لم تألفاه بعد ، اكاد اتعثر في خطاي .

اما الخيبة الكبرى فهي انني حرمت من المسيرة التي ظللت اتلهف عليها ثلاثة أشهر كاملة ، لانه لم يكن مألوفا ابدا ان تسير فتاة محجبة مع صبيان ولو كانوا من اقربائها . شعرت انني مظلومة ومغاوبة على امري . هذا الشعور بالقهر جعلني انطوي على نفسي وانا في سني المبكرة تلك ، واعزف عن اللعب الذي كنت امارسه مع زميلاتي .

ويصبح لاشيء يرفه عني سوى الانقطاع الى المطالعة في الكتب التي يأتي بها سامي ، ثم الانكباب على الدرس . كنت اجد في تفوقي على زميلاتي متنفسا للكبت الذي بدأت اعانيه منذ ضرب علي الحجاب ، وحرمت من رؤية عادل ، والاستمتاع بحديثه الحلو الشهي . اصبحت انتظر تلك اللحظة الخاطفة عندما اتناول منه الخبز صباح كل يوم . لقد لاحظت انه صار يحمل الينا الخبز مبكرا جدا خلاف عادته ، ثم يعود في ميعاد المدرسة ليرافق سامي اليها . كأنه ادرك انني استطيع ان امكث معه اكثر عندما يكون ابي واخوتي نياماً وامي مشغولة باعمال البيت . كنت انهض من فراشي باكرا ، ارتدي ثيابي ، ثم آخذ كتابا واتظاهر انني اراجع دروسي وانا احوم حول الدهليز واذناي تتلقفان

كل حركة،فاذا سمعت دقته الخفيفة على الباب هرعت اليه وفتحته بتؤدة . كنا نظل لحظات نتحدث الى بعضنا بعضاً عماقرأناهمن قصص وروايات ونعلق عليها.لقد اصبح عادل شغلي الشاغل ، يزداد ولعي به يوما فيوما.احلم به في يقظتي ومنامي ، اوثر الوحدة لاناجي طيفه ، او اتذكر كلمة من كلماته ، او حركة من حركاته .

اليوم حمل الي اول زهرة من زهرات الربيع ، البارحة حمل الي قصة(قيس وليلى) وقد وضع اشارات تحت بعض الاشعار التي تصور لوعة الوجد ، وتباريح الغرام ، حفظت هذه الاشعار ، وكنت اردد ها دائما في سري .

لذا كنت ابدو ساهمة شاردة دائما ابدا .

تجرأت مرة ووضعت خطوطا تحت اشعار قالتها ليلى لقيس ورددته اليه الكتاب دون ان يطّلع عليه سامي .

* * *

كانت تمر الايام والشهور والسنين على نمط واحد فلا نحس بها .

لم يتغير شيءٌ سوى نوع الكتب التي كان يتبادلها الصديقان عادل وسامي ، اصبحت كتباً اكثر جدية ، تبحث في الادب والفكر والسياسة . ومجلات تصدر في مصر فيها شعر ونقد وقصص قصيرة . كنت اقرأها كلها فأفهم بعضها ويفوتني بعضها الآخر .

لقد طالت قاماتنا ونبت شاربان اسودان لاخي راغب كان يتباهى بفتلهما وتمسيدهما امامنا . كما راح يحاول ان يفرض سيطرته علينا كلنا اثناء غياب ابي عن البيت ، وبصورة خاصة علي أنا . . . كان يحب

ان يأمر علي ، ويذلني ، او يصرفني عن الدراسة ، او يشعرني انني اقل شأنا. كلما رآني اكتب او اقرأ يطالبني بعمل ما . قومي اسقيني ، اغلي لي فنجان قهوة . اكوي لي هذا القميص ، اقطبي لي هذا الزر .

كنت اتحمله بصبر ومرارة ، وكم كنت اخشى ان تخترق نظراته الثاقبة رأسي الصغير فيكتشف فيه مايدور حول حبيبي عادل .

لذا كنت أفر منه وأتحاشى النظر اليه مااستطعت .

* * *

بدأ يتعكر صفو اسرتنا منذ انانقطع راغب عن الدراسة بعد فشله المتواصل بها وقبع في البيت يناقر ويناكف من شاء من سكانه، ثم راح يطالب اباه انيمده بالمال ليشارك احد اصدقائه من ابناءالتجار في تجارته. فرفض ابي طلبه وبدأت المشاحنات بينهما كل يوم . وراحت امي تداور زوجها بكل مالديها من اساليب لتحقق رغبة ابنها البكر .

سمعت مرة ابي وامي يتحدثان ، لم يفطنا انني كنت في النصية اسمع حوارهما وهما جالسان في ارض الديار تحت الياسمينة . تركت الوظيفة التي كنت اكتبها ورحت اسجل في دفتري هذا الحوار الطريف الذي دار بينهما :

– حلي عني يامرة . . . اصبحت والله لاتطاقين، بالليل ، بالنهار لاحديث لك الا حديث ابنك راغب . . مئة مرة قلت لك لاتذكريه امامي .

– ماذا تريد إذاً ؟ هل نترك هذا الولد الذي اصبح شابا يسد الباب عطّالا بطّالا يدور في الازقة طول النهار ؟ . . .

– ولماذا لاتقولين حتى نصف الليل ايضا ؟ . . . اتحسبين انني

لاعرف متى يعود ابنك من سهرته كل يوم ؟ انا اتغاضى عنه خشية ان يتواقح علي وقد اصبح قد البغل . متى كان النصح ينفع معه ؟ لقد نفضت يدي منه بعد ان قمت بواجبي نحوه ، الان ذنبه على جنبه ، ولد في مثل عمره يعود كل يوم بعـــد منتصف الليل الى البيت ؟ انت تسكتين وتسترين عليه وتحسبين انني لاادري ..شيء لم ننشأ عليه لانحن ولاآباؤنا واجدادنا من قبلنا . اتذكرين ابي رحمه الله ؟ كنا نخرج معه انا واخوتي كل ليلة الى الجامع لاداء صلاة العشاء ثم يعود بنا الى البيت — وكنا كلنا متزوجين وآباء ايضا — كان يدخلنا امامه ثم يقفل الباب بالمفتاح ويضعه في زناره فلا يفتحه حتى صلاة الفجر .

— واذكر ايضا كم كنتم تتضايقون وتتأففون من سيطرته هذه ولكنكم لم تجرؤوا ابدا على معارضته .

— نعارض ابانا ؟ معاذ الله ، كنا ابناءاً بارين لامثل ابنك المغضوب هذا .

— سبحان الله ! . . . لماذا عندما يفشل احد ابنائنا يصبح ابني وحدي ، وعندما ينجح يصبح ابنك ؟

— لانك انت افسدته بالدلال . لو تركته لي اربيه كما اشاء لما وصل الى ماوصل اليه الآن.

— يوه . . . ماذنبي انا اذا لم يفتح الله عليه بالعلم ، مثله كثيرون. هكذا خلق . ولقد اصبح الحمد لله يقرأ ويكتب ويعرف الحساب. ألم تره كل يوم يقرأ الجريدة من اولها الى آخرها ؟ . .. هذا يكفيه ، هل كنت

انت ماشاء الله من اصحاب الشهادات ؟ وقد مشي حالك ، وفتح الله عليك .

— لكن زماني غير زمانه . . .

— هذا كلام لانفع منه الان وقد حصل الذي حصل ، يجب ان نجد حلا . هو ابننا ونحن مسؤولون عنه . مادمت لاتريد ان تدفع له شيئا لماذا لاتأخذه معك الى الدكان ليتمرن على البيع والشراء ، ويمارس التجارة كما كنت انت مع ابيك ؟

— حسبي الله ونعم الوكيل ، انت غبية يامرة ! . . . الا تعرفين ابنك ؟ . . كذاب مراوغ .سيخرب المحل في اسبوعين ويرميني بالمرض . انا لااطيق التعامل معه ، لقد جربت مرة في العطلة الصيفية ، وانت تذكرين ذلك ، فماذا كان منه ؟ كان يغتنم فرصة غيابي عن المحل فيبيع بعض الاقمشة خلسة عني ويضع ثمنها في جيبه وبعد ذلك تقولين لي خذه معك الى المحل . .

— هذه غلطة لن تتكرر ، فعلها الولد عن (ولدنة) وجهل طمعا فيك ولن يفعلها مع غيرك ابدا .

— اضربي على غير هذا الوتر ، انا حلفت ان لايدخل المحل ابدا بعد فعلته الدنيئة تلك .

— اذن لابد ان تعطيه شيئا من المال ليجرب حظه ، دعه ياسيدي يعتمد على نفسه ، ماأدراك ، قد يفتح الله عليه .

— انّا لله وانا اليه راجعون ، منذ قال لي انه يريد ان يشارك صديقا له ويفتحا دكاناً في سوق الحميدية لبيع العطور والبودرة والحمرة

للنسوان . ادركت غايتهما ، سيجعلان من الدكان مصيدة لصيد البنات انا ابن السوق – ويدق ابي على صدره – اعرف ماذا يجري في هذه الدكاكين . لو كان ابنك جادا لفكر مثلا في تجارة مال القبان او الصابون او الاخشاب وهذه كلها تدر ارباحا اكثر من البودرة والحمرة التي يجر الحديث عنها الى الحركشة بالنسوان ، أؤكد لك انهما سيفلسان في أشهر قليلة ، وهل انا صاحب بنك لأمده بالمال كلما افلس ؟

– ابو راغب ، احكي ام اظل ساكتة ؟

– احكي مابدالك .

– الم تصطدني انت من الدكان عندما جئت انا وامي لنشتري قماشا لي ؟ كنت في الرابعة عشرة من عمري وعلى الرغم من صغري لم يفتني كيف كنت تتلصص علي كلما ازحت حجابي قليلا لأتفرج على الاقمشة التي كنت تعرضها امامي . فلماذا تحرم على غيرك ما كنت تبيحه لنفسك ؟ ؟

– ام راغب سيرة وانفتحت ، أ أحكي ماكتمته في نفسي سنين طويلة ام اظل ساكتا ؟

– احك ياسيدي . منتك على نفسك .

– امك رحمها الله كانت داهية ، هي التي خطبتني لك قبل ان اخطبك انا ، كانت امك زبونة قديمة لمحلنا ، اي منذ فتح ابي المحل وقد عرفتني وخبرتني تماما ، ثم زارت اهلي وعرفت عنا كل شيء ، فلما حزنا اعجابها جاءت بك الى المحل ووضعتك لقمة سائغة أمامي فكيف لا ألتهمك

وانت بهذا الجمال والكمال ؟ بذمتك ألم توصيك امّك بان تتعمدي رفع حجابك قليلا امامي كي ارى وجهك الحلو هذا ؟

لم تجب أمي عن السؤال بل راحت تكركر ضحكتها وتقول :

— كأنك غير راض عن قسمتك ونصيبك . . . وتعتقد ان أمّي قد غشتك .

— لا والله ، لااقصد ذلك ، اني راض كل الرضى ، ولذا تجديني اترحم على امك كلما جاء ذكرها .

وتقول امي بصوت فيه غنج لم اعهده بها :

— يانار قلبي ! . . . ومايدريني مايجري في محلك كل يوم ، وانت تتعامل مع النسوان ايضا ؟ . . . لقد نبهني كلامك الى ماكنت غافلة عنه. والله لارسل لك بعض صديقاتي ليتجسسن عليك ، ويغرينك ، لأرى ماذا سيكون منك ؟

— اياك ياام راغب وان تفعليها . انا رجل عاطفي لا اصمد امام الجمال ، لاسيما اذا رافقه غنج ودلال ، فلا تجني على نفسك ، قد تخونك اعز صديقاتك ، وكم حصل في هذه الدنيا ، الشيطان مامات يامرة ، قد تخون الاخت اختها .

— ابو راغب ! . . . ماذا تقول ؟ انت الصائم المصلي ، حاج الحرمين الشريفين لاتصمد امام تجربة صغيرة ؟ لاعتب على الشباب اذن . لقد خيبت ظنّي فيك ، آه من الرجال ، على رأي المثل : المؤمنة بالرجال كالحاملة الماء بالغربال .

ويقول ابي بصوت خفيض فيه حنان كثير :

ـ صدقت كلامي ياام راغب ، كنت امزح معك ، انا والله لاابدلك بالحور العين .

وأراه من بين اغصان الياسمين يسحبها اليه ويقبلها بنهم في فمها وعنقها وهي تتملّص منه ، وهو يزداد بها تعلقاً واسمعها تقول له :

ـ انت لاتحبني .لو كنت تحبني حقا لفعلت ماأطلب منك ، انت لاتقيم لرأيي وزنا. واشعر برعشة تسري في . وبالدم يغلي في عروقي هذههي المرةالاولى التي ارى فيها امّي وأبي يتغازلان ، ويقع القلم من من يدي ويحدث صوتاً ، واخشى ان يفطنا الى وجودي فانسحب من النصبة على رؤوس اصابعي واصعد الى غرفتي وأتوارى في فراشي.

لقد نجحت امي . . . استطاعت بقليل من الغنج والدلال اللذين لايصمد أبي امامهما ان تصل الى مأربها . لقد دفع ابي المال الى اخي راغب على مضض منه . وبعد ايام قلائل فتح راغب مع شريكه دكانا في سوق الحميدية . لم يمض امد قليل على فتح الدكان حتى بدأنا نشعر بتغيير في اخلاق اخي راغب وتصرفاته معنا . لم يعد كما كان ،بل اصبح مرحا يستيقظ كل يوم باكرا ، فيمازح هذا ، ويضاحك ذاك من اهل البيت ، ثم يذهب الى عمله ، ولايعود منه حتى المساء ، في ميعاد عودة ابيه . صار راغب يحمل الينا احيانا شيئا من الفاكهة في اول مواسمها او بعض اصناف الكاتو فتفرح امّي وتقدم ماجاء به راغب الى أبي معتزة بابنها قائلة :

ـ هذا جاءنا به اليوم راغب .

فيتنحنح ابي ويقول بلهجة ساخرة :

– لاحرمك الله من هذا الجلب .

ثم يهز رأسه كمن لايطمئن الىماسيأتي به المستقبل .

لااستطيع ان انكر ان اخي راغب كان كريما جدا فيما اذا وجد المال بين يديه . البارحة اهداني زجاجة عطر ثمينة وقال لي :

– هذه اول هدية لك من الدكان .

فرحت بالعطر كثيرا. كانت اولزجاجةعطراقتنيتها في حياتي . شعرت يومئذ بشيءمن التعاطف مع اخي راغب بعد مشاجرات الطفولة، وحب فرض السيطرة علي ابان مراهقته ، ربّما لانّني كنت اضعف اهل البيت فكان يشبع رغبته هذه بممارستها عليّ . بعد اسبوع اهدى امّه ايضا شالا جميلا ، فكانت امّي تعرضه على كل من دخل بيتنا بكثير من الاعتزاز والفخر بأول هدية نالتها من ابنها البكر .

اذكر ايضا ان اخي راغب اهداني ذات مرة علبة فيها بودرة وحمرة وقال لي مازحاً .

– اصبحت صبية ، رشي على وجهك الكالح عندما تقابلين الضيوف شيئاً من هذه المساحيق كما تفعل الصبايا امثالك كي تعجبي الخاطبات والا كيف نصرفك من هذا البيت ؟

ضحكنا من قوله. لكن سامي تنبه لهذا الكلام فلما خرج راغب من المخدع قال لأمي على مسمع مني :

– ارجوك ياأمي ان تفهمي كلامي وتقتنعي به : اياك وان تقبلي بزواج صبرية ولو جاءها ملك الزمان قبل ان تنال شهادتها .

قالت امي :

ـ ومانفع الشهادة اذا كان ابوك لايسمح للبنت بالعمل خارج البيت ؟ وابن الحلال باابني لانجده متى نريد .

قال سامي :

ـ الشهادة ياامي ضمان للمستقبل ، تعمل المرأة حين تحتاج الى العمل ، قد يفلس زوجها ، او يعجز عن العمل، او يموت ويترك لها اطفالا ، فلماذا تحرمونها من هذا الضمان ؟ كلمة واحدة منك تحل المشكل . قولي للخاطبات : ليس عندنا بنات للزواج وينتهي الامر ، ثم التفت إلي وقال :

ـ اياك وان تخرجي امام الخاطبات . واذا اجبرت على ذلك فاعرفي كيف تنفرينهن منك ، والا زوجوك بمن يريدون بالرغم عنك ودون ان يسألوك رأيك .

هززت رأسي وقلت :

ـ وهل تجدني غبية احتاج الى وصيتك ؟

قالت امي وهي خارجة :

ـ بلا كلام فارغ ، النصيب بيد الله .

قلت لسامي :

ـ لقد خيبت ظني . . . . الدراسة في عرفك اذن من اجل الشهادة وضمان المستقبل فقط . اما الثقافة ، وشخصية المرأه المثقفة ،

والاطلاع والمعرفة ، والاشياء التي تتفلسف بها فلا اهمية فعلية لها عندك ! . . .

قال :

– يامجنونة . . . الي‌تقولين هذا الكلام ؟ قلت ذلك لان هذا هو المنطق الوحيد الذي تستطيع أمنا ان تفهمه وتقتنع به .

لاشك ان ابي كان على حق عندما لم يشأ ان يفتح محلا لأخي راغب فلم يمض شهران حتى اخذ راغب يكثر من السهر خارج البيت ، وفي اكثر الاحيان كان يعود آخر الليل مخمورا . وكنت الاحظ ان امي كانت تظل ساهرة قلقة حتى يعود ، فتروح تلومه اشد اللوم ، وتوبخه ، واحيانا كانت تبكي وتندب حظها امامه ، فكان يتلقى كلامها بسخرية ، ولامبالاة ثم يروح يطمئنها ، وكانت هي تخفي عن ابي هذا كله كي لايندد بها ، فهي التي اغرته بدفع المال الى راغب .

ثم اخذ راغب يكثر من السفر الى بيروت مدعيا في كل مرة انه ذاهب الى هناك ليأتي ببضاعة جديدة الى المحل .

اما ابي فما كان يخفى عليه شيء من هذا ، فكم من مرة سمعته يقول لأمي :

– ماشاء الله بضاعة ابنك رائجة تماما . كل شهر يحتاج ان يذهب الى بيروت ليأتي ببضاعة جديدة ، شيءٌ عظيم ، والله ان ربح المحل خلال شهر لايكفيه تكاليف السفر والاقامة اسبوعا كاملا في فنادق لبنان الغالية . . . هكذا يعمل التجار الجادون ؟

لقد كان حدس ابي – التاجر المحنك – في محله . فلم تمض ستة أشهر على فتح المحل حتى افلس راغب وشريكه ، وعادت المشاحنات في بيتنا الى اكثر مما كانت عليه في الماضي ، وكانت امي الضحية المسكينة ، فكم تحملت من لوم ابي وتقريعه لها ، كان كالسوسة ينخر بها باستمرار لانها هي التي اغرته بدفع المال الى راغب الذي بدده على اهون سبيل .

ولكن يبدو ان ابي كان راضيا الرضا كله عن بقيه ابنائه ، لقد سمعته مرة يشكو همه الى خالتي ام رشيد التي كان يحترمها كثيرا ويقول عنها انها اخت الرجال :

– ان هم راغب ياام رشيد سيقتلني حتما ، والسبب في ذلك هو اختك ، هي التي سببت لي هذه الكارثة .

قالت خالتي :

– هون عليك ياشيخ ، العوض على الله .

قال ابي :

– اما بقيه الاولاد فانا راض عنهم من كل قلبي . محمود الله يوفقه لم يتعبني ابدا . هذا الولد خلق ولياً . لقد دخل هذه السنة مدرسة الحقوق وبعد ثلاث سنوات سيصبح اما موظفاً ، او محاميا ان شاء الله وسامي على الرغم من شيطنته واندفاعه سيقدم هذه السنة شهادة صعبة وسيدخل بموجبها مدرسة الطب . اما صبرية فبنت عاقلة مجتهدة ، سأدعها في المدارس حتى يفتح الله نصيبها .

قالت خالتي :

– ان شاء الله تزوجهم جميعا في حياتك وترى احفادك واحفاد احفادك اللهم صلي على النبي ، واحد محامي والثاني طبيب . اما راغب فارجو الا تعكر قلبك عليه ، هذه فترة جهل يمر بها اكثر الشباب ، لكم سمعت عن رجال نجحوا في اعمالهم ، ووصلوا الى مراكز كبيرة وقد مروا في مطلع حياتهم بمثل هذه التجربة التي مر بها راغب .

قال ابي :

– ولكن ابني ليس من هؤلاء ، انا اعرفه تمام المعرفة .

قالت خالتي :

– تفاءل بالخير يابا راغب ، انت رجل دين وعاقل فلا تقطع املك من الله . اتدري لماذا جئت انا اليوم من آخر الميدان الى بيتكم هذا ؟ جئت من اجل ان اصالحك مع راغب.

قال ابي :

– انت يام رشيد تعرفين مكانتك عندي . لاارد لك طلبا الا هذا .

قالت خالتي :

– ولكنك لن تردني خائبة ابدا ، والا لن ادخل بيتك ماحييت . انا سآخذ راغب على عاتقي هذه المرة . ولن ادعه يطلب منك شيئا، سيبحث بنفسه عن عمل آخر . هناك ياسيدي اعمال كثيرة غير التجارة ولا تحتاج الى رأس مال .

صمت ابي على مضض ، فصرخت خالتي بصوتها الجهوري :

ــ تعال يا راغب قبل يد ابيك امامي ليرضى عليك ، رضاالله من رضا الوالدين يابني .

وجاء راغب مطأطأ الرأس فقبل يد ابي .

قال ابي :

ــ لولا خالتك ومكانتها عندي لما كلمتك طول عمري .

قال راغب :

ــ لن ترى مني ياابي بعداليوم مايسوءك أبدا ، انا واللهلايهمني الارضاك.

وبان الفرح على وجه امي التي كانت صامتة لاتنبس بكلمة كأنها طفلة صغيرة مذنبة .

كان الشتاء قارسا هذا العام ، انتقلنا منذ اواخر تشرين الاول الى الطابق الفوقاني ، وهجرنا الليوان والقاعة والمخادع في الطابق التحتاني . ماصعب الشتاء في دورنا الشامية ، المطبخ والحمام والمرحاض في الطابق التحتاني ، ودائما تجدنا طالعين نازلين على الدرج نطرطق عليه بقباقيبنا الخشبية . كانت أمي تعاني من هذا الفصل اكثر منا جميعاً لان ابي لايعفيها من اكاة كبة ، او صنع صدر الكنافة البصماء ، هذه اكلات شتوية يجب الا تفوتنا ، وكيف تفوتنا ونحن نعيش لنأكل ؟ . . . . الترفيه الاول في حياتنا هو الاكل ! . . . فكانت امي تمضي اكثر النهار في المطبخ ، في الزمهرير ، كما كانت تقول .

ولذا كانت تكره فصل الشتاء ، الا انها كانت تحب هطول الثلج ، لان منظر ارض الديار يصبح رائعا عندما تكتسي العريشة واشجار الكباد والنارنج حللا بيضاء وتظل ثمارها تطل بين الثلوج كنجوم ملونة . وكم كانت أمي تخشى علينا من التزحلق عندما يصبح الثلج جايدا ملتصقا

بالرخام . فكانت تغلي الماء وتصبه من امام الدهليز الى مطلع الدرج حتى مدخل المطبخ والمرحاض ليذوب الجليد فكانت تقول لنا :

— لقد شققت لكم ياالاولاد طريقا آمنة فلا تحيدوا عنها وتفسدوا بدعساتكم منظر الثلج الذي كأنه القطن المندوف .

هلّ الربيع ، وبرعم الورد ، وفتح البنفسج والعراتلي والبنفشا ، وازهر الكباد والنارنج والليمون وعادت الى دارنا بهجتها ، واريجها المنعش وفي آخر عيد الخضر بدأنا نتناول طعامنا ،في ارض الديار كما هي عادتنا .

اوشك العام الدراسي على نهايته . بعد العشاء قال سامي لأبيه :

— لم يبق للفحص الا ثلاثة اسابيع ، ماصعب الدراسة هذا العام ياابي . المواد كثيرة جدا ، وقد اتفقت انا وصديقي عادل ان ندرس معا وننقطع عن الذهاب الى المدرسة حتى يحين الفحص ، فهل تسمح لي ان ادعوه الى بيتنا لندرس معا في غرفة الطيارة ، انها منقطعة عن البيت فلا ترونا ابدا .

قال ابي :

— لابأس اذا كان في ذلك فائدة لك .

قال سامي :

— طبعا هناك فائدة كبيرة لكلينا ، عادل اقوى مني بالعلوم ، وانا اقوى منه باللغات ، بالعربي والفرنسي وستعاون على دراسة هذه المواد .

قال أبي :

– على شرط الا نرى وجهيكما ابدا . من باب الزقاق الى الطيارة ومن الطيارة الى باب الزقاق كي لا تنزعج امك او اختك من وجود رجل اجنبي عليهما في البيت .

قال سامي :

– لن تنزعجا منه لانهما لن ترياه ابدا .

قال ابي :

– وفقكما الله وفتح عليكما .

بان الامتعاض على وجه راغب ولكنه لم ينبس بكلمة ، منذ حادث الخسارة أصبح أقل ادعاءا ، وأقلّ تدخّلا في شؤوننا .

أمّا أنا فقد طفر الدم الى وجهي وأنا استمع الى هذا الحديث ، و تسارعت دقات قلبي ، خشيت آن ينتبه لي أحد فرحت أعبث بضفيرتي وكأنّني غير مبالية بما أسمع .

يا للحدث العظيم . . . . عادل يدخل بيتنا ويقيم بيننا طول النهار مدى ثلاثة أسابيع ! . . . . آه ما أشوقني الى رؤيته ! . . . منذ منعه أبوه أن يوزع الخبز على البيوتّ لأنه أصبح شاباً ، صرت لا آراه إلالماما ، عندمايدق بابنا ليسأل عن سامي ، أو يرد اليه كتابا ويصادف أن أفتح الباب فنتبادل كلمات خاطفة لا تروي ظمأنا .

تلك الليلة حلمت أحلاماً حلوة ، رأيتني وعادل في دارنا جالسين تحت الياسمينة حيث رأيت مرة أبي وأمّي يتغازلان ، رأيته يسحبني اليه ويضمني الى صدره بعنف ، ويطبع على فمي وعنقي قبلات هوجاء صحوت من الحلم مبتهجة ، ثم أغمضت عيني عسى الحلم يعاودني

مرة أخرى ولكنّي لم أنم.ظللت صاحية منتشية بحلمي اللذيذ حتّى أشرقت الشمس.ذهبت الى المدرسة قبل أن يأتي عادل الى دارنا ، ولمّا عدت من المدرسة في حدود العصر لم أجد في البيت الا ّ أمّي قاعدة في الليوان وأمامها كومة من الملابس المغسولة تطويها باتقان . سألتها عن سامي وتجاهلت وجود عادل عندنا .

قالت :

– هو ورفيقه يدرسان في الطيّارة .

قلت :

– لا شك انّهما بحاجة الى شيء من القهوة الآن ، سأغلي لهما فنجاني قهوة .

قالت :

– ألا تأكلين أولا ؟

قلت :

– لست جائعة .

قالت :

– عجبا تأتين دائما من المدرسة وأنت دائخة من الجوع .

لم أرد عليها . دخلت المطبخ ، غليت القهوة ووضعت الدلة والفنجانين في صينية وصعدت الدرج الى الطيّارة . نقرت الباب وتنحيت جانبا . برز سامي وقال :

– آه قهوة . . . أنت دائما عظيمة يا صبرية ، ما أحوجنا اليها الآن .

ثم قال والدهشة بادية عليه :

ــ ما لك ؟ أتختبئين من عادل صديق الطفولة ؟ ما أبلدك ! . . .

وسحبني من يدي وأدخلني الغرفة . وقف عادل وصافحني وقد بدا عليه شيء من الاضطراب .

قلت :

ــ أرجو ألا أكون قد صرفتكما عن الدراسة .

قال عادل :

ــ جئت في وقتك . لقد تعبنا ، ونحن الآن بحاجة الى قليل من الراحة .

قال سامي :

ــ لم لم تأت بفنجان لك لتشربي معنا القهوة ؟ خذي فنجاني وسآتي بفنجان لي .

وخرج من الغرفة وراح يقفز على الدرج . نظر عادل الي بحنان وقال :

ــ كم أنا مشتاق اليك .

وضحك ولمعت أسنانه البراقة في وجهه الاسمر ، ثمّ أردف :

ــ لقد منعني أبي من حمل الخبز اليكم ، لانني أصبحت شابّا على زعمه ، وجاء بأجير ليوزع الخبز على البيوت ، وبودي والله لو أحمله اليكم طول عمري .

ارتبكت ولم أجد ما أحدثه به . خطر لي حلم البارحة ، ووددت لو أقصّه عليه . صمتنا ونحن نتبادل نظرات أبلغ من كلمات الحب والهيام . دخل سامي ، صببت القهوة ورحنا نشربها . ألذّ فنجان قهوة تناولته في حياتي . أشعر وكأنّني في حلم ، أنا وسامي وعادل نشرب

القهوة في الطيّارة ، شيء لا يصدق . . . . رحت أتملّى اللحظات وأختزنها في أعماقي : فجأة خطر لي لو أن أحدا صعد الى الطيّارة ورآني جالسة بينهما اشرب القهوة ماذاسيحدث؟ ستحدث كارثة طبعا . فأنا لم أسأل أمّي عن راغب ومحمود فيما اذا كانا في البيت أو خارجه . نهضت واقفة ولملمت الفناجين وأنا أقول :

– من الاحسن أن أنصرف كي لا ألهيكما عن الدراسة .

مضت الاسابيع الثلاثة بسرعة عجيبة . كنت خلالها أتناول كل يوم فنجان قهوة مع عادل وسامي بعد أن يخرج أبي واخواي من البيت وتنهمك أمّي في أعمالها البيتية التي لا تنتهي .

كان أكثر حديثنا يدور حول الكتب التي سنقرؤها في أثناءالعطلة الصيفية وكتبت قائمة كبيرة بأسماء الكتب التي اقترحها عادل وكان قد قرأ بعضها أو سمع عنها .

روايات جرجي زيدان ، كتب مي زيادة ، كتب جبران خليل جبران ، اثار ذوات السوار الذي يتحدث عن شهيرات نساء العرب ، مجلة الهلال ، متابعة ما يكتبه معروف الارناؤوط في جريدته فتى العرب ، متابعة جريدة الميزان التي يصدرها أحمد شاكر الكرمي ، هذا الى جانب الكتب التي يتيسّر لنا استعارتها . ذخيرة رائعة لهذا الصيف سألتهمها التهاما .

كنت أشعر انّني كلّي بهجة وتفتّح للحياة ، أقبل على الدراسة بنهم عجيب كي أفوز بعلامات جيدة وأدخل مدرسة دار المعلّمات الثانوية الوحيدة للاناث في سورية كلّها .

انتهت الفحوص وكانت فرحتنا بالنجاح عارمة لم يكدرها شيء ،

لاننا نجحنا جميعنا بدرجات جيّدة ، محمود ، وسامي ، وأنا وعادل أيضا .

وأولم أبي على شرف نجاح أولاده وليمة رائعة ، دعا اليها خالتي أم رشيد وولديها رشيد ، وسليم . كنت أظهر أمام ولدي خالتي دون حجاب لانهما أخواي بالرضاع . كانت أمّي مرضت عندما ولدتني فأرضعتني خالتي مع ابنها سليم أسبوعا كاملا وكان سليم يكبرني بسنة كاملة . وكان رشيد قد رضع مع سامي وهو أيضا يكبره بسنة أي دلف الآن الى العشرين ، وكان يبدو رجلا ناضجا أكبر من عمره بكثير ، لم يكن رشيد جميلا كان كبير الانف ، غليظ الشفتين ، داكن السمرة ، ولكنه كان مهيبا جدا ، فارع الطول ، عريض المنكبين ، ذا شاربين أسودين كثيفين . وكان يعجبني جدا لباسه الشامي ، السروال الاسود العريض ذو الجيوب المطرزة باللون البنفسجي ، والدامر القصير العريض ذو الازرار البنفسجية الصغيرة التي أتقن العقادون صنعها ، الطربوش الحمري الطويل المائل الى اليمين ذو الطرة السوداء التي تنوس يمينا ويسارا وكأنها في حركة رائعة . كان رشيد قليل الكلام ، عف النظرات يحرص أن يبدو رزينا كي يقال عنه انّه رجل (معدّل)، كان واضحا انّه يعد نفسه ليتبوأ مكانة أبيه الذي كان زعيما مرموقا من قبضايات حي الميدان مات شابا ، اغتيل بالرصاص ولم يعرف قاتله ، ولما يبلغ ابنه البكر رشيد العاشرة من عمره . وكانت خالتي ذات شخصية قويّة فلم تبال بالاعراف والتقاليد السائدة على الرغم من انها تسكن حي الميدان أكثر الاحياء تمسكا بهذه التقاليد ، فراحت تدبر أعمال زوجها بنفسها حتّى كانت تضطر أحيانا أن تتخفّى فترتدي ألبسة الرجال

وتتلثم بكوفية ، وتركب حصانا وتردف وراءها ابنها رشيد فلا يحسبونها الا رجلا ، ثم تذهب الى الضيعة لتحاسب الفلاحين وتشرف على البيادر وكيل القمح . وأحيانا تذهب الى البستان الذي كانوا يملكونه في حي القدم فتشرف على بيع الفاكهة والخضار وما من أحد استطاع أن يغش أم رشيد أو يلعب عليها . ولذا كانت ذات شهرة كبيرة يلقبونها بأخت الرجال . حقا ان الشخصية القوية تستطيع أن تشذ عن القطيع وتتغلب على الصعاب ، وتشق لنفسها طريقا خاصا .

لكم تمنيت أن تكون خالتي أم رشيد أمي . لكانت استطاعت أن تغير مجرى حياتي كله . أما أمي فلا يمكن أن يعتمد عليها في شيء ، قلما تحتج أو تناقش دائما مستعدة لتلقي الاوامر .

جلسنا الى المائدة التي نصبناها في أرض الديار تحت العريشة . وكانت أمي قد طبخت لنا ألوانا كثيرة ، فتة مكدوس ، كبة مشوية ، كبة لبنية ، فخذة ورز ، سجقات مع البيرق ، هذه الاكلة الاخيرة اشتهرت أمي بطبخها . هذا كله مع أنواع من السلطات والمقبلات . وكان أبي قد أوصى على صدر نمورة ، عندما دخل من الباب فاحت منه رائحة زكية ، رائحة السمن البلدي الذي يفتح الشهية . ذلك كله كي نجاري ضيوفنا (الميادنة) في كرمهم المعروف .

تصدر أبي المائدة وراح يسكب الطعام لضيوفه ويملأ لهم الصحون ويحلف عليهم أن يأكلوا ما سكبه لهم كله ولا يقبل لهم عذرا ، مثنيا على طبخ أمي الذي لا يجارى في جودته ، ثم يقول انه سعيد جدا بنجاح أولاده .

آلمني أن ألاحظ شيئا من الانكماش ، والكآبة والامتعاض على وجه

أخي راغب الذي كان صامتا على غير عادته ، كأنه كان يشعر بفشله أكثر منه في أي وقت مضى :

في يوم مشرق من أيام الربيع صعدت وأخي سامي الى السطح لنجمع ورق العنب الطري من الدالية التي كانت لها عريشة واطية على السطح ، فقد طلبت أمي منا ذلك كي تكبس ورق العنب بالماء والملح لمؤونة الشتاء فتطبخ منه اليبرق في عز الشتاء وكأنه قد قطف لتوه من الدالية . توقف سامي عن القطف لحظة وقال بصوت خفيض وعيناه تتألقان ببريق عجيب :

– سأسر اليك يا صبرية سرا خطيرا ، لانك أنت وحدك التي تفهمينني من بين أهل هذا البيت كلهم .

قلت :

– هات ما عندك ، ولا تخش شيئا ، أختك صبرية بير لا قرار له .

قال :

– أخوك سامي في منتهى السعادة . لانه عاشق . غاطس بالحب حتى ما فوق أذنيه .

قلت :

– يا له من خبر عظيم ، عظيم جدا ، ومن هي سعيدة الحظ تلك التي تحبها ؟

قال :

– فتاة رائعة جداً ، لا نظير لها ، من طالبات مدرسة الفرنسيسكان .

قلت :

– وكيف تعرفت عليها .

قال :

– تعرفت عليها بالمكتبة . ذهبت مرة الى مكتبة فرنسية لاشتري كتابا ، فاذا فتاة معتدلة الطول ذات خصر نحيل تدخل المكتبة وقد أسبلت على وجهها نقابا شفافا جدا ما لبثت ان رفعته عن وجه قمحي منمنم تبرق فيه عينان عسليتان ذكيتان تخطفان القلب حين ترفرف حولهما الاهداب السوداء الطويلة . ظللت لحظة مشدوها وأنا أتأمّلها وهي تستعرض الكتب المفروشة أمامها على الطاولة دون أن تعيرني أيّ انتباه ، ثم راحت تتحدّث مع صاحب المكتبة بلغة فرنسية طليقة . جمعت أطراف شجاعتي وقلت لها :

– هل الآنسة أن تتكرّم عليّ فتختار لي كتابا كما تختار لنفسها ، على ألاّ يكون صعبا ، لانّني ما أزال ضعيفا باللغة الفرنسية ، ولا أعرف شيئا عن مضامين هذه الكتب ومؤلفيها ؟

شملتني بنظرة فاحصة ، ثم تناولت كتابا وقدمته الي وقالت :

– هذا كتاب جيّد وسهل – لالفريد دوموسه – قرأته وأعجبني جدا قد يعجبك أنت أيضا .

قلت :

– سيعجبني حتما ما دمت أنت قد اخترته لي . ابتسمت وقالت : بجرس حلو :

ــ ميرمي . ثم أخذت ما اختارت من الكتب وخرجت وكأنها تداعب الارض بخطواتها الرشيقة . خرجت وراءها وظللت أتابعها بنظراتي حتّى توارت ، وأنا أكاد أذوب وجدا .

قلت :

ــ طول بالك يا أخانا ، هذا كلّه من أول نظرة ! . . .

قال :

ــ لو رأيتها يا صبريّة لعذرتني .

قلت :

ــ ثمّ ماذا بعد ذلك ؟

قال :

ــ قرأت الكتاب ، وفرغت منه في يومين وفهمته جيّدا . انتظرت يوم الاحد بصبر عصبي . تعمّدت أن أجيء الى المكتبة في نفس الميعاد فوجدتها قد سبقتني اليها ، ولما رأتني بادرتني بالسؤال :

ــ هل أعجبك الكتاب ؟

قلت :

ــ اعجبني جدا ، ولذا جئت اليوم لتختاري لي كتابا آخر .

قالت وهي تتناول كتابا :

ــ هذه رواية تاييس لاناتول فرانس . أعظم كتاب فرنسا المعاصرين ــ انّها رائعة جدا .

قلت بصوت خفيض كي لا يسمعني صاحب المكتبة الذي كان مشغولا بزبائن آخرين :

– وهل سأجدك الاحد القادم هنا لاقول لك رأيي بالكتاب ابتسمت بخبث . وقالت بعد صمت قصير وشيء من التردد :

– ربّما . . .

ابتسامتها الخبيثة تلك أرقتني أسبوعا كاملا . خشيت ألاّ تأتي . فلمّا كان يوم الاحد ذهبت في نفس الميعاد فلم أجدها ، كان ما توقّعته فشعرت بخيبة كبيرة ، ووقفت أقلّب الكتب وأقرأ عناوينها دون أن أفقه شيئا ، لان بالي كان مشغولا عندها ، ورحت أتساءل

– أتجيء أم تراها تضحك عليّ ؟ ؟ . . .

مضت ربع ساعة ، كدت أخرج من المكتبة وأهيم على وجهي فاذا قامتها الهيفاء تهل من الباب ، وقد ارتدت معطفا بنيا محكم التفصيل على جسدها النحيل ، وأرخت على وجهها نقابا شفافا بنيا أيضا .

قلت لسامي :

– الحمد لله لقد أوجعت قلبي والله العظيم . . .

قال : والله لا أكذب عليك هذا الذي حصل لي .

قلت : ثمّ ماذا ؟

قال : سألتني رأيي بالكتاب ، قلت لها لا أستطيع أن أعطيك رأيي فيه لانني لم أنته منه بعد .

قالت : يا كسلان . . لماذا جئت اذن ؟

قلت : لأقول لك انني لم أنته منه بعد . . . فابتسمت ، لكن

ببراءة هذه المرة ، ثمّ اختارت كتابا وخرجت فتبعتها وسرت الى جانبها فلم يبد عليها أي حرج . قلت لها :

ـ يعجبني جدا حبّك للمطالعة .

قالت : انّها هوايتي المفضلة . أنا أقرأ كتابا كل أسبوع الى جانب دراستي . ثمّ تجرّأت فسألتها عن اسمها فقالت لي ان اسمها نيرمين .

قلت : يا له من اسم جميل ، يبدو انه اسم تركي . وفهمت منها انها من أمّ تركية وأب سوري ، وقد توفى أبوها منذ سنتين ، ولها أخ وحيد يدرس الطب في فرنسا .

قلت : ألم تحدثها أنت أيضا عن حسبك ونسبك وأصلك وفصلك ؟

قال : بلى لقد حدثتها كما حدثتني ، ثم أوصلتها الى بيتها في آخر طريق الصالحية في حارة متفرعة من الجسر الابيض وقلت لها وأنا أودعها :

أرجو أن أجدك في المكتبة في الميعاد نفسه .

قالت : ربّما . . .

قلت : ربّما هذه لم تعجبني أبدا ، لقد أرقتني أسبوعا كاملا .

قالت : يظهر انّك تحب المزاح .

قلت : بل جاد كل الجد .

قالت : ما دمت جاداً كما تقول ستجدني في المكتبة في الميعاد نفسه . ورفعت اصبعها مهددة وهي تدخل بيتها وتقول لي :

— ايّاك أن تقول في الاسبوع القادم انّك لم تنته من قراءة الرواية .

أمضيت الاسبوع وأنا أقرأ في الرواية وأستنجد بالقواميس حتّى فهمتها جيّدا . ولمّا كان يوم الاحد توجهت الى المكتبة تحوطني هالة من السعادة . . . وجدتها على الرصيف تنتظرني . بادرتني بالكلام قائلة :

— المكتبة مزدحمة بالناس ، ولن نستطيع أن نختار ما نريد ، ما رأيك في أن نسير قليلا في هذا الدرب ريثما تفرغ المكتبة قليلا من زوارها ؟

قلت : ولا أحب الي من ذلك .

ثمّ قادتني الى درب بين البساتين خال من الناس . رفعت حجابها وقالت :

— حدثني ، هل انتهيت من الرواية ؟ قلت :

— طبعا كما أمرتني ، وهل أستطيع مخالفتك ؟ ابتسمت وقالت :

— يا لك من تلميذ نجيب ، وماذا فهمت منها يا شاطر ؟

رحت ألخص لها الرواية وهي تتابع حديثي والدهشة تملأ عينيها الى أن قلت :

— لشد ما أحزنني الراهب بافنوس الذي عشق في صباه قبل أن يعتنق الرهبنة الراقصة الرائعـة تاييس ، وكان قد رآها في مدينة الاسكندرية ، ولم يستطع أن يبادلها الحب لضيق ذات يده ، ولم تشعر تاييس بحبه أبدا . أليس يا نيرمين أصعب أنواع العشق وأشدها ايلاما للنفس تلك التي لا يشعر فيها المعشوق بوجود عاشقه ؟؟

احمر وجه نيرمين وبرقت عيناها الحلوتان ، ونظرت الي بدلال وقالت وكأنها تريد أن تتهرب من الجواب :

ـ هذا الذي تقوله ليس في سياق الرواية ، أرجوك لا تخرج عن الموضوع . وماذا بعد أن اعتنق بافنوس الرهبنة ؟ قلت :

ـ لك ما تريدين يا معلمتي القاسية ، بعد أن اعتنق بافنوس الرهبنة ذهب الى صحراء طيبة ، وانزوى في صومعة ، لكن ذكرى الراقصة تاييس ظلت تعاوده بين حين وحين ، وكان يتراءى له طيفها في وحدته فيؤرقه ويشغله عن عبادته ، فراح يخادع نفسه ويوهمها ان الهاما ربانيا يدعوه أن يذهب الى تاييس وينتشلها من غوايتها ، ويهديها سواء السبيل ، ويلحقها في عداد الراهبات ، وعليه ألاّ يتردد في الاستجابة لهذه الدعوى ارضاءاً لله وحبا به . وقلت لنيرمين :

ـ لقد اكتشفت يا نيرمين الآن شيئا كنت غافلا عنه ، انّ ما كان يحدث لهذا الراهب المسكين هو مثل ما يحدث لي أنا الآن تماما ، فأنا دائما أخادع نفسي مهما كنت غارقا في الدراسة واقنعها انّه يجب أن أقوم الآن وأذهب الى المكتبة لآتي بكتاب أستفيد منه وينفعني في دراستي وقد لا يكون كذلك .

في الواقع أنا لا أذهب الى المكتبة الاّ من أجل أن أراك فقط فانظري ماذا يفعل خداع النفس ؟ . . .

قلت لاخي سامي :

ـ يا لك من شيطان خبيث ، وماذا قالت لك نيرمين عندما قلت لها ما قلت ؟ ضحك وقال :

– لطمتني على خدي لطمة خفيفة وقالت :

– لا أدري لماذا تحشر نفسك في الرواية ؟ سأضع لك علامة سيئة على هذا التلخيص كما تضع لي راهبة الادب الفرنسي عندما أخرج عن الموضوع ، لا تتهرب : أريد أن أعرف هل فهمت الروايـة الى آخرها أم لا ؟ قال سامي :

– ورحت أتابع لها التلخيص الى آخر الرواية قلت لسامي :

– لا بد أن تتم لي التلخيص أنا أيضا كما لخصته لترمين تماما . تأفف وقال :

– لك ما تريدين أنت أيضا : غادر بافنوس صومعته ذات ليلة ولكبد مشاق السفر سيرا على قدميه حتى وصل الاسكندرية وهناك شاهد تاييس تمثل رواية ، فاذا هي كما عهدها كوكبا يتلألأ في دنيا الفن والجمال ، فتعامى عن هذا كله ، وكان على يقين من أن قوة ايمانه وصلابة عقيدته لن يصرفا تفكيره عن هداية تاييس . ولم يخامره أدنى شك في نيل الغاية التي جاء من أجلها ولما دخل دار الراقصة رآها غارقة في النعيم الذي كان يغدقه عليها عشاقها الاثرياء ، فلم يزده هذا الا عنادا في رأيه فراح يعظ الراقصة بخشونة ، وصوت متهدج ، تكشفت فيه عواطفه المشبوبة نحوها . وتبهت تاييس من مرآه الاسطوري فتنصاع اليه مأخوذة بسحر كلامه الذي كان يخيفها مرة ، ويمنيها أخرى . وكانت تاييس طيبة القلب ، هلوعة النفس ، قد عرفت شيئا من تعاليم الديانة المسيحية ، لقنها اياها زنجي كان يخدم في دار أبيها قبل أن تفر منها . ولما جاء الراهب يعظها كانت قد ملت الحياة الصاخبة ، وتاقت الى حياة ساكنة هادئة في ظل عقيدة تطمئن اليها النفس وترتاح ، فما

اسرع ما استجابت لدعوة الراهب ، ورضيت الرهبنة على ما فيها من خشونة وتقشف . ولم يدعها بافنوس تخرج من دارها الا بعد أن أحرقت ثيابها الخليعة ، ورياشها الفاخر ليقطع كل صلة لها بحياتها الماضية ، ويخرج بها من الاسكندرية ويوصلها الى دير للراهبات يتركها فيه ، ويعود الى صومعته راضي النفس مطمئن البال . لكن طيف تاييس لم يهجره ! . بل عاد اليه أكثر الحاحا ، فكان يغرق نفسه بالصلوات والتسابيح كي يتخلص من الطيف المغري دون جدوى . فاذا استطاع أن يتناساه حينا خرجت اليه كائنات صغيرة راح يتخيلها تتراقص أمامه وتتواصل فتصرفه عن عبادته . وتثير غرائزه ، وتعيده الى التفكير بالراقصة . ولما ضاق ذرعا بحاله تلك هجر صومعته وبنى صومعة أخرى على رأس عمود لا تكاد تسعه ، لينقطع عن هذه الدنيا وما فيها من مغريات . لكن الطيف الملح والكائنات الصغيرة الرقحة لحقوا به الى الصومعة الجديدة القائمة على رأس عمود . قالت لي نيرمين :

— اتستطيع ان توضح لي ماذا كان يرمي اليه المؤلف من هذا كله ؟

قلت :

— لقد وفق المؤلف الى ابعد حدود التوفيق حين اراد ان يقول لنا : ان غرائز الانسان أكثر تحكما به مهما اعد نفسه للصلاح والتقوى فها هو ذا الراهب بافنوس يذعن اخيرا لسنن الطبيعة بعد مقاومة قاسية جدا ، فيهجر صومعته ويجيء الى تاييس ليقول لها : ان ما قلته لك ما هو الا هراء ! . . . فتعالي يا حبيبتي لنقتنص لذات هذه الدنيا قبل أن يغيبنا العدم . فطردته الراهبة الورعة تاييس شر طردة ، ولم يلبث أن مسخه الله خفاشا . ضحكت نيرمين وقالت :

– كأن المؤلف وضع للراهب المارق هذه النهاية البشعة لتكون كجواز مرور للرواية كي لا يقاومها رجال الدين ويمنعوا تداولها .

قلت لسامي :

– يا لها من رواية رائعة حقا ، يا ليتني اجيد اللغة الفرنسية لاقرأها بامعان . وماذا قالت لك نيرمين عن تلخيصك هذا ؟ هل اعجبها ؟ قال :

– قالت لي أنه رائع جدا ، لقد فهمت الرواية تماما ، واستطعت أن تلخصها بصفحة ونصف وهي رواية صعبة جدا ، ومع ذلك تدعي أنك لا تجيد اللغة الفرنسية عندئذ تسللت يدي الى يديها فرحت اضغطها بلطف ، ثم رفعتها الى فمي وطبعت عليها قبلة وأنا أقول : هذه شهادة اعتز بها كثيراً يا معلمتي العزيزة . لم تسحب يدها من يدي ، ويمر علينا صمت هادىء حنون ، ونظل نسير بين الاشجار تداعب وجهينا نسمات خريفية ناعمة ويدينا تتحدثان الى بعضهما . ما كنت اعرف ان الاصابع تجيد التعبير عن الحب بأبلغ ما تجيده الالسنة، كنا وصلنا الى آخر الدرب نظرت نيرمين فجأة الى ساعتها وقالت :

سرقنا الوقت ، لقد تأخرت ولم اعد استطيع الذهاب الى المكتبة .

قلت : بودي لو يسرقنا الوقت دائما فليس احب الي من سرقته هذه . . . .

ضحكت وقالت :

– ما رأيك أن تأتي معي الى بيتنا لأريك مكتبتي واختار لك كتابا منها ؟

قلت :

ــ ولا أحب الي من ذلك ، ولكن ماذا ستقول عني أمك ؟

ــ قالت :

ــ لن تفاجأ ، لقد حدثتها عنك وقلت لها سأعرفك عليه ذات مرة .

قلت :

ــ ما أحلى أن ترتفع الحواجز بين الام وابنتها ويعيشا كصديقتين حميمتين .

قالت :

ــ أمي مثقفة وذات أفق واسع ، وقد ربتني على الصراحة منذ صغري .

قلت لسامي :

ــ هنيئا لصديقتك بهذه الام الواعية ، ثم ماذا حدث . قال :

ــ قالت لي نيرمين أرجو الا يذهب بك الظن الى انني اعتدت أن أدعو الشباب الى بيتنا . انت أول واحد أدعوه .

قلت :

ــ يسرني جدا أن تثقي بي ، لكن يشوقني أن أعرف ما الذي حملك على هذه الثقة وأنت لا تعرفين عنّي الاّ القليل ؟ .

قالت :

ــ أظنّ أنّ لدي من الذكاء ما يكفي لاعرف الشخص من سماته وتصرّفه وما ينطوي عليه من خير أو شر . وابتسمت وهي تفتح الباب

ابتسامتها البريئة الخبيثة . وقادتني الى غرفة استقبال صغيرة ذات اثاث بسيط يدل على ذوق رفيع ، يختلف عمّا ألفناه في بيوتنا . لوحات على الجدران ، مزهرية على الطاولة قد نضدت فيها وردات منسجمة الالوان مع بعضها . ثمّ دخلت أمّها سيدة نصف ذات جمال وهيبة استقبلتني بتحفّظ وجلست قبالتي ، وراحت تسألني عن دراستي بلغة فيها لكنة تركية خفيفة ، بينما ذهبت نيرمين لتعد القهوة . شعرت بارتباك شديد أمام النظرات الفاحصة التي كانت توجهها إلي السيدة المحنّكة حتّى لكأني أجتاز امتحانا صعبا لم ينقذني منه الاّ دخول نيرمين بالقهوة .

شربنا القهوة . ثمّ قالت نيرمين : تعال لاريك المكتبة .ثمّ فتحت بابا من الصالون على غرفة صغيرة فيها مكتبة مرتبة أحسن ترتيب ، كما فيها ديوان وطاولة للكتابة ، وراحت تأتي ببعض الكتب وتضعها أمامي على الطاولة . وتعلّق على محتوياتها تعليقات ذكية ، وتترك لي حرية الاختيار . قلت : أفضل أن تختاري لي أنت ، لقد اعجبني اختيارك جداً . قالت : اذن خذ هذه المجموعة القصصية لموباسان فيها قصص قصيرة مشوقة وليست صعبة كرواية تاييس .

وأشعر انه قد آن لي أن أنسحب ، وأنهي الزيارة . فودعتها وأمّها وخرجت . وقلت لها هامسا : سأجدك في المكتبة ، فهزت رأسها وغمزتني بعينها . قلت لسامي :

– أستغرب جدا أن يوجد في بلدنا أمثال نيرمين وأمّها .

قال : أنت تعيشين في محيط ضيّق جداً . لا تعرفين الاّ أقاربنا وأهل حارتنا . لقد تغيرت المفاهيم كثيراً .

قلت : سأسجل حديثك هذا في مذكراتي لاقارن دائما بينه وبين الحياة التي نعيشها نحن .

قال : وهو ينظر الي نظرة ذات معنى :

لقد بحت لك بسري فلم لا تبوحين لي أنت بسرك ؟

قلت : وأيّ سر تعني ؟ أنا ليس لدي أسرار . . .

قال : أتخفين عنّي نفسك ؟ ألا تحبين عادل ؟

أدهشتني المفاجأة غير المنتظرة ، فظللت صامتة أنظر اليه متباهلة

قال : لا تخشي شيئاً ، هل ظننتني أخاك راغب ؟ ؟ من حقّك أنت أيضا أن تحبي . لقد حدثني عادل بكل شيء .

حملقت عيني به وصرخت مستغربة : عادل ؟ ؟

قال : نعم عادل . . . وابتسم وهو يهز رأسه ، وأردف : عندما حدثته عن نيرمين ونحن كما تعلمين لا نخفي عن بعضنا شيئاً ، سألته لم لا يتحرى هو الآخر عن صديقة تبهج حياته ؟ فاذا هو يقول لي ان الانسانة الوحيدة التي أتوق أن يرتبط مصيري بمصيرها هي أختك صبرية وأكّد لي انكما تفاهمتما على ذلك منذ أمد بعيد ، وهزّ سامي رأسه وقال وهو يبتسم : يا لكما من خبيثين ! . . ايجري هذا كله وأنا معكما ولا أدري بشيء ؟

لكن لا أخفي عليك انّني سررت جداً لانّك أحسنت الاختيار . عادل إنسان نادر . ممتاز جدا بجميع صفاته .

شعرت عندئذ بفرحة تغمرني ، وودت أن أعانق سامي وأقبله ، وإذا أمّي تصرخ : ألم تنتهوا من القطف ؟ كفى الآن ، انزلوا لنتغدى ، هيّا أسرعوا قبل أن يبرد الاكل .

قلت لسامي : يا ويلنا من أمّي ، أخذنا بالحديث فلم نعد ندري ما تقطفه أيدينا ، لقد قطفنا الورق اليابس مع الطري مع بعض العناقيد الصغيرة أيضاً .

حدث هام طرأ على المذكّرات فشغل عمّتي عن أحاديث الحب والدراسة ، ومشاكل الاسرة ، هو انبثاق الثورة السورية في جبل الدروز . كانت عمّتي تسجل في مذكراتها ما تقرأه في الصحف عن هذه الثورة ، وما تسمعه من اشاعات ، وتعلّق عليها ويبدو من تعليقاتها انّها كانت مندفعة بحماسة قويّة نحو هذه الثورة ، كما كانت تسجل بكثير من التفاصيل ما كان يدور بين أبيها واخوتها من نقاش وجدال حول الثورة وأنا بدوري سأنقل ما سجلته عمّتي ليكون مرجعا لي .

تقول عن أبيها :

يخيّل الي ّ ان ّ أبي في حيرة كبيرة من أمره . يدفعه شعوره الديني والوطني لان يبارك الثورة ويتحمّس لها ، ولكنّه يتمنّى في صميمه ان تظل بعيدة عن دمشق كي لا يتعرّض الى شيء من الاذى أو الخسارة في أملاكه وتجارته وبنيه . وكان سامي يشتعل حماسة ، بينما كان راغب ضد الثورة لا يرجو منها أي خير أمّا محمود فكان كعادته لا يبالي بشيء . كثيراً ما كان يشتد الجدال بين سامي وراغب فترتفع أصواتهما أمام أبيهما في السهرة على غير عادة .

ذات مرة احتد بينهما هذا الجدال :

راغب : أتعتقد يا سامي أن الدروز يستطيعون ببواريدهم العتيقة أن يثبتوا أمام طائرات الفرنسيين ودباباتهم ؟

سامي : نعم يا سيدي يستطيعون ذلك ، ألم تبلغك أخبار حملة الجنرال ميشو لقد أبيدت الحملة كلها وضجت الدنيا بهذا الخبر ، لقد أسقط الدروز بعض الطائرات ، وأعطبوا كثيراً من الدبابات ، وقد

اعترف الفرنسيون أنفسهم بهذه الخسائر الفادحة . الحرب يا أخانا ليست بالعتاد فقط ، انما بالرجال أيضا .

راغب ببرود ساخر : أتظن أن الفرنسيين سيسكتون عن هزيمتهم هذه التي أخذهم فيها الدروز على حين غرة ؟ سوف ترى سيخربون الجبل حجراً على حجر .

سامي : لن يستطيعوا ذلك أبداً فيما اذا امتدت الثورة الى أنحاء سورية جميعها ، ولا بد لها أن تمتد ، وقد بدأت بوادرها في مدينة حماه . وهذا سيكلف فرنسا جيشا كبيرا بكامل معداته .

راغب : يا سلام على آرائك الصبيانية هذه ! . . . فرنسا التي هزمت ألمانيا ستهزم أمام سوريا ؟ شيء مضحك حقاً .

سامي : أنا لم أقل أبدا اننا سنهزم فرنسا ، لكن لن ندعها تحقق مآربها في بلادنا ، كلما أخمدت ثورة سنقوم بثورة أشرس . هذه ثالث ثورة نقوم بها منذ دخلت بلادنا . فإذا ثبت لها ان خسارتها في بلادنا أكبر من ربحها لا بد لها أن تنسحب أخيرا . ان حرب العصابات ليست هينة تستمر زمنا طويلا .

راغب : المشوار اذاً طويل يا حبيبي . . .

سامي : نعم المشوار طويل ، وطويل جداً ، ويحتاج منا الى تضحيات كبيرة . أتريد أن تنال استقلالك ببلاش ، بلا تضحية ، بلا دماء ؟؟ ..

صرخ أبي :

ـ اسكتوا يا أولاد . أوجعتم رأسي ، ما لنا نحن والسياسة،نحن جماعة تجار لا دخل لنا بسياسة أو رياسة .

قال سامي :

– هذه ليست سياسة يا أبي هذه وطنية يجب أن يشترك فيها كل فرد من أفراد هذا الوطن والاّ فهو خائن .

تجهم وجه أبي وقال بنزق :

– اخرس يا قليل الادب ، قلت لك سياسة يعني سياسة .

لم يستطع راغب ان يخفي ضحكته الشامتة بينما كتم سامي غيظه وانسحب مكفهر الوجه من الليوان حيث كنّا نسهر وصعد الى غرفته في الفوقاني . ويرين علينا الصمت لحظة ، ثم يلتفت أبي الى أمّي ويقول لها بنهرة كأنها هي المذنبة :

قومي اقطعي لنا بطيخة لنبل ريقنا .

قامت أمّي وذهبت الى المطبخ ، ولحقت بها ، أخذت حزين من البطيخة وضعتهما في صحن وصعدت بهما الى غرفة سامي .
وجدته جالساً على حافّة سريره وقد أسند رأسه بكفه وبدت عليه علائم الحزن . قلت له وأنا أضع صحن البطيخ على الكمودينا :

– لماذا يا أخي تتعب نفسك بجدال لا فائدة منه ؟ قال :

– الذي يحزنني ان هذه النماذج التي ترينها في بيتنا هذا تشكل عناصر مجتمعنا كلّه . أبي يمثل طبقة التجار وأصحاب الاملاك الذين لا همّ لهم الاّ الحفاظ على أموالهم وأرباحهم ولا يرون الى أبعد من أنوفهم ، لا يدركون أبدا أن المستعمر ما جاء الاّ ليمتص خيراتهم حتّى يفقرهم . راغب الاناني الذي يعيش طفوليا ، لا ينتمي إلى شيء وانّما يحلو له أن يتشدق بكلمات يلملمها من هنا وهناك ، تناسب مزاجه الذي يخشى دائما أن يعكره شيء ما . هو ضد الثورة لانها تعكّر مزاجه

فقط . والانكى من الاثنين هو أخونا محمود الذي لا يحركه شيء .
وما أكثر أمثاله في مجتمعنا لقد خطر لي وأنا أتجادل مع راغب وأرى
محمود ينظر الينا ولا يفوه بكلمة كأنه لا يفقه مما يجري حوله شيئا .
ان أمسكه من كتفيه وأهزه ، وأظل أهزه بكل قواي عساه يفيق من
سباته العميق هذا . أعتقد انني أستطيع أن أقنع راغبا بآرائي يوما ما
أما محمود فلا فائدة منه . أنت مكبلة بعاداتنا وتقاليدنا البالية والويل
لك اذا خرقتها يوماً ما . أمي تعيش داخل جدران بيتها وكأنها تعيش
في قوقعة لا تعرف ما يجري خارجها .

هذا عدا الانتهازيين والمدعين والخونة . قلت بأسف شديد :

– يا ويلي ، من يقوم بالثورة وينقذ الوطن اذن ؟ قال :

– لا تخافي ، هناك المثقفون ، الواعون ، المؤمنون بقضيتهم ايمانا
خالصا حتى التضحية . بين هؤلاء يوجد من جميع الفئات والطبقات
من موظفين وطلاب وتجار وأصحاب أملاك أيضاً . والاهم من هؤلاء
كلهم هم العمال والفلاحون ، هؤلاء يندفعون بالنخوة والحمية وببراءة
خالصة ، لا يعقدون الامور . الوطن في خطر ويجب انقاذه وكفى .
من حسن الحظ أن هؤلاء هم الاكثر عدداً في وطننا .

قلت :

– الآن طمأنتني .

• • •

مابال سامي يتغيب كثيرا عن البيت ؟ احيانا يذهب منذ الصباح
ولايعود حتى العصر . كان يعود منهكا ، مايكاد يأكل حتى يصعد إلى
غرفته ويوصد بابه وينام . ولانه فتى مامن احد – يسأله اين كنت ؟

ومن اين اتيت ؟ لم يعد متفرغا للقراءة كما هي عادته في العطلة الصيفية ، ولم يتح لي ان اتحدث معه عن الكتب التي انتهيت من قراءتها ، كما لم يعد يحدثني عن نيرمين ولقاءاته بها .

انتظرت مجيئه ، فلما فرغ من طعامه وصعدالى غرفته وجدني قد سبقته اليها قال :

– خير ان شاء الله ، مالك هنا ؟ ، وماذا تريدين ؟

– ألم نتفق على الا نخفي عن بعضنا شيئا ؟ مالك تخفي عني امرا هاما . ؟

– واي امر تعنين ؟

– الى اين تذهب كل يوم من الصباح الى المساء ؟ ولماذا تعود منهكا يكسوك الغبار ؟ ان مرآك هكذا لايوحي ابدا انك كنت مع نيرمين .

ضحك وقال :

– اتفقنا ان لانخفيعن بعضنا شيئا فيما يتعلق بامور الحب والهيام . اما فيما عدا ذلك فلم نتفق على شيء .

– اوتخشى ان افشي السر ؟

– طبعا هناك امور لايجوز التفريط بها .

– كنت احسبك تثق بي ، فاذا انا واهمة ! . . .

– تأكدي انني اثق بك كل الثقة ، ولكن اخشى ان تغلطي مرة بكلمة امام امي وأبي . او راغب فتفسدي علي كل شيء .

ـ من هذه الجهة لاتخف ، لن اقع في مثل هذا الخطأ ابداً . هل انا طفلة ام بلهاء ؟

ـ اذن سأعترف لك وكوني حذرة . اتفقنا انا وعادل ان نذهب صباح كل يوم الى بستان خالتي ام رشيد في القدم وهناك نتمرن بباروده رشيد على اطلاق الرصاص واصابة الهدف ، يقوم رشيد بتمريننا مع عدد كبير من شباب حي الميدان حتى اذا التحقنا بالثورة كنا على شيء من الخبرة والقدرة على المشي .

ـ ماذا تقول ؟ ستلتحقون بالثورة ؟ ؟ . . .

ـ ومالك اصفر وجهك انت التي تدعين الحماسة والوطنية ! . . .

ماذا تفعل النساء الجاهلات اذن . ؟

ـ لو كنت استطيع ان اذهب معكما واشترك بالثورة لما شعرت بالخوف ابدا ، اما ان تذهب انت وعادل الى الثورة واظل انا هنا اتحرق واعيش اسيرة انشغال البال فشيء لايطاق .

ـ اصبرى...هذاجهادايضا ،فاصبرى علىهذاالجهادصبرالمجاهدين.

* * *

اشتعلت الثورة في الغوطة . تسلل الثوار الى بعض أحياء دمشق وضربوا في يوم واحد مخفرا في الميدان وآخر في الشاغور ، ارتبك الفرنسيون وجن جنونهم ، وراحوا يكثرون من المخافر ويقيمون حولها الاستحكامات ويبثون دورياتهم في الاحياء كلها ليلا نهارا . ويستمر ضرب المخافر ، ويعلن الفرنسيون الاحكام العرفية ومنع التجول في الليل منذ المغرب حتى طلوع الفجر .

اجتمع شملنا في المساء . قال سامي بلهجة المنتصر الظافر :

– الم اقل لكم ان الثورة لابد ان تمتد الى الغوطة . . .

– قال راغب بتحد:

– لكنها ستفشل كما فشلت ثورة حماة . وماذا جنينا من ثورة حماة الا الخسارة الفادحة ؟ لقد دمرت المدينة وعدد الضحايا من الابرياء لايحصى ، وفرضت الغرامات الباهظة على الاهالي حتى افقرتهم .قال سامي :

– لكن ثورة جبل الدروز ماتزال مشتعلة وستنتعش اكثر كلما اشتدت ثورة الغوطة . لان قوى الفرنسيين ستتوزع على عدة مناطق . بعيدة عن بعضها ، قال راغب :

– لاتنس ان الاقبال على التطوع في الجيش الفرنسي من قبل الشركس والارمن وغيرهم من الاقليات قائم على قدم وساق ، وهؤلاء كلهم اكثر معرفة بفنون الحرب من الثوار ، فلا ينقص الفرنسيين العدد ولاالعتاد ، قال سامي :

– كذلك الاقبال على الثورة قائم على قدم وساق . من حارتنا وحدها التحق بالثورة بين ليلة وضحاها عشرات الرجال ، قال راغب بتهكم :

– قل لي بالله عليك من هم الذين يلتحقون بالثورة ، وراح يعدد على اصابعه : اما سياسيون وهم قلّة ، وغايتهم معروفة ، يريدون ان يجعلوا لانفسهم قاعدة شعبيه يحسب الفرنسيون حسابها حين تنتهي الثورة ويأتي دور المساومات فيفوز الاكثر شعبية بالمراكز المرموقة . واما

مرتزقة هدفهم السلب والنهب . او عاطلون عن العمل ، او بلهاء امثالك .

نشب سامي واقفا وقال بنزق :

- امجنون انت ؟ ماهذا الكلام الذي تقوله ؟ انا اراهن ان الفرنسيين انفسهم لاينظرون الى الثوار نظرتك انت ، اذا كانوا يقولون عنهم في الجرائد انهم لصوص وقطاع طرق فمن اجل الدعاية فقط ، اني اعتقد ان الفرنسيين في صميمهم يحترمون الثوار ويقدرونهم . ويلتفت سامي الى ابيه ويقول :

اتعتقد ياابي ان ابا سعيد الحلاق ترك دكانه وعياله والتحق بالثورة لينهب ؟ امام الجامع ، استاذ الرياضيات ،جارنا الضابط المتقاعد،بياع الكعك ، ابو عبدو السمكري ، هؤلاء كلهم مرتزقة ؟ ؟ .

قال ابي :

- لااشهد بالله . ان هؤلاء كلهم رجال طيبون واشراف انا اعرفهم واحداً واحداً وقد التحقوا عن ايمان وعقيدة . ولكن لايخلو الامر من وجود مرتزقة كما قال راغب . على كل حال الثورة نشبت وقضي الامر ، وعلينا ان نؤازرها مااستطعنا سواء نجحت ام فشلت ألسنا أبناء هذه الامه التي تناضل ؟

انا اليوم تبرعت بخمس وعشرين ليرة ذهبية دفعتها والله عن طيب خاطر من اجل الثورة . ولم يبق تاجر في السوق الا وتبرع بما ألهمه الله .

قال راغب :

– هذا مبلغ كبير جدا ، قال سامي :

نحن هنا اربعة رجال لو كانت دولتنا مستقلة نخوض حربا نظامية لوجب علينا ان نشترك فيها جميعا شئنا ام ابينا ، او ندفع بدلا من اموالنا اكثر مما دفع ابوك من اجل الثورة بكثير .

قال ابي :

– اخصموا لنا هذا الجدال الان ، وليحتفظ كل واحد منكم برأيه لنفسه . كلما اجتمعنا لابد من هذا النقاش الذي لاينتهي ؟ .

* * *

سألت سامي :

– الم تسجل نفسك في مدرسة الطب ؟ انا سجلت في مدرسة دار المعلمات ، وبعد ثلاثة ايّام سيبدأ الدوام . قال لي هامسا :

– الحقي بي الى غرفتي سأتحدث اليك بأمر هام .

صعدت الى غرفته . وجدته يخرج بعض البسته الشتوية ويطويها قلت :

– خير ان شاء الله هل انت على سفر ؟ قال :

– اغلقي الباب واصغي الي ، غدا سألتحق بالثورة انا وعادل .

شهقت وقلت :

– ماذا تقول ؟

وضع اصبعه على فمه وقال :

– هس . . . . ، ولا كلمة ، اتعتقدين ان الثوار ليس لهم امهات

واخوات ، واولاد وزوجات وحبيبات ؟ كنت انتظر منك ان تشجعيني كما كانت تفعل النساء العربيات اللواتي قرأت عنهن في التاريخ ، لا ان تثبطي همتي ! . . .

سكت وهززت راسي دون ان انطق . قال :

– داري امي ما استطعت ، مسكينة كم يزعجني حنانها الفائض واعتذري لي من ابي واخوي لانني لن اودعهم خشية انيعملوا لي مشاكل. غدا عند الغروب سيفتقدونني ، قولي لهم انني التحقت بالثورة ، وانني اوصيتك الا تخبريهم الا بعد الغروب . وارجوك ان توصلي هذه الرسالة الى نيرمين العنوان مكتوب على الظرف ، يمكنك ان تذهبي اليها يوم الاحد قبل دوام مدرستك ، وستجدينها ، في البيت لانه يوم العطلة في مدرسة الفرنسيسكان انا حدثتها عنك ، وكم اكون شاكرا لك اذا زرت نيرمين كلما سمحت لك الفرصة ، كي لاتنقطع الصلات بيننا ، وسأحاول ان ابعث اليها برسائل مااستطعت ، قلت :

– ارجو الا تنسانا نحن ايضا . قال :

– ولو . . . وضحك وربت على كتفي ، قلت :

– الم تذكر لنيرمين انك ستلتحق بالثورة ؟ . قال :

– لا ، لم اذكر لها ذلك ، ولكني تعمدت ان اتحدث معها عن الثورة لاعرف شعورها نحوها فوجدت عندها من الحماسة اكثر مما كنت انتظر حتى قلت لها .

– يدهشني شعورك الوطني ، انت التي ثربيت في احضان الفرنسيين منذ طفولتك قالت :

– انهم يعلموننا حب الوطن من حيث لايشعرون ، نتعلمه حين ندرس تاريخهم الحافل بالتضحييات في سبيل الوطن والحرية .

قلت لسامي :

– والله انها لتضحية عظيمة منك ، كيف تترك نيرمين وتلتحق بالثورة وانت غارق بالحب حتى اذنيك ؟ قال :

– قدلا تصديقيني اذ اقلت لك كلما ازداد حبي لنيرمين ازداد حبي لوطني وتقت اكثر الى الحرية والكرامة والحياة الافضل ، نحن نعيش في وطننا اذلاء مهانين ! . . . تصوری هذه المأساة التي حدثت البارحة : القي القبض على عشرين شابا من طلاب وموظفين بتهمة مؤازرة الثورة . استجوبهم مستشار الشرطة فلما لم يفز منهم بطائل . امر جنوده ان يسوقوهم الى احد بساتين الصالحية المتطرفة ، هناك امرهم ان يحفروا خندقاعميقا ثم راح يتسلى بقتلهم بمسدسه امام بعضهم . هكذا دون محاكمة ، لمجرد شبهة فقط ، ثم دفنوا في الخندق الذي حفروه بأيديهم ! . . . من يضمن لنا انا وعادل الا يكون مصيرنا كمصير هؤلاء ؟ انني اربأ بك وبنيرمين ان تعيشا ذليلتين مهانتين في وطن مستباح .

انحدرت دموعي ، وانا اتخيل تلك المأساة الفظيعة ، وبدأ سامي لعيني عملاقا ، كأن قامته قد طالت عما كانت عليه ، ولم اره اجمل منه في تلك اللحظة . واتنبه لامر هام فاساله :

– هل لديك نقود تكفي ؟ قال :

ـ ومن انى لي النقود ؟ لدى منها شيْ لايذكر سنستدين أنا وعادل من رشيد لنشترى بارودتين ، وما عدا ذلك لسنا بحاجة الى شيء من المال . قلت :

ـ هذا غير معقول . خذ . واخلع من يدي سواري الذهبيين الثمينين واقدمهما اليه . قال :

ـ لا لا . . . مستحيل لن آخذهما ابدا . قلت :

ـ انا محرومة من الجهاد ، فلم تحرمني انت ايضا من ان اقدم للثورة مايخصني ؟ قال :

ـ اخشى ان يغضب عليك ابي و امي وراغب ايضا . قلت :

ـ فليغضبوا ، وليضربوني ان شاؤوا . الناس تموت وتتعذب في سبيل الثورة واذا لااحتمل اللوم ،او الضرب ان شئت؟ ان لم تأخذهما سأفشي السر حالا . قال :

ـ هاتيهما واصمتي ارجوك . ثم قال :

ـ سأخذ واحداً ، واعطي الاخر لعادل ، الا يسرك هذا ؟ .

قلت :

ـ يسرني جدا . سلم عليه وبلغه تمنياتي . قالى :

ـ واشواقك ايضا . سنبيع السوارين غدا ونعطي ثمنهما لرشيد ليدبر لنا بارودتين . وراح يزن السوارين بيده ويقول :

ـ انهما ثقيلان ،ربما زاد معنا شيْ من ثمنهما . ان عملك هذا ياصبرية سيمس عادل في صميمه ولن ينساك ابدا . يالها من هدية رائعه تقدمينها اليه عربونا للحب ، حب الوطن من خلال عادل وحب عادل

من خلال الوطن . اذهبي الان ودعيني اجمع اغراضي التي سآخذها معي ، تعالي لاودعك ربما لايتاح لي ذلك غدا ، تعانقنا وبكيت وخرجت من وانا اكفكف دموعي خشية ان ينتبه لي احد من اهل البيت .

مضى الليل ولم أنم ، كنت في بحران من القاق والأضطراب ، اتصور الفظاعات التي قام بها الفرنسيون في مدينة حماة فيقشعر جسمي مما نحن مقبلون عليه ، ألم يقل سامي المشوار طويل ، وطويل جدا ويحتاج الى تضحيات كبيرة ! ؟ . . .

استيقظت صباح الغد ولم اجد سامي في البيت ، كان من عادته ان يخرج باكرا . فلم يلفت عدم وجوده انتباه احد . مضى النهار وانا لايقر لي قرار كنت اهيم بين غرف البيت فاذا طلبت مني امي بعض الاعمال كنت اقوم بها وكأنني آله صدئة .

حان المغرب وعاد ابي واخوي الى البيت لان منع التجول في الليل مايزال ساريا ، قال ابي :

– اين سامي ؟ سبحان الله ، هذا الولد يحب المشاكل ، لوصادفته دورية الان لالقوا القبض عليه واردوه قتيلا في الحال . بلعت ريقي وقلت بصوت مضطرب :

– سامي لن يأتي يا أبي لأنه التحق بالثورة .

وكاني القيت قنبلة . . . .

امي ضربت صدرها بكفها وصرخت :

– ويلي على قامتي من هذه المصيبة ، راح الصبي ! . . .

حتى محمود هب واقفا وضرب كفا بكف وقال بنزق :

– عملها اذن . . . لكم كنت اخشى عليه من ذلك . . . ماذا يستطيع ان يفعل بالثورة وهو لم يمسك بارودة طول حياته ؟ . . .

قال راغب موجها الكلام لي :

– لماذا لم تخبرينا حتى الان ؟ انا هنا منذ الظهر وانت ساكتة على السر ، لو علمت لكنت عرفت كيف اقنعه بعدم الذهاب .

قلت :

– هو اوصاني ان لاابلغكم الا بعد الغروب ، كما اوصاني ان ابلغكم اعتذاره لانه لم يودعكم . قال راغب :

– أتدرين انك ترمين بأخيك الى التهلكة ، كل يوم يقتل مئات من الثوار . قال أبي : باتزانه المعهود :

– لا حول ولا قوة الا بالله ما لكم تندبون هكذا كأن الولد قد مات ؟ . . . لا يصيبنا الا ما قدر الله لنا . انه شروى غيره من الثوار ، مثله كثيرون . سامي أصبح رجلا وهو مسؤول عن نفسه دعونا نفهم الان من البنت مع من ذهب ؟ وكيف ؟ قلت :

– ذهب مع صديقه عادل . قال راغب :

– بلاؤنا كله من ابن الخباز هذا الذي يحسب نفسه فيلسوف عصره .

قلت دون تفكير وبعصبية :

– لكن سامي هو الذي أقنع عادل بالالتحاق بالثورة وليس العكس .

بحلق راغب عينيه الكبيرتين في وقال :

– وما أدراك أنت بذلك ؟ هل كنت تحضرين اجتماعاتهم ؟
قلت :

– وكيف أحضرها وأنا لا أخرج من البيت الاّ مع أمّي ؟ لكن عرفت ذلك من سامي . قال راغب :

– ما شاء الله . . ، انت اذن بيت سر سامي ! . . قال أبي :

– هذا ليس مهمّا الآن ، دعونا نفهم من البنت الى أيّ جهة من الغوطة اتّجه الولد ، والى أية عصابة انتمى ؟ عسانا نستطيع الاتّصال به ، لنمدّه بشيء من المال . قلت :

– لم يقل لي شيئا من هذا ، وأنا لم يخطر لي أن أسأله ، ولكن قال لي انّه سيبعث لنا برسائل كلّما أتيح له ذلك . قال راغب :

– أعوذ بالله ، اذا وقعت رسالة بيد الفرنسيين سيخربون بيتنا ، والله عليم ماذا سيجر علينا التحاقه بالثورة من ويلات . . . قالت أمّي :

– كل شيء هين اذا عاد هو سالما . يا ربّ احفظه من كل مكروه — قال أبي :

– يقهرني جدا أن يذهب وليس معه من النقود ما يكفيه لسد حاجاته الضرورية . الثورة ليس لديها جيش نظامي لتكفي رجالها كل شيء .

قلت :

– لا تخف يا أبي ، لقد أعطيته سواري ليبيعهما. قال راغب :

– هذه الملعونة هي التي كانت تشجعه على الالتحاق بالثورة ، تريد أن تقلّد ما تقرأه في الكتب والروايات . قال أبي وقد قطّب حاجبيه

ـ كيف تتصرفين بسواريك دون أن تأخذي رأيي هل اشتريتهما لك لتتبرّعي بهما لمن شئت ؟ قالت أمّي :

ـ والله خير ما فعلت يا أبا راغب ، ولو كنت مكانها لعملت مثلها ، و نظرت الى راغب وقالت بحدّة :

ـ ما لكم ولها ؟ تصرّفت بما تملك ، هل أخذت منكم شيئا .

وأشعر كأنّني اختنق فأنفجر بالبكاء ، وأتركهم وأصعد الى غرفتي .

* * *

بعد يومين ناداني أبي حين عاد من عمله ، مد يده الى جيبه وأخرج منها علبة مخملية زرقاء فتحها وقال لي :

ـ انظري ما أجمل هذا السوار ، انّه أغلى من سواريك اللذين أعطيتهما لسامي ، ايّاك أن تعطيه لاحد ، والاّ لن أشتري لك شيئا ابدا قبّلني من رأسي وقال :

ـ الله يرضى عليك ، واغرورقت عيناه بالدموع .

تناولت السوار من يده وأنا أكاد أبكي حنانا ، تأمّلته كان جميلا حقّا له قفل على شكل رأسي حيتين متعانقتين مرصعتين بأحجار صغيرة من الماس وياقوت . قلت :

ـ لا حرمني الله منك يا أبي . ركضت الى أمّي وأريتها السوار قالت :

ـ ما أحلاه هنيئا لك به يا بنيّتي ، أبوك ممنون منك جدا لانّك أعطيت سواريك لسامي . قال لي يومها :

– سأشتري لها خيرا منهما لانها بنت نادرة ، مجبولة بالحنان والطيبة والكرم . وها هو ذا قد وفى بما وعد . الله يديمه علينا .

* * *

أيّ فراغ كبير تركه سامي في بيتنا ! . . . أشعر بالغربة لا أجد من أتحدّث اليه كما كنت أتحدث الى سامي فانطوى على نفسي وتنتابني الوساوس . مضى يومان شعرت انهما كانا طويلين جدا .

صباح الاحد ابتدأ الدوام في المدرسة . نهضت باكراً أخذت رسالة سامي الى نيرمين ، ركبت الترام من بوابة الصالحية حتّى الجسر الابيض الذي لا يبعد كثيراً عن مدرسة دار المعلّمات . كنت أفكّر طول الطريق كيف ستلقاني هذه الفتاة ؟ . . . وهل سأجدها كالصورة التي رسمتها لها بذهني من خلال وصف سامي لها ؟ اهتديت الى البيت دون صعوبة . كان في مدخل حارة تتفرّع من الجسر الابيض طرقت الباب ووقفت لحظة فاذا هو يفتح وتظهر فتاة نحيلة طويلة ذات لون عاجي وشعر أسود ، ترتدي ثوبا منزليا ، شملتها بنظرة سريعة من رأسها حتّى قدميها فاذا هي كما تصورتها تماما رفعت حجابي وقلت :

– أنا صبرية أخت سامي .

فبدت دهشة في عينيها العسليتين الجذابتين وقالت :

– أهلا وسهلا ، تفضلي ، تفضلي ، قلت :

– كم أود لو أستطيع ذلك ، لكن حان ميعاد دوام مدرستي ، ومددت يدي بالرسالة وقلت لها :

– هذه رسالة كتبها سامي اليك قبل أن يلتحق بالثورة .

استدارت عيناها دهشة وامتقع لونها وقالت باستغراب :

– الثورة ؟ . . . كنت أعرف انّه مندفع اليها جدا ، لكن لم يقل

لي أبدا انّه سيلتحق بها . قلت :

– كذلك لم يقل لابيه وأمّه واخويه خشية ان يثبطوا همتّه .

أتمنّى أن أراك بين حين وآخر . قالت :

– وأنا كذلك ، أحب أن أعرف منك أخبار سامي . واغرورقت عيناها بالدموع . مددت يدي فمدت يدها تصافحنا ، هززت يدها وأنا أضغطها فابتسمت لي برود .

انحدرت من الجسر الابيض الى مدرسة دار المعلمات مشيا ، كانت تتتابني خيالات جميلة يشوبها شيء من الخوف . هل ستنجح الثورة ويعود سامي وعادل سالمين ؟ وهل أرى سامي عريسا يتأبّط ذراع نيرمين وهي ترفل بثوب أبيض كملاك ؟ هل سنتزوج أنا وعادل دون مشاكل ونعيش حياة هانئة كما كنّا نحلم ؟ أم ماذا تخبي لنا الاقدار من مفاجآت ؟

دخلت مدرسة دار المعلمات ، كانت الباحة الكبيرة تعج كخلية النحل بالفتيات القادمات من شتى المدارس ، لان مدرسة دار المعلّمات

هي المدرسة الثانوية الوحيدة للبنات في سورية كلها ، وجدت بنات مدرستي وقفت بينهن ورحنا نتبادل التحيّات بعد غياب طويل أثناء العطلة الصيفية . فجأة لعلع الجرس بيد ناظرة المدرسة .

فتاة قصيرة بدينة ذات شعر أحمر ، ووجهها مليء بالنمش ، علمت فيما بعد انها يهودية وتجيد اللغة الفرنسية ، وكانت هي صلة الوصل بين الطالبات والمديرة الفرنسية والاساتذة..وقفت في منتصف الباحة وصرخت :

– طالبات الصف السابع يقفن في صف واحد ويتبعنني . صعدنا

وراءها الى الطابق الفوقاني . وقفت أمام باب القاعة تقرأ أسماءنا وتدخلنا واحدة واحدة وتشير الى أماكننا حتّى امتلأت بنا القاعة الكبيرة ، دخلت وراءنا وقالت :

— عندكن الآن درس عربي ، وهذا البرنامج ، وأشارت الى لوحة على الحائط وأردفت :

— يمكنكن نقله بعد الدرس ، ثم انصرفت .

بعد قليل دخل أستاذ العربي ، شيخ معمّم ، ذو لحية بيضاء ، مهيب الطلعة يرتدي جبّة سابغة . جلس خلف المنصة ، وراح يتأمّلنا برهة دون أن ينطق ، ويسود سكون مطلق ، بعض الفتيات أرخين الحجاب على وجوههن فلم يبد منهن شيء ، بعضهّن عقدنه من تحت الذقن وخبأن شعورهن ، ومنهن من رفعنه دون أن يعقدنه أو يخبئن شعورهن ، وكنت من هذه الفئة .

قرأ الاستاذ أسماءنا وتعرّف علينا واحدة واحدة ، ثمّ نادى واحدة الى اللوح وأملى عليها بيتا من الشعر ، وطلب منها أن تعربه بعد أن شرح لنا معناه ، فسّر كلماته وراح يعلّق على الاعراب بملاحظات قيّمة طلب منّا أن ندونها .

وجدت فارقا كبيرا بين تدريس الاستاذ ،وتدريس معلماتنا، واعجبت بالطريقة الجديدة ، وأستوعبت ما قاله الاستاذ كله . وتتوالى الحصص ، تاريخ ،كيمياء ، أفرنسي ،تعرفنا على الاساتذة . في منتصف حصة الكيمياء نقر الباب ثم دخلت المديرة الفرنسية مع الناظرة ، امرأة طويلة ، ضخمة شرسة النظرات ، جاءت تتفقد صفنا فأبدت

بعض الملاحظات للناظرة بصوت خفيض ثم راحت تتحدث مع الاستاذ بالفرنسية .

لا أدري لِمَ شعرت بنفور منها منذ وقع نظري عليها وتساءلت :

ـ ماذا سيكون موقفها مني يا ترى لو عرفت انني أخت ثائر من ثوار الغوطة الذين يقضون مضاجع الفرنسيين ليلا ونهارا ؟ ؟ .

● ● ●

بدأت أجد سلوى كبيرة بالذهاب كل يوم الى المدرسة ، و الهروب من جو البيت الخانق ، وتنهدات أمي ، وملاحظات راغب . تعرفت على زميلات جديدات ، لمست عند بعضهن حماسة كبيرة للثورة فامررت اليهن أن أخي ثائر ، فصرن يحملن الي ما يسمعنه من أخبار عن الثورة.

راحت تمر الايام وقد الفنا وضعنا الجديد مع الثورة التي انتشرت في الغوطة كالنار في الهشيم ، وأصبح صوت الرصاص الذي يلعلع طول الليل شيئا مألوفا لدينا . ما يكاد يهبط الظلام حتى يبدأ الثوار بالتسلل الى أحياء دمشق ليضربوا المخافر الفرنسية ، وترد عليهم هذه بالمثل من وراء الحصون . وصرنا نعرف صوت رصاص الفرنسيين من رصاص الثوار ، لان بواريد الثوار مختلفة الاشكال والانماط ، ولكل واحدة صوت يختلف عن الاخرى ، هذه التي تخرخر وتلك التي توزوز أو تصوي . واحدة المانية وأخرى عثمانية أو نمساوية ، واذا تصادف أن مضى فترة من الليل ولم نسمع خلالها ازيز الرصاص رحنا نتساءل بقلق : ماذا اصابهم اليوم ؟ ولم لا يحركون ساكنا ؟ وفي الصباح كان الفرنسيون يجردون الحملات الى الغوطة فكانت تعود

مع الغروب فاشلة ، لان اخبارها كانت تصل الى الثوار منذ خروجها من دمشق فيحتاطون لها ، ويفرون من أمامها ثم يهاجمونها من الخلف وينصبون لها الكمائن فتقع الخسائر في صفوف الفرنسيين أكثر منها في صفوف الثوار . وكانت الطائرات لا تستطيع أن تكتشف تجمعات الثوار بين أشجار الغوطة الكثيفة لترشد الحملات اليهم . ولن أنسى أبدا تلك الاهازيج التي شاعت في البلد عن الثورة ، كنا نرددها في فرصة الظهيرة ، وفي غفلة من الناظرة ، كانت احدى الزميلات ذات صوت ايقاعي جهوري فكنا نجتمع حولها ونطلب منها أن تغني لنا وما أسرع ما تلبي طلبنا فتردد :

قومي اسمعي يا حبابة صوت الكَلَّة والدبّابة
ولما اجت العصابة

نردد نحن :

الفرنساوي راحوا خسارة

تقول بحماسة أكثر :

قومي اسمعي يا جارتنا ضرب الكلّة بحارتنا
ولمّا اجت عصابتنا

نردد نحن :

الفرنساوي راحوا خسارة

ذات يوم في فرصة الظهيرة تناهى الينا خبر فظيع جدا حملته الينا بعض الفتيات اللواتي ذهبن الى الغداء ثم عدن وهو أن حملة فرنسية خرجت اليوم الى الغوطة وقتلت عدداً كبيرا من الثوار ثم جاءت بجثثهم محملة على البغال ثم عرضتها في المرجة في ساحة الشهداء لتكون عبرة للناس .

كدت اصرخ عندما سمعت الخبر ، وراحت تتسارع خفقات قلبي ، أيقنتانني لا استطيع أن أظل في المدرسة وأنا في هذه الحالة من الاضطراب والقلق . كان باب المدرسة ما يزال مفتوحا في فرصة الظهيرة ، خرجت واتجهت نحو المرجة . وقف شعر رأسي ، وتسارعت خفقات قلبي فانكفأت راجعة بعد ان ادركت أنني أقوم بعمل جنوني ، فأنا لا أستطيع السير حتى المرجة بحالتي هذه ، وهل استطيع ان انظر الى الجثث المشوهة ؟ وماذا لو رأيت بينها . . . يا لطيف ! . . . . .

تخاذلت ركبتاي وكدت أقع على الارض . عددت نقودي فوجدتها تكفي لاجرة عربة . وقفت مكاني حتى مرت عربة فاستأجرتها لتوصلني الى بيتنا في سوق ساروجة . دخلت البيت فوجدت محمود قد سبقني اليه ، اخافني وجهه الممتقع وعيناه التائهتان ، أشار الي ان أصمت واتبعه

الى الطابق الفوقاني كي لا تسمع أمي التي كانت تعمل شيئا ما في المطبخ . قال لي باضطراب شديد :

– اطمئني ، رأيت الجثث كلها . كلها . . . . اقسم لك انهم ليسوا ثوارا كلهم من الفلاحين والعمال . عرفت ذلك من البستهم وهيئاتهم .

وارتمى على سريره وفاجأته نوبة بكاء بعد ما عانى من الكبت فراح يبكي ويبكي ويشهق وأنا أقف أمامه حيرى لا أدري كيف امسكته ، حتى خشيت أن يقف قلبه ، فأسرعت وجئته بماء الزهر ، رششت به وجهه وسقيته قليلا منه ، فراح يهدأ شيئا فشيئا ، ثم قال لي :

– سمعت الخبر في المدرسة فطار عقلي ، خشيت أن يكون سامي بين القتلى ، ركضت من مدرستي الى المرجة بلا وعي ، تصوري وقفت احملق الى جثث مشوهة ، ملطخة بالدم والطين ، فلم اجد بينها جثة احد ممن نعرفهم . اية فظاعة هذه ؟ ؟ اولاد الكلب يعجزون عن قتل الثوار فيقتلون السكان العزل ويعرضون جثثهم المشوهة على الناس ، ويدعون المدنية والانسانية ! . . . ويعاوده البكاء . بعدها ظلّ محمود ثلاثة أيّام مريضا لا يستطيع الذهاب الى مدرسة الحقوق .

الآن أدركت ان سامي كان يتجنّى على أخيه محمود . هكذا خلق محمود ، فكيف يريده أن يلتحق بالثورة ويشاهد القتلى في كل لحظة ، ويمارس القتل ولو كان مقتنعا به ؟ ؟

بعد هذا الحادث الفظيع أمضينا ليلة رهيبة ، كأنّنا نعيش في جبهة

حرب .هاجم الثوارجميع المخافر المحيطة بمدينة دمشق وتسللوا الى كثير من الاحياء وضربوا المخافر القائمة داخل المدينة أيضا .

اختلط صوت المدافع الموجهة من قلعة دمشق الى الغوطة بازيز الرصاص ، بهدير الطائرات . حتّى الفجر لم تغمض لي عين ، وما أظن أن أبويّ قد ناما قط . كان كل واحد منّا يكتم ما يعاني في نفسه . كان يخيّل الي انّ كل رصاصة اسمعها قد اخترقت صدر عادل او سامي فيسقط قلبي في هاوية لا قرار لها .

سامحك الله يا سامي حين قلت لي :

ــ هذا الصبر جهاد أيضا ، فاصبري عليه صبر المجاهدين .

انّه يا أخي أصعب من الجهاد ، جهاد صامت، لا يدري به أحد، بطولة بلا مجد ! . . . .

استيقظت تعبة ، فكري مشوش ، لا رغبة لي في الذهاب الى المدرسة ، وما من أحد كان يهتمّ بأمر مدرستي إن ذهبت اليها أم لم أذهب . بعد أن خرج أبي من البيت قلت لامي :

ــ ألم ينشغل بالك على ابنك سامي وقد مضى على ذهابه شهر كامل دون أن يصلنا منه أي خبر ؟

قالت بعتب كبير :

ــ اليّ يوجّه هذا السؤال أنا التي أصبر صبرا على جمر ؟

قلت :

ــ ولكنّك لم تفعلي شيئا لتطمئني على ابنك .

قالت :

ــ وماذا أستطيع أن أفعل ؟

قلت :

– نذهب مثلا الى خالتي أم رشيد لنطمئن منها عن أخبار الثوار .

قالت :

– وما أدرى أم رشيد بأخبارهم ؟

قلت :

– أنا لم أقل لكم أن ابن خالتي رشيد التحق أيضا بالثورة ، والميدان قريبة من مراكز الثوار ، فلا بد أن لدى خالتي أخبارا كثيرة عنهم .

قالت بعد أن فكّرت قليلا :

– ولكنّنا لم نأخذ أذنا من أبيك . قلت :

– أكاد أنفلق غيظا منك يا أمّي .... امرأة في مثل عمرك أوشكت أن تصير جدة بحاجة الى ان تأخذ أذنا من زوجها كلّما خرجت من البيت ؟

قالت :

– هكذا تعودت .

قلت :

– اخرقي هذه العادة ولو مرّة من أجل أن تطمئني عن سامي ، وقد نذهب ونعود دون أن يدرى بنا أحد .

وما زلت بها حتىّ قالت :

– هيّا بنا اذن .

وما كانت لتفعلها لولا قلقها الشديد على سامي بعد تلك الليلة المشؤومة.

بعد أقل من ساعة كنّا نطرق باب بيت خالتي أم رشيد . فلم يجبنا أحد حتّى كدنا نيأس ونعود من حيث أتينا فاذا صوت خالتي يأتينا خافتا مضطربا تقول :

– مين . . . ؟

سمعت صوتنا فاطمأنّت وفتحت الباب وقالت :

ـ جزاكم الله خيرا ، ماذا جاء بكم في هذا الصباح الباكر كدت والله أن أموت من رعبي .

قلت :

ـ ولماذا يا خالتي ؟

لم تجب ، قادتنا الى المطبخ ، فتحت بابه وقالت لنا :

ـ انظرا ماذا كنت أفعل .

فاذا كومة من رصاص البنادق على أرض المطبخ قالت :

ـ كان رشيد الله يسلمه وضع هذه الرصاصات في تنكات كاز وحفر الحوض ودفنها فيه عندما بدأ الفرنسيون يجمعون السلاح من حي الميدان . ويظهر يا نار قلبي أن الذخيرة قد قلّت الآن بين أيدي الثوار فأرسل اليّ رشيد يطلب منّي أن آتيه بهذه الرصاصات كيفما كان الامر ، اخرجتها من الحوض فاذا التراب والصدأ قد علاها لظفت نصفها وأخذتها اليه وهذا هو النصف الآخر . كنت قاعدة أمسح رصاصة رصاصة بزيت الكاز حتّى تصبح مثل الذهب . كانت خالتي تتكلم وأمّي تحملق اليها فاغرة فمها دهشة . قلت :

ـ وكيف أوصلتها الى الغوطة والمخافر الفرنسية منتشرة طول الطريق ؟ والله انّك يا خالتي بطلة .

قالت :

ـ الفضل والله ليس لي وانّما لجاري وهو رجل فقير عنده طنبر يعمل عليه ذهبت اليه وحكيت له الحكاية فقال لي :

ـ من عيني الاثنتين يا خالتي أم رشيد ، أنت تأمرين أمرا . ولم يقبل شهد الله أن يأخذ مني أجرا على الرغم من انّه فقير وأبو عيال قال لي :

– أنا أريد أن أعمل شيئا من أجل الثورة ، أفش خلقي ، لأنني لم أستطع أن ألتحق بها من أجل العيال ، فكيف تريدنني أن آخذ منك أجراً سامحك الله . وضعنا الرصاصات في المخلاة و علقناها في رقبة البغل بعد أن وضعنا فوقها قليلا من التبن ، ولبست أنا لباس فلاحة وركبت معه في الطنبر ، ولمّا مرقنا من أمام المخفر فتّشونا فلم يجدوا معنا شيئا كذلك المخفر الثاني والثالث حتّى وصلنا الى الغوطة .

قلت :

– الحمد لله على سلامتك يا خالتي طمئنينا كيف حال سامي ورشيد؟

قالت :

– الحمد لله كل واحد منهم مثل الاسد ، جلست بينهم حكوا لي كيف يهاجمون المخافر والحملات وكيف ينصبون لها الكمائن وعرفوني على زملائهم ، عرفوني على واحد اسمه عادل من حارتكم ، وهو صديق سامي . يا عيني عليه ، أول البارحة رمى طائرة ببارودته العتيقة ، هبطت الطائرة قليلا لتكتشف تجمعات الثوار ، فعاجلها بطلقة من بارودته جاءت صائبة في مخزن البنزين فاحترقت الطائرة وقد رأيت حطامها بعيني .

ورفعت يديها وقالت :

– الله يخليك يا عادل لأمّك ووطنك، تسلم يديك يا بطل .أمانة اذهبي يا صبرية الى امّه وطمئنيها عنه واحكي لها حكاية الطيارة .

ووجدتني أرتمي على خالتي وأعانقها وأقبلها والدموع تجري من عيني وهي لا تدري انّ فرحتي بعادل دفعتني الى ذلك .

قلت لها :

– سأذهب اليوم الى أمّ عادل وأحكي لها عن ابنها البطل .

كانت خالتي تحدثنا عن مغامرتها وأمّي تنظر اليها صامتة مدهوشة كأنها

توازن بين نفسها وأختها ، فتهبط هي وتعلو أختها في نظرها الى حد لا يطوله خيالها . ثمّ قالت خالتي :

ـ هجم البرد ، وبعض الثوار يا حسرتي عليهم ليس عندهم عباءات والعباءة ضرورية لأنهم ينامون أحيانا في الخلاء فيلتفون بها . البارحة عملت جولة في حيّنا فجمعت ثلاثين ليرة ذهبية في يوم واحد من جيراننا ومعارفنا . ما من بيت الا ودفع قدر استطاعته وغدا سأشتري العباءات وقد رضي جاري صاحب الطنبر أن يوصلها الى الثوار في الغوطة .

قلت لأمّي :

ـ لماذ لا نعمل نحن في حيّنا كما عملت خالتي ؟

قالت أمّي :

ـ والله لا بد أن أعملها . ولو طلّقني أبو راغب . فضحكنا من حماسة أمي المباغتة . ثم قلت لخالتي :

ـ خذيني معك مرة الى الغوطة .

قالت أمّي :

ـ هذا الذي كان ينقصنا ، ولو خطفك واحد سنغالي أو افرنسي ماذا نقول لابيك ؟

قالت خالتي :

ـ لا ، يا بنتي لا ، أنا لست قد أبيك . قلت :

ـ أمانة ، اذا ذهبت الى الغوطة سلمي لي على سامي ورشيد ورفاقهما وبخاصة عادل . قولي له : تقول لك صبرية أخت سامي : تسلم يداك .

ودعنا خالتي وخرجنا من لدنها ، ركبنا الترام الذي كان موقفه لا يبعد كثيرا عن بيت خالتي ، ورحت أتحدث الى نفسي أثناء الطريق وكلّي حماسة وتفاؤل وفرح :

– مادمنا نستطيع ان نسقط الطائرات فماذا ينقصنا ؟ سأحكي عن عادل الى رفيقاتي في المدرسة ، وسأصفه لهن دون ان اذكر شيئا عن علاقتنا .

نزلنا من الترام في ساحة المرجة ثم اتجهنا الى سوق ساروجة .

قلت لامي :

– سأذهب الى بيت اهل عادل لأطمئن امه عليه كما طلبت مني خالتي .

قالت :

– اياك وان تغيبي اكثر من دقائق .

كان بيت عادل لايبعد عن بيتنا الا قليلا . استقبلتني أمه بلهفة .

قلت لها :

– جئت لأطمئنك عن عادل ، جاءنا خبر من الغوطة انه وسامي بصحة جيدة . ثم رحت احكي لها حكاية الطائرة .

احتضنتني الأم الملهوفة وقبلتني وقالت لي :

– اخبارك حلوة ياجارتنا مثل وجهك الحلو ، سيفرح ابو عادل بهذا الخبر كثيرا .

وعزمت علي ان اجلس لنشرب القهوة . اعتذرت وعدت الى بيتنا .

ماكدت اخلع ملاءتي حتى جاء ابي قبل اذان الظهر على غير عادته .

قال لي ووجهه متجهم :

– اختبئي انت وامك . . معي رجال .

قالت امي :

– ماالذي جاء به الآن ؟ اياك وان تذكري له اننا ذهبنا الى عند خالتك في الميدان . لن نخلص منه ابدا . نظرت من الشباك رأيت رجلين يحملان صناديق ويضعانها في ارض الديار ، ثم دخل ابي عندنا . وقال :

– الحالة متأزمة جدا ، الثوار يهاجمون الدوريات الفرنسية في عز

النهار ، كان الرصاص يتطاير فوق رؤوسنا ، لقد اغلقت المحلات التجارية كلها ، انا ايضا اغلقت دكاني ، وحملت ماستطعت من البضاعة وجئت به الى هنا ، كما اشتريت شيئا من المؤونة ربما لزمنا، الله عليم بما ستفاجئنا به الايام .

تنهدت امي دون ان تنبس بكلمة ، كان كل واحد منا يتحدّث الى نفسه ويخفي اشجانه ووساوسه .

امضينا ليلة امرّ من سابقتها . في الصباح اصدر ابي امره بالايخرج احد منا من البيت . قال راغب :

ـ انا لن اتعدى ياابي حارتنا لاستطلع لكم الاخبار فقط .

واذعن محمود لامر ابيه، بدأت اصوات الرصاص تتناهى الينا منذ الصباح دون توقف . وراغب داخل خارج من البيت الى الحارة يحمل الينا الاخبار .هذه اول مرة اسمع فيها من راغب ثناءا على الثوار .قال :

ـ الحق يقال الثوار يقومون اليوم ببطولة خارقة للغاية . المفوض السامي ، في دمشق يزور قصر العظم ، والثوار يهاجمون القصر والاحياء التي حوله يهجمون على الدبابات يرمونها بالقنابل ، يقولون انّ المفوض السامي خرج من القصر تحرسه فرقة من الجند وتوارى في دبابة تحرسها عدة دبابات واتجه فورا الى لبنان .

وأردف راغب :

ـ رواها لي شاهد عيان،رأى المعركة من مئذنة تشرف على الساحة.

قال ابي :

ـ ياحيف ، ياليتهم قتلوا المفوض السامي او أسروه ، رجل مجنون رمانا ورمى دولته في هذه الورطة . لوانّه تساهل مع الدروز لما نشبت الثورة كلها ، بذمّتي هذه الضحايا التي تقع كلها في رقبته .

لم تطبخ امّي ، ولم نجلس الى مائدة طعام طول اليوم. كان اذا جاع احدنا دخل الى المطبخ وتبلغ بلقمة ما .

بدأت الطائرات تحوم في الجو ثم تبعتها اصوات المدافع والقنابل وكان قد اوشك ان يهبط الظلام . صعدراغب الى السطح وعاد اتوه يقول لنا :

– شيْ لايصدقه العقل ياجماعة . . . القنابل تأتي من المزة ومن قلعة دمشق وتقع في قلب دمشق ، هنا بالقرب منّا ، رأيتها بعيني .

قال محمود :

– ياحوينتك ياشامنا ، الكلاب يخربونك على رؤوس اهلك ! . . .

ماكاد يتم كلامه حتى سمعنا فرقعة في ارض الديار . نظر راغب من الشباك وقال :

– انها شظايا قنبلة وبعض الرصاصات .

قال محمود :

– وجودنا هنا غير معقول قوموا ياجماعة نختبىء في القبو .

قال أبي :

– معك الحق ياابني ، قوموا .

نزلنا الى القبو ، كل واحدمنا يحمل بيده بطانية او معطفا. مددنا بساطا وجلسنا عليه صامتين ، تغيرت سحننا . الذعر والقهر رسما على وجوهنا انطباعات متشابهة .

بكت امي وقالت :

– ياويلي . . . . طار عقلي من رأسي. ابدأ بآية الكرسي ثم اخاطها بقل اعوذ برب الفلق ، ياحبيبي ياسامي اين انت ياولدي ؟ قتيل ، ام جريح ولا من يسعفك ؟

صرخ ابي :

ـ اسكتي يامرة كفانا الله الشر ، يكفينا مافينا ، ناقصنا ندب ؟ اصبحنا كلنا في الخطر سواء .

قال محمود :

ـ والله اذا بيتنا انهدم لدفنا في هذا القبو دون ان يدري بنا احد ومتنا ابشع ميتة . في مثل هذه الحال يكون وضع سامي احسن من وضعنا بكثير ، يموت ميتة محترمة ، يموت في سبيل هدف .

قال ابي متأففاً من حديث الموت :

ـ انت خليك ساكت يامحمود الله يرضى عليك .

اما انا فما كنت اشعر بالخوف ابدا . كنت اشعر بغليان في رأسي وانصداع في قلبي . قلت موجهة كلامي الى راغب :

ـ مااجبننا !...بلدنايهدمويحترقونحن كالجرذانالمختبئة فيجحورها.

قال بنزق :

ـ ماذا تريديننا ان نفعل ؟ نخرمش السماء ؟ تريدون الثورة،هكذا الثورات ، لايأتي منها الا الخراب والدمار تحملوا لنر ! . . .

قلت :

ـ ولكنها لاتعمر حتى تخرب . . . لو هاجم جميع رجال الشام ونساؤها القلعة لاستطاعوا ان يحتلوها ويسكتوا مدافعها .

زورني ابي وقال بلهجة قاطعة :

ـ لاأحب ان اسمع ولاكلمة . قولوا : يالطيف اجعل للبلا تصريف قولوها في سركم ارجوكم .

انقطعت الكهرباء . اصبحنا في ظلام دامس ، ازداد صوت

الانفجارات،التصقت بأمّي ، كنت اسمع تمتمة دعواتها ، وخفقات قلبها المتواصلة.وبقينا على حالتنا تلك حتّى طلع النهار ، ماكان اطولها ساعات .

ماكنا نشعر برطوبة القبو ، لم نأكل ، ولم نشرب شيئا ،لم نذهب ال المرحاض ، ولم ننعس . كان كل واحد منّا كتلة اعصاب متوترة ومنكمشة على بعضها تنتظر الموت الرهيب في كل لحظة . . .

فتحنا باب القبو . دخلت خيوط صفراء باهتة من الشمس.صعد راغب بضع درجات واطل على ارض الديار وقال :

– الحمد لله بيتنا مايزال حتّى الان قائما ، لكن لم يبق فيه على مايبدو لوح زجاج واحد . ضرب المدافع والقنابل والرصاص مايزال كله مستمراً . جاءت الاصوات بعـد أن فتحنـا بابالقبوأكثردوياً . نظرت الى وجه امي ، خيّل اليّ انها تحتضر ، كانت صفراء كالموتى تماما وقد زاغت عيناها وابيضت شفتاها . صعد راغب الدرجفتبعته. صرخ ابي :

– ارجعي يابنت ، والا جاءتك رصاصة او قنبلة فقتلتك فيالحال. قلت :

– لحظة واحدة يابابا .... سأذهب الى المطبخ وبابهلصق بابالقبو . وجدت راغب واقفا لصق الحائط. قال لي :

– لاتقولي لهم انّني خرجت من البيت ، سأطل على الحارة طلّة صغيرة لاتيكم بالاخبار ثم اعود .

دخلت المطبخ ، غليت ابريق شاي ، وضعته في صينية مع الفناجين وجئت بقالبجبنة وبعض الكعك . قال ابي :

ـ الله يصلحك يابنتي تعرضين نفسك للخطر من اجل ان نتسمم كعك وشاي ، هل هذا وقته ؟

قلت :

ـ نشف ريقنا ولم يعد لنا قدرة على التحمل . صببت فنجان شاي لأمي ورحت اسقيها بيدي فانتعشت قليلا ، قال ابي :

ـ شدي حيلك ياام راغب ، اتركيها لله ياشيخة انت مؤمنة لا يصيبنا الا ماقدر الله لنا . ثم تلفت حوله وقال :

ـ اين راغب ؟ اين ذهب هذا المجنون ؟

قلت :

ـ اظنه ذهب الى المرحاض .

اكلنا الكعك والجبن ، وشربنا الشاي على الرغم من اصوات المدافع والقنابل ، وازيز الرصاص .

عاد راغب اصفر الوجه ، وكأن دمه قد نزف كلّه قال وهو يرتجف: اللؤماء . . . ، هدموا الشام ! . . . ، اصبحت خرابة ! . . . ، الضحايا تقدر بعشرات الالوف . اكثر بيوت حارتنا اصبحت خالية يحرسها بضعة رجال من قبضايات الحي ، لاتدري متى سيأتي دورنا ؟ الناس كلهم يلتجئون الى حي المهاجرين تاركين جثث اولادهم وذويهم واموالهم تحت الردم ، وطعما للنيران . مارأيكم ان نلتجيء نحن ايضاً الى المهاجرين قبل ان يضرب حينا ؟ يقولون انّ حي المهاجرين لن يضرب ابدا ، لان الفرنسيين اوعزوا الى السفراء والاجانب ان يلتجئوا اليه .اهل حي المهاجرين قد فتحوا بيوتهم على مصراعيها يأوون اللاجئين من بقية الاحياء ويطعمونهم ماتيسر لديهم قدر المستطاع .

قال ابي :

– لايابني ، في مثل حالنا الان كل واحد مسؤول عن نفسه.اذهب انت واخوك ان شئتما . انا مسؤول عن نفسي وهاتين الحرمتين –ويشير الي و الى امي – لن نخرج من هنا أبدا ، وليحدث لناما يحدث ، اذا جاء اجلنا فما احلى ان نموت في بيتنا وندفن فيه .

قال محمود :

– وانا ايضا لن اخرج من هنا .

قال راغب :

– هل من المعقول ان اترككم هنا واذهب وحدي ولو انني افضل ترك الحي . امّا ان نعيش كلنا او ان نموت كلنا .

وعاد الى مكانه في القبو وتناول كعكة وراح يقضمها بعصبية وصمت .

استمر الضرب كما كان اثناء الليل ، لم نغلق باب القبو ، كأننا اصبحنا حانقين مقهورين اكثر منا خائفين مذعورين . عدنا الى صمتنا ، وفي النفوس نيران تتلظى . من حين لآخر كان احدنا يعلّق بكلمة او كلمتين على الوضع الذي نحن فيه ويتساءل الى متى يستمر ؟ . . او يخرج احدنا الى المطبخ ويأتي بشيء من الطعام يوزعه على الآخرين ، قطعة خبز مع بعض زيتونات ، او قليل من اللبن المصفى ، ثم نعود الى صمتنا الرهيب ، واستسلامنا الذليل .

مضى النهار ببطء عجيب ، وهبط الليل ، ليلة اخرى على هـذا المنوال ؟؟ ! . . .شيء لايطاق . . ، تكاد نفوسنا تزهق لكن على الرغم من اصوات المدافع ودوى القنابل كانت تغتالنا بين حين وآخر غفوة بعد الارهاق الذي عانيناه ، ثم نصحو ونعود اكثر ضيقا وتوترا ممّا كنا عليه .

القصف لم يتوقف لحظة . لم نعد نشعر بالخوف ، كأننا لم نعد نهتم بشيء ، وصلنا الى درجة رهيبة من اللامبـالاة ، صرنا نخرج من القبو ، نذهب الى الحمام، الى المطبخ ، تقع بالقرب منا شظية نتخطاها ببرود ونتم طريقنا ، نغلي القهوة ونشربها على الرغم مما نحن فيه .

في حدود العصر توقف القصف قليلا ثم عاد ، وراح يتوقف ويعود ونحن لاندري مما يجري حولنا .

خرج راغب من البيت في فترة انقطاع القصف،لم يصغ الى اوامر ابيه وتوسلات امه . طالت غيبته حتى بدأ يساورنا القلق . واذ هو يعودليخبرنا أنه سمع ان زعمـاء احياءدمشق يفاوضون الآن الفرنسيين ، وقد رضي الفرنسيون ان يكفوا عن الضرب فيما اذا انسحب الثوار من جميع انحاء دمشق ودفع الاهالي الغرامات من مال وسلاح التي فرضها عليهم الفرنسيون ، وقد ذهبت تلك الوفود نفسها الى الثوار وعرضت عليهم الأمر فوافقوا على الانسحاب . قلت :

– ثوارنا لم ينهزموا اذن . . . . انسحبوا حرصا على مدينتهم الغالية من الدمار ورفقا بأهليهم .

ماكاد يتوقف القصف حتى عاد اهل دمشق الى خرائب بيوتهم ينبشون بين الانقاض والرماد عن جثث ذويهم ، يدفنونهم بصمت وقهر ثم يعودون الى الخرائب لينبشوها ويتحروا عما بقي من ثرواتهم المدفونة فيها .

زقاق سيدي عامود الذي يضم اعرق البيوت واكثرها ثراءا دمر واحترق كله واصبح اسمه مع الاحياء التي تجاوره (الحريقة) ! . . النفائس الدمشقية ، والتحف الاثرية ، شواهد الحضارات العريقة التي

تعاقبت على بلادنا ، وقد ورثها الابناء عن الآباء والاجداد وكانوا يحرصون عليها اشد الحرص ضاعت كلّها ! . . . ذهبت طعما للنار والدمار !

دمشق بعد الكارثة الرهيبة حمامة وديعة تطوي الجناح على الكسر وتظل صامدة بأباء وشموخ . دمشق يابسمة الحزن . ياحمّالة الأسى ! . . . .

سر بقائك الازلي يادمشقنا الغالية هو هذا الصمود في الكوارث والويلات . وماا كثر مامر عليك منها ! . . . ذهب الغزاة والطامعون وظللت انت خالدة على الدهر .

على الرغم من شراسة العدو وبطشه اللاانساني بالمدينة العريقة وسكانها العزل الابرياء ماتزال الثورة في عنفوانها ، الفداء مستمر ، والهامات مرفوعة . . والاقبال على الالتحاق بالثورة بعد الكارثة اشد مما كان قبلها . فداؤك ياوطننا الحبيب الروح والولد والمال . . .

في غمرة الخوف والقلق وانشغال البال حمل الينا أبو عادل الخبّاز خبرا مطمئنا ، جاءته رسالة من الغوطة ، من ابنه عادل تقول ان عادل وسامي خرجا من المعركة الضارية سالمين . استشهد من ثوار حارتنا بضعة رجال . لكن الحارة لم تحزن على أحد منهم كحزنها على ابنها البار أبي عبدو السمكري الذي قيل انّه استشهد أمام قصر العظم بعد أن رمى دبابة بقنبلة يدوية فأعطبها وقتل جنودها .

كان الرجل مقداما شهما ، يردّ اللهفة ، لايعوقه أي عمل ، ما قصده أحد أبناء الحارة بحاجة الا ّلبّاه وأغلق دكانه وقام بما يطلب

منه ، ما كان يحدد أجرا لأتعابه ، يضع ما يعطى له في جيبه دون أن ينظر اليه ، تجده دائما ضاحكا مستبشرا ، كأنّ صغار الحـارة أبناؤه ، وكبارها أهله وذووه . وكان الرجل فقيرا يعول زوجة وأربعة أولاد . وكانت زوجه تعمل غسّالة لاهل الحارة ، كانت توافينا يوم الخميس من كل أسبوع لتغسل غسيلنا ، ثمّ تعين أمّي على تنظيف البيت .

طرق الباب في الصباح الباكر من يوم الخميس . دهشت لمّا فتحته وواجهتني أمّ عبدو ولم يمض على استشهاد زوجها الاّ يومان . عانقتها وبكيت لمّا رأيت شحوبها وهزالها وقلت لها :

ــ أنت حزينة وتعبانة يا أم عبدو ، لن نغسل اليوم ، خذي أجرك وعودي الى بيتك وأولادك .

قالت باصرار :

ــ لا والله العظيم لن أعود ، لا بدّ أن أغسل لكم ، اليوم ميعاد غسيلكم.أنتم غمرتموني بفضلكم ، العمل يسليني يا بنتي ،

ومسحت دموعها بكمها وراحت تنهنه .

ام عبدو هذه لم تعرف الترف في عمرها كلّه ، فكيف تعرف الآن ترف الحزن ! . . . ذهب العائل ، أصبحت تجوع ببطون أولادها الاربعة فليس لديها وقت لتعطي نفسها مداها من الراحة فتظل تجتر حزنها حتّى يندمل الجرح أو يكاد . . .

جلست أمام طشت الغسيل ، شمرت عن ساعديها الاسمرين اللذين نبضت فيهما عروق زرقاء سخينة لكثرة ما بذلت صاحبتهمـا من جهد في حياتها كلها ، راحت تعمل بهمّة كعادتها،تنحدر بين حين وحين دموع سخية على وجنتيها فتمسحها بكمها بحركة آلية وتستمر في العمل . قلت لها :

– سأنشر الغسيل أنا هذه المرة .

قالت :

– كثّر الله خيرك . . . والله لو كان لدي حيل لصعود الدرج الى السطح لما أتعبتك بنشره .

سمعتها وأنا أتناول منها الغسيل لانشره تتمتم وتنظر نحو السماء بطرف كسير وتقول :

– الله لا يوفقه . . .

قلت لها :

– من هذا الذي تدعين عليه بعدم التوفيق يا أم عبدو ؟

توقّفت عن دعك الغسيل ونظرت الي وهي تهز رأسها يمينا وشمالا وقالت :

– الشيخ عبد الغني . . . ظل يوسوس لزوجي حتّى جعله يلتحق بالثورة ، ظلّ يقول له :

– الفرنساوية سينتهكون أعراض نسائنا ، الفرنساوية سيهدمون جوامعنا، الفرنساوية . . . الفرنساوية ، من مات في سبيل الجهاد له قصر في الجنة طوله كذا ، وعرضه كذا ، قولي لي لماذا لم يذهب الشيخ وأولاده الى الثورة وكل واحد منهم قد البغل ؟

هذا هو الذي يفور دمّي ، ذهب زوجي المسكين ، أبو العيال ، كان صاحب نخوة يقول لي :

– أتريدينها لي يا أم عبدو ؟ رفاقي كلهم في الثورة يدافعون عن العرض والوطن وأنا لاطي في دكاني مثل الحريم في بيوتها ؟

ومرة خرج من البيت وقال لي :

– استودعتك الله أنت والاولاد ولم يرجع ! . . . . . ثمّ حملقت الي وقالت بنزق :

– نحن جماعة فقرا ، فقرا ، نركض وراء رغيفنا من الصبح الى المساء ما لنا وللثورة وللسياسة ؟ عن ماذا ندافع ؟ سنظل كما نحن على حالنا هذه لو حكمنـــا الفرنساوي ، أو الحكم الوطني ، أو القرود الزرق .

نظرت اليها مليا استوعب كلامها وأعجب منه ثمّ قلت لها :

– لا ، لا يا أم عبدو ما هذا الكلام ، انت امرأة عاقلة ، الوطن للجميع للفقراء والاغنياء على السواء ، الفرنساوية دخلاء علينا ، جاؤوا ليبتزوا أموالنا ، ويذلونا حتّى يصبح الاغنياء فقراء والفقراء يموتون جوعا أمّا الحكم الوطني فسيهتم بكل فرد من أبناء هذا الوطن ، سيبني المدارس والمستشفيات ، وسيساعد الفقراء ويجد لهم أعمالا ،ويساعدهم على بناء بيوتهم ، ويعمّ الخير والعدل الجميع .

فكرت قليلا ثمّ قالت :

– لا تؤاخذيني يا بنتي ، أنا والله من يوم ما أصابتني هذه المصيبة أصبح عقلي ما هو معي ، أحكي طالع نازل لأفش قلبي . الله يقدم الخير وينصر ثوارنا ويحفظ لكم سامي وجميع الثوار .

وعادت الى دعك الغسيل بهمّة أكبر . بكلمات قليلة اقنعت المرأة البسيطة ، وهي بدورها أقنعتني برأيها دون أن تشعر . ذكر سامي وخزني في قلبي .تذكّرت أحاديثه الطويلة عن العدالة الاجتماعية ، وعن محاربة الفقر والمرض والجهل . ولن أنسى قوله أبدا :

– عندما تستقل بلادنا سنخوض مع أنفسنا حربا أشرس من تلك التي خضناها مع المستعمر . . . .

ويخطر ببالي السوار الثمين الذي أهداني أبي اياه .

أأملك أنا هذه الحلية الثمينة لالبسها في مناسبات قليلة وهناك أطفال يتضورون جوعا لان عائلهم استشهد في سبيل الوطن ؟ . . . وأنظر الى الى أم عبدو الى الهيكل المتداعي أمامي من الحزن والتعب ويقسر نفسه على العمل .

وأجدني أركض الى غرفتي – لعينيك الغاليتين يا أخي الحبيب – افتح درج خزانتي ، اخرج السوار الذي ما يزال في علبته لم ألبسه ، ولم يره أو يسمع به أحد من اخوتي ، اخفيت العلبة في جيبي وعرجت على المطبخ ، رأيت أمّي منهمكة باعداد الطبخ ، اغتنمتها فرصة ، عدت الى أم عبدو التي كانت تغسل في ارض الديار قرب البحرة سألتها :

– ألم يتبرع لك أحد من أهل الحارة يا أم عبدو ؟

قالت :

– بلى ، الله يديم المحسنين ، وكان أبوك أكرم المتبرعين أدامه الله لنا ، تبرّع لي بثلاث ليرات ذهبية . أشار علي مختار حارتنا وهو رجل طيّب كما تعلمين ، ألا أمس هذه التبرعات التي يجمعها هولنا ، ليشتري لنا الغرفة التي نسكنها لتأويني والاولاد . اذا استطعت يا بنتي أن أطعمهم من عرق جبيني ، وما زالوا يا نار قلبي كبب لحم ، يلزمهم فت خبز ، هل أستطيع أن أدفع أجرة الغرفة والشهر وراء الباب ؟ قلت :

– وهل يكفي المبلغ الذي جمع لشراء الغرفة ؟ .

قالت :

ـ يا ايت ! . . . انه لا يكنني شراء نصف غرفة ، الناس أصبحت ضنينة بأموالها ، تحفظ قرشها الابيض ليومها الاسود ، الحق معهم ، نحن في أيام حرب ، في أيام سود ، ولكن المختار يطمنني ، يقول لي : سيأتي الفرج يا أم عبدو من غامض علمه ، طولي بالك .

أخرجت العلبة وفتحتها فلمع السوار في أشعةالشمس . قلتلها :

ـ خذي هذا يا أم عبدو بيعيه وضمّي ثمنه الى التبرعات .

نظرت الى السوار مدهوشة وقالت

ـ لا ، لا ، يا ستي ، يا ضيعانه ، الله يهنيك به ، ان شاء الله تلبسينه وأنت عروس .

قلت :

ـ وطّي صوتك ، هذاحديث بيني وبينك لاأريدأن يدري به أحد .

همست :

ـ والله لن آخذه منك أبدا . أبوك كفّى ووفّى .

قلت :

ـ هذا يخصّني أنا ، ان لم تأخذيه سأتبرع به لغيرك من أسر الشهداء .

قالت :

ـ أنا والله أولى من غيري ، أرملة وأم أيتام ، ولا أملك شيئا . ولكن أخشى أن يحسبوني سارقةله ، واحدةمثلي من أين لها بمثل هذا ؟

قلت :

ـ اذا وقعت في مثل هذا المشكل تعالي اليّ ولا يهمّك . لكن حاذري أن تُغشي .

قالت :

ـ سآخذ معي ابن خالتي هو ابن السوق ويفهم بهذه الامور .

ناولتها العلبة فأخفتها في صدرها وهي تتمتم لي بالدعاء . قلت :

— يا الهي احفظ لي عادل وسامي .

ثمّ ضحكت من نفسي وقلت :

— ما أرخصها رشوة ! . . . لكنها كل ما أملك ، استغفرك اللهم . ليست رشوة ، انها قربان ، ألم تقبل كبش ابراهيم قربانا لابنه اسماعيل ؟ أم من الضروري أن تراق الدماء لتقبل القرابين ؟ ؟ . . .

لم يسألني أحد عن السوار ، لقد ضاع ذكره في غمرة الاحداث الرهيبة التي مررنا بها فيما بعد . الفاجعة التي ألمّت بدمشق أثارت النخوة والحمية في رؤوس كثير من الرجال فراحوا ينضمون الى الثورة بأعداد هائلة من جميع أنحاء سورية تحديا للمستعمر وانتقاما منه ومد جبل الدروز ثوار الغوطة بالرجال والاسلحة التي غنمها من العدو وأسقط في يد الفرنسيين . كانوا يرسلون الى الغوطة الحملة تلو الحملة فتمنى بخسائر فادحة ، وتعود منهزمة .

تمضي شهور تلو شهور . الثوار صامدون ، تراب الوطن يجبل كل يوم بدماء الشهداء .

راح الفرنسيون يؤلفون كتائب جديدة من المرتزقة ، التي عاشت من خيرات هذا الوطن ثم انقلبت على أهله وانضمّت الى العدو . كان هؤلاء المرتزقة أشد ضراوة من جيوش العدو ، بعد أن أباح لهم الفرنسيون قرى الغوطة ، فكانوا يسلبون خيراتها ثم يحرقونها ويمثلون بأهلها .

★ ★ ★

طرق الباب في صباح باكر ، هرعت اليه وقد اعتراني خوف مفاجىء . من عساه يطرق بابنا مع بزوغ الشمس ؟ . . .

فاذا خالتي أم رشيد تطالعني بوجه محتقن ، وعينين حمراوين زائغتين .

قلت لها وقد ازداد خفقان قلبي :

– قولي . . . . . . ما الذي جاء بك ؟ هل أصاب سامي شيء ؟ ؟

احتضنتني وهي تقول :

– البارحة ، البارحة يا نار قلبي عليه استشهد . . .

ثمّ صرخت بصوتها الجهوري

– ويلي عليك يا سامي يا ابن العشرين ، يا بطل ، يا شهيد . . .

وركض أهل البيت جميعهم على صوت صراخها .

ابتعدت عنها واستندت الى حائط الدهليز دون أن أنطق ، أصبت بذهول ، سحبتني خالتي من يدي ، سرت معها الى باحة الدار وكأني مهبولة ، عقلي يرفض أن أصدق ما أسمع منها ، لم أفق من ذهولي إلا على صوت ولولة أمّي ، وقفت أمامها وصرخت بها :

– لا ، لاتولولي ياأمّي ، ابنك سامي شهيد ، الشهداء يزغرد لهم كالعرسان .

ورحت أزغرد أنا التي لم يسبق لي أن زغردت أبداً ، جاء صوتي وكأنّه صوت غير بشري ، كأنّه عواء مسعور .

لم أعد أستطيع التوقّف عن هذا الصراخ النشاز الذي ليس هو ولولة ، ولا زغردة ، ولا بكاء . استمريت فيه ، لا أدري كم ظللت في هذه النوبة الجنونية حتّى خارت قواي ، ولمّا صحوت وجدت حولي نساء يسعفنني .

كانت دارنا قد امتلأت بالناس بمن نعرف ولا نعرف ، كيف

وصل الخبر الى أهل حارتنا كلهم . الى أهل وأصدقاء لنا في أحياء بعيدة كانوا يدخلون علينا باكين كأنهم قد فقدوا عزيزاً .

يا حبيبي يا سامي كم أنت غال على كل من عرفك وعرف مزاياك . . .

ويمر عادل بخاطري فيهلع قلبي ويسقط في هاوية . جفّت دموعي وألجم لساني ، بعد نوبة الصراخ الّتي اعترتني ظللت خرساء ، الكلام كلّه الذي أعرفه لا يستطيع أن يعبر عن جزء من هذا الحزن الذي كان يشتعل فيّ بصمت كالنار الآكلة .

وقع نظري بين الجموع على أم عادل فأدركت أنّ عادللم يستشهد. عندئذ انفجرت باكية ، أخذتني أم عادل في حضنها وراحت تنشج معي .

هذا النهار المشؤوم كان طويلا ، طويلا جدا لا آخر له. قعدت النساء في القاعة ، والرجال في أرض الديار ، وظـلّ بابنا مفتوحا على مصراعيه والناس يتوافدون علينا ويشاركوننا مصابنا غير آبهين للسلطة وجواسيسها المنبثين في كلّ مكان .

هبط الليل ، وانفض الناس عنا ، ولم يبق معنا الاّ الاقرباء الاقربون ، ثمّ راحوا ينسلون من البيت الواحد تلو الآخر حتّى بقينا وحدنا مع خالتي أم رشيد وابنها سليم .

أبي وأمّي شاخا في نهـار واحد . راغب ومحمود يكفكفان دموعهما كطفلين صغيرين ، خالتي أم رشيد لا تقل عنا لوعة ، ولكنها تمالكت نفسها وراحت تعمل ما في وسعها لتخفّف عنّا ما استطاعت . تجبرنا

على تناول كوب من الحليب لسد الرمق ، وأخيرا نجحت في اقناعنا بأن يذهب كلّ واحد منّا الى فراشه .

تمرّ بي لحظات لا أصدق أنّ سامي قد مات حقّا ، أتصور أنّني أمر في حلم مفزع كتلك الاحلام التي كانت تنتابني عندما أنام على صوت المدافع وأزيز الرصاص .

آه يا حبيبي يا عادل كم يخيفني أن تنتهي كما انتهى صديقك ! . .

ما أحوجني الآن اليك لأضع رأسي على كتفك ونبكي معا حبيبنا سامي .

يبدو انّني غفوت قليلا ثمّ صحوت وكأنّ أفعى قدلدغتني . أيسرقني النوم يوم موتك يا أخي الحبيب ؟ . . . لم أعد اطيق التمدد على سريري . . . الآن أدركت ما معنى النوم على جمر الغضا ، وسرير الاشواك . قفزت ونزلت الدرج . تريثت قليلا أمام باب النصية حين سمعت صوت راغب يتحدث بخفوت ، لم أفهم شيئا ، سمعت اسم رشيد يتردد ، دفعت الباب ودخلت ، كانت الغرفة الصغيرة تعبق بدخان السجاير وكان راغب ومحمود قاعدين قبالة سليم الذي كان محتقن الوجه يدخن بعصبية . قلت :

ـ ماذا جرى لرشيد ، قولوا . . . ، ماذا تخفون عنّا ، هل استشهد أيضا ؟

قال سليم :

ـ أعوذ بالله وهل هذا يخفى ؟ لكنه جريح . . . جرح قبل أن يستشهد سامي بأيام قلائل ، وقد حمله اخوانه الثوار الى عمّان ؛ يبدو أن جرحه بليغ ، وقد أرسل الي يطلب مني أن أوافيه الى عمان

في أسرع ما يمكنني ، لانّه في حاجة قصوى الى نقود . وقد أكد علي في رسالته ألاّ أخبر أمّي ، لانها لابد أن تذهب اليه ، وهو لا يريد ازعاجها ، وهي على ما هي عليه من الحزن على سامي.يريدها أن تبقى الى جانبكم . وأنا الآن في حيرة من أمري ، كيف أستطيع أن أسافر دون أن تعرف أمّي ؟ . .

قلت في نفسي .

– كل شيء دون المنية سهل . يا ليت سامي أثخن بالجراح وظل حيّا ! . . .

ثمّ قلت لسليم :

– يمكنك أن تقول لامك انّك ستبقى في بيتكم في الميدان خشية أن ينهب، وتطلب منها أن تبقى معنا لتواسينا ، ولكي تطمئن عليك قل لها ان راغب سينام معك في الميدان وتستطيع أن تذهب الى عمان وتعود دون أن تدري هي بشيء .

قال راغب :

– هذا ما اقترحته عليه ، وهو أحسن حل في نظري ، وسأذهب يا سليم معك الى عمان . لا تفاتح أمّك بشيء.سنأخذ من أبي قدر ما تريد من النقود .

وكانت خالتي أم رشيد تحمل نقودها كلها معها أينما ذهبت ، تصرفها ليرات ذهبية وتضعها في (كمر) تتمنطق به وما تبقى عن (الكمر) تضعه في (جيبة) تربطها على خصرها وتسبل عليها ملابسها فاذا اراد أحد أولادها شيئا من النقود رفعت ثيابها وفكّت (الجيبة) وأعطته ما يريد .

بدأ القلق يساور خالتي حين مضى يومان ولم يعد سليم ولا راغب ،

وأرادت أن تذهب الى بيتها لتتفقدهما ، لان حي الميدان كان يقصف بين حين وآخر أكثر من كل أحياء دمشق .

فتشبثت بها وبكيت وقلت لها :

ـ كيف تستطيعين تركنا وحدنا ولو لساعات ؟ انّ امّي لولاك لماتت حزنا وقهرا ، وبيتنا كما ترين لا يخلو لحظة من الزوار ، ماذا سيقول عنك الناس اذا لم يجدوك بيننا ؟ ؟

قالت :

ـ أخشى أن يتهور هذان المجنونان بعد هذه المصيبة التي ألمّت بنا ، ألا يكفينا واحد من كل أسرة ؟

أدركت أنها تخشى أن يكون راغب وسليم قد التحقا بالثورة فتظاهرت بعدم الفهم وقلت لها :

ـ لابدأن يعودا اليوم أوغدا ، هل المشوار قريب بين بيتنا وبيتكم ؟

اضطرت خـالتي أن تنصاع لكلامي على الـرغم من قلقهـا وانشغال بالها مراعاة للحزن الذي يكاد يقتلني .

مضت تلك الليلة الليلاء . . .

يا ليالي الحزن ما أطولك ، وأشرس عذابك ! . . .

طلع النهار ، أمضيناه أنا ومحمود في هلع وترقب . في حدود العصر طرق الباب ، هرعت اليه فاذا راغب يعود وحده ، وجهه ينم عن معاناة شديدة . سألته عن رشيد فقال :

ـ الحالة سيئة جدا ! . . . زال الخطر عنه لكن بعد أن بترت ساقه اليمنى من فوق الركبة .

شهقت وقلت :

– بترت ساقه ؟ . وأغمضت عيني واسندت رأسي بكفي وتصورت رشيد أمامي بقوامه الفارع يقفز بساق واحدة فكدت أدوخ . أتم راغب حديثه ونحن ما نزال في الدهليز :

– أصابته شظية فهشمت عظم الساق ، حاول الاطباء في الغوطة اسعافه فلم يستطيعوا بأدواتهم البدائية ، كانوا مضطرين أن ينقلوه معهم من مكان لآخر كلما داهمتهم حملات الفرنسيين ، مرة كانوا ينقلونه في طنبر ، مرة على ظهر بغل ، أحيانا يتناوبون حمله على ظهورهم . وحاله تزداد سوءاً . أخيرا نقلوه الى مستشفى في عمان . كان الجرح قد تعفن وبدأ يتسمم جسمه . بتروا ساقه منذ وصل الى المستشفى لينقذوه من الموت ، لقد تحمل من الآلام مالا يوصف . أنت تعرفين رشيد وقدرته على التحمل . هو الآن في حالة نفسية سيئة جدا . يجب أن تذهب خالتي الى عمان ، لانه لا يجوز أن يظل وحده في المستشفى ، المستشفى سيء جدا ، ويكلف كثيرا من النقود . لا نستطيع أن نجيء به الى دمشق.سيلقى القبض عليه ولو انه مريض ومبتور الساق . والمال الذي بقي مع خالتي قليل،لان رشيدصرف أكثره على الثورة.

وفهمت من سليم أن الموسم زفت ، صودرت الغلال من بيادرها ، سرقت المواشي ، حرقت الاحواش ، ولا من يفلح ولا من يزرع .

تداولت الامر مع سليم فوجدنا من الانسب أن نستأجر بيتا صغيرا في عمان ننقله اليه بعد أن تشفى جراحه .

قلت :

غـدا يجب أن تذهب خالتي الى عمان ، سنكتم عنها الأمر ، سنقول لها أن رشيد يريد أن يراها في عمان لان الذهاب الى الغوطة أصبح خطرا جدا ، وهناك ستتلقى المسكينة الخبر الفظيع وحدها .

قال :

— يلعن الثورات وساعتها . . .

ونظر الي متشفيا، فلم أنبس بكلمة .

* * * .

يقولون : كل شيء يبدأ صغيرا ثم يكبر الا الحزن يبدأ كبيرا ثم يصغر .

لكن حزني على سامي يكبر يوما فيوما . بعد أن ذهبت خالتي الى عمان ازدادت حالتي سوءا . كم أتمنى أن أبكي لعلي أجد في البكاء بعض الراحة . دموعي تحجرت في مآقي أو انكفأت الى الداخل ! . . أشعر دائما ان عيني محدقتين الى لاشيء . وأجدني أكز على أسناني حتى أوجعها . كأن الحزن حين يقترن بالقهر و الحقد يصبح شيئا آخر ، شيئا فيه ضراوة ، يفقد تلك الشفافية وذلك الحنان اللذين يعتريان الثكالى والحزانى .

لم أبك الا حين جاءتني نيرمين متشحة بالسواد ، لا أدري كيف وصلها الخبر ، وكيف اهتدت الى بيتنا . تعانقنا وبكينا بصمت دون أن ننطق بكلمة واحدة . هذه الفتاة أصبحت غالية علي جدا بعد ان رأيت وفاءها الكبير لسامي . حين ذهبت رجوتها ألا تنقطع عني . زميلاتي في المدرسة كن يزرنني بين حين وحين ويحاولن التخفيف عني ما استطعن .

بعد مضي أربعين يوما طلبن مني أن أعود الى المدرسة فالاساتذة يسألون عني . يبدو انني كنت تلميذة مرموقة .

حتى قيل لي ان أستاذ العربي كان يسأل عني في كل حصة . لمحت أمي تغمز رفيقاتي وتحرضهن عليّ لأعود الى المدرسة ، لأنها أصبحت تخشى علي من المرض لكثرة ما أصابني من الهزال ، حتى لم أعد أعرف .

وما زلن بي حتى اقنعنني. قلت :

– يلزمني تقرير طبي بعد هذا الغياب الطويل .

قالت احدى الزميلات :

– أنا سآتيك بهذا التقرير ، أبي طبيب ولن يتردد أبدا في كتابة التقرير اذا شرحت له أمرك . غدا سأمرّ عليك ومعي التقرير لنذهب معا الى المدرسة .

هذا العطف الذي ألقاه من جميع الناس يحمل الي شيئا من العزاء . يكفي أن أكون أخت شهيد من شهداء الثورة حتى أجد المساعدة والرعاية ممن أعرف ولا أعرف .

في حصة العربي نظر الي الاستاذ بحنان ، وهز رأسه معبرا عن أسفه الشديد ، يبدو أنه يعرف أخي سامي ، فربما درّسه في بعض الصفوف ، ثم ناداني الى اللوح ، فبدا في عيون رفيقاتي شيء من الاستنكار ، كيف أستطيع أن أجيب عن الاسئلة وأنا في تلك الحالة من الحزن ، وقد فاتني الكثير أثناء غيابي الطويل ؟ . . . طلب مني الاستاذ أن أكتب على اللوح ، وراح يملي علي الآية الكريمة :

« ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل هم أحياء عند ربهم يرزقون » ثمّ قال :

ـ هل فهمت هذه الآية الكريمة يا بنتي ؟

دمّعت عيناي واختنق صوتي بالبكاء فهززت رأسي بالايجاب .

قال :

ـ لو انّك فهمتها تماما لاقتنعت بها وكففت عن البكاء . وخلعته عنك هذا السواد .

وراح يشرح لنا الآية وسبب نزولها شرحا وافيا مع كثير من التفصيل . كان كلامه بردا وسلاما قد نزلا على قلبي . ولمّا انتهى من كلامه طلب مني أن أعود الى مكاني ونادى تلميذة أخرى لتعرب الآية .

الشيء الذي لا أنساه أبدا لأساتذتنا هو اذكاء الروح الوطنية فينا دون أيّ خوف من الفرنسيين وجواسيسهم .

لن أنسى أستاذ التاريخ وكان ضابطا متقاعدا دخل الى صفنا ذات مرة مربدّ الوجه ، جلس خلف المنصة ، صمت لحظة وهو يتفحص وجوهنا واحدة واحدة ثم قال :

ـ اسمعن يا بناتي ، وانتبهن لكلامي ، سأقول لكن اليوم شيئا أهم من الدروس بكثير . تدور الآن اشاعة في البلد مفادها :

انّ الفرنسيين يعزمون على اصدار قرار لتدريس بعض المواد باللغة الفرنسية ، فاذا قبلنا بذلك لا يمضي الاّ القليل حتّى يصدر قرار آخر بجعل التدريس كله باللغة الفرنسية . . .

فايّاكن ثمّ ايّاكن أن تقبلن بذلك ، يجب أن تضربن عن المدرسة

الى ما شاء الله حتى يلغى هذا القرار . والا أصبحنا مثل اخواننا الجزائريين الذين يتقنون اللغة الفرنسية ويجهلون لغة آبائهم وأجدادهم وهذا ما يرمي اليه الاستعمار ليقطع صلتنا بتراثنا وماضينا المجيد .

قال ذلك دون أن يخشى الاذى الذي سيصيبه فيما اذا تسرب كلامه هذا الى الفرنسيين .

أما أستاذ الرياضيات فكان اذا أعطانا مسألة جعلها عن شخصيات مشهورة في تاريخنا لا سيما النسائية منها ليذكي فينا روح الحماسة .

يقول مثلا : اشترت خولة بنت الازور كذا وباعت كذا ، أتعرفن من هي هذه خولة بنت الازور ؟ ويروح يحدثنا عن خولة وشجاعتها وبطولتها . أو يقول لنا :

أخذت نسيبة بنت كعب حصتها من الفيء يوم معركة أحد فوزعت ثلثه على أسر شهداء المعركة والربع على فقراء المدينة المنورة ، والخمس على المحتاجين من أهل الذمة . فكم بقي لها ؟ ثم يردف :

— أتعرفن من هي نسيبة بنت كعب هذه ؟ ويروح يحدثنا عن بطولة نسيبة وشجاعتها ثم يقول :

— ليست وظيفتي على ما أعتقد أن أعلمكن الرياضيات فحسب ، انما وظيفتي أن أربيكن تربية قومية ، أن أجعل كل واحدة منكن داعية لامتها وقوميتها العربية . المرأة يا بناتي هي التي تصنع الرجال .

* * *

اليوم وردتني رسالة من عادل ، حملتها الي أخته ، ظلت تنتظرني أمام باب بيتنا ، فلما خرجت لأذهب الى المدرسة تبعتني حتى تجاوزنا حارتنا ثم استوقفتني وناولتني مظروفا وقالت :

ـ هذه رسالة من عادل بعث بها اليك من الغوطة .

ألجمتني المفاجأة ، تناولت منها الرسالة ووضعتها بين كتبي دون أن أنطق ، وتابعت طريقي وقد غمرني شعور مبهم . هل أنا مبتهجة بالرسالة أم مقهورة ؟ حزينة أم فرحة ؟ كان جسمي يرتجف كله . . . . أتساءل بأي كلمات سيعبر لي عادل عن الفجيعة التي ألمت بي وبه على السواء ؟ ! . . . . .

كم أنا متلهفة على قراءة الرسالة . . . . لن يتسنى لي ذلك إلا في فرصة الظهيرة ، توالت الحصص فلم أفهم مما قاله الاساتذة شيئا . كنت أتوارى خلف زميلاتي وأفتح كتابي بين حين وحين وأنظر الى الرسالة أو ألمسها بيدي فتسري بي رعشة كأنني المس يد عادل . في فرصة الظهيرة انتحيت ناحية بعيدة من الحديقة وفتحت الرسالة ، انهمرت دموعي منذ أن وقع نظري على أول كلمة. لقد شاء القدر أن تكون أول رسالة أتلقاها من الحبيب رسالة تعزية يقول لي فيما يقول :

انّ مرآى عينيك الحزينتين لا يفارقني أبداً ، يعذبني في كل لحظة ، يجعلني أحارب العدو بشراسة وتهور يثيران عليّ غضب الزملاء ، أريد أن أثأر لشهيدنا الغالي . أريد أن أشفي قلبك المجروح ، أنا أتعذب يا حبيبتي ، أشعر أنني مسؤول عنك أمام سامي ، أتساءل كيف استطيع أن أمسح الحزن عن عينيك وأعيد اليهما ألقهما الذكي ؟ أرقني السؤال ليالي طويلة ، كيف استطيع ذلك وكل مسامة في جسدي أنا تنزف حزنا ؟ كنت أهجر مرقدي وأهيم على وجهي بين أشجار الغوطة . تراءى لي طيف سامي غاضبا ، قال لي يوبخني : أنسيت ؟ . . يوم التحقنا بالثورة وضعنا الشهادة نصب أعيننا فما معنى الحزن الآن ؟ ولم هذا التخاذل وهذا الضعف ؟

عندئذ ايقنت أن سامي لم يمت ، ولن يموت ابداً ، سيظل حيا في قلوبنا ، في حدقات عيوننا ، في تلافيف أذهاننا ، وكلما رددنا كلامه عن البذل والفداء سنشعر ببرد العزاء .

وطويت الرسالة وأخفيتها في صدري . كنت لا أشبع من قراءتها ولو أنني حفظتها عن ظهر قلب .

كانت تسربت الينا قصائد شوقي ، وخير الدين الزركلي عن الثورة وفاجعة دمشق فكنا نتداولها فيما بيننا ونحفظها ونرددها ونترنم بها .

إقترب الفحص . رفيقاتي يشجعنني على دخوله ، ويعرنني كراريسهن لأدرس فيها ، لانّ أكثر المواد آنذاك لم يكن لها كتب مطبوعة .

كان الاستاذ يملي علينا الدرس ونحن نكتب ما يملي لنعود الى تلك الامالي حين نريد المذاكرة أو التحضير للفحص .

كنت لا أستوعب مماّ أقرأ الاّ القليل ، وكيف أستطيع أن أستوعب وأصوات الرصاص والقنابل لا تهدأ طول الليل ، وأفكاري دائما مشغولة بعادل ؟

يبدو انّ الفرحة ماتت في قلبي فلم يعد يهزني شيء حتّى نجاحي غير المنتظر في الفحص لم يحرك في شيئا .

ابتدأت العطلة الصيفية وكنت أخشاها سلفا لانّني أعرف في أية كآبة سوداء سأمضيها . كان الرواح الى المدرسة كل يوم ، والحديث مع الزميلات عن الدراسة والاساتذة وأخبار الثورة والثوار يسليني ويخفّف عني . الشيء الوحيد الذي كنت آمل أن يعوض عليّ هو زيارة نيرمين لي أثناء العطلة .

لا أدري لماذا انقطعت عني فترة طويلة ، ولم أحب أن أبادرها الزيارة خشية أن أثقل عليها . وذات مرة فاجأتني بزيارة على غير انتظار مني . كان لدى أمتي ضيوف فلم أحب أن نجلس معهن . أخذت نيرمين الى غرفتي وجلسنا على حافة السرير ، لاحظت أن لدى نيرمين شيئا تريد أن تفضي به الي ولكنها تتردد قبل أن تنطق به .

قلت لها :

— مالك يانيرمين ؟اشعر انك على غير عادتك .

فوضعت يدها على وجهها وانفجرت باكية . فرحت اهدهدها وألاطفها حتى هدأت قليلا ثم قالت :

— اتدرين اني لم ادخل الفحص؟لقدخسرت السنةوانقطعت عن الدراسة.

قلت مدهوشة : ولماذا ؟

قالت :

— يوم فاجعة دمشق احترقت جميع املاكنا التي كنا نعيش من وارداتها ونبعث الى اخي مصروفه في فرنسا ليتم دراسته ، ولم نكن قد ادخرنا شيئا ، كنا نصرف مايرد الينا كله . اضطررناان نبيع حلينا انا وامي لندفع ايجار البيت الذي نسكنه . ولما حان الفحص لم استطع دفع قسط المدرسة كاملا ، وكان قانون مدرستنا لايبيح للتلميذات اللواتي لم يسددن اقساطهن دخول الفحص .

ذهبت الى المديرة يوم الفحص بالذات وشرحت لها مشكلتي ورجوتها ان تمهلني قليلاً لأ دبر لها القسط .لم يخطر لي ابدا انها سترفض طلبي ، اجابتني بوجه جامد كأنه قد قد من خشب انها لاتستطيع خرق القانون.

خرجت من لدنها باكية مقهورة ، مجروحة الكرامة ، وآليت

على نفسي الا ادير وجهي نحو هذه المدرسة التي امضيت بها عشر سنوات وكنت من تلميذاتها المرموقات .

قلت :

— يالك من حمقاء ! . . انفرطين بسنة كاملة من اجل القسط ؟ . . لماذا لم تأتي الي كنت دبرت لك القسط .

فقالت :

— حصل ذلك يوم الفحص بالذات ، كان بامكاني ان استدين من رفيقاتي لكن اصبت بيأس وقرف ، وقلت في نفسي :

— اذا دبرت القسط هذه السنة كيف أدبره السنة الآتية ؟ . . .

قلت :

— السنة الآتية يخلق الله مالاتعلمون .

قالت :

— صدقيني انا لست آسفة كما تتصورين ، بعد موت مامي استوت لدي الامور ، ولم اعد آسف على شيء ابدا ! . . .

انصرفت نيرمين بعد ان تركت في قلبي لوعة . . .

ما اكثر اللوعات في قلبي ، كيفما تلفت لا أجد امامي الا المآسي والنكبات ! .

* * *

قال ابي وهو يدفىء يديه فوق المنقل :

— الاخبار اليوم طيبة ، معركة الميدان كانت رائعة جدا . يقال ان الفرنسيين خسروا فيها خمسين قتيلا ، ولم يستشهد من الثوار الا القليل .

قال محمود :

— ثلاثة فقط بينهم زعيم كبير .

قال ابي :

ــ شيء لم نكن نحلم به ابدا ، من كان يصدق ان سورية تستطيع ان تصمد امام فرنسا سنة وبعض السنة وتكبدها هذه الخسائر الكبيرة في الارواح والعتاد .

قال محمود :

ــ معركة الميدان لاتذكر امام معركة يلدا وببيلا ، ومعركة جوبر وغيرها من معارك الغوطة . كانت خسائر الفرنسيين هناك تقدر بالمئات .

تنهد ابي من اعماقه ، وعلت جبينه سحابة حزن وراح يعبث بالجمرات وينقلها بالملقط من مكان لآخر . فهمت ماكان يدور في ذهنه ، فاجأته ذكرى سامي ، كان يتمنى لو امتد العمر بابنه ليرى هذا النصر الذي كان يتلهف عليه . نظرت الى أمي فرأيتها تمسح دمعة بصمت .

تململ راغب وقال :

ــ لكن في معركة جباتا الخشب فقدنا خيرة ثوارنا ، اكثرهم كانوا من الشباب المثقف ولم يتورع الفرنسيون من عرض جثة قائد المعركة ذللك الزعيم الشهم في ساحه الشهداء .

قال ابي :

ــ هذا الاستفزاز سيعود عليهم بالويل . من لم يلتحق بالثورة او كان متردداً سيلتحق بها حتما . يسرني جداً حين يقع الفرنسيون في مثل هذه الحماقات .

قال راغب :

ــ ماالفائدة ياابي مادام الفرنسيون باقين على عنادهم مهما تكبدوا من الخسائر ، لايقبلون بالمفاوضات الا اذا استسلم الثوار بلا قيد ولاشرط .

قال ابي بنزق :

ــ فشروا . . . هذه طويلة عليهم . واذا لم يفوا بوعودهم أتذهب دماء شهدائنا هدرا ؟ !

تحول راغب وقال :

— ماالعمل ؟ . . . لقد ألف الوطنيون المعتدلون الوفود في داخل سورية وخارجها ، وذهبت هذه الوفود الى المفوض السامي في بيروت والى باريز وجنيف حيث عصبة الامم لتقدمشكواهاو اقتراحاتها وتضع الحلول المعقولة ولامن يسمع ، ولامن يفهم .

غاية ما هنالك كلما تأزمت الامور يبدل الفرنسيون مفوضهم السامي ويأتون بآخر ليدرس الوضع من جديد . انت تعلم ، بعد ان سحبوا مفوضهم السامي العسكري الذي هدم دمشق بالقنابل ، ورمى دولته بفضيحة عالمية ضج منها الشعب الفرنسي نفسه . جاؤونا بواحد مدني ، كان هذا سياسيا محنكا، بارعا في اللفّ والدوران ، اذكر انك كنت تقول عنه : ليس اشطر منه في اصدار البيانات والتصريحات المليئة بالوعود الكاذبة ، وكلهـــا كانت تنتهي الى طريق مسدود : الاستسلام بلا قيدولا شرط . الحرب لمن يريد الحرب . والسلم لمن يريد السلم .

قال ابي :

— لقد فشل فشلاً ذريعاً ، ولم تستفد دولته من براعته السياسية شيئا .

قال راغب :

— كان لابد له ان يفشل لان الثورة كانت في عنفوانها ، ولم يبال الثوار بتهديده . استعادته دولته ، وبعثت لنا بمفوض مدني ايضا . كان هذا على نقيض سلفه ، يسمع ولايقول شيئا ، لايصدر بيانا ولا يدلي بتصريح ، لقد مضى عليه شهور وهو يدرس الوضع دون ان يفوه بكلمة واحدة .

قال محمود :

– نحن نلقبه في المدرسة بالأخرس .

قال راغب :

– هذا داهية ، افظع من سلفه ، يريد ان يكسب الوقت ، يريد ان يجعل من الوقت سلاحا ماضيا للقضاء على الثورة .

قال ابي :

– سنظل صامدين باذن الله حتى ننال حقوقنا .

قال راغب :

– ياليتنا نستطيع ذلك ! . . . انت نفسك ياابي هل تستطيع ان تتبرع للثورة هذا العام كما تبرعت لها في العام الماضي ؟

قال ابي بعد ان صمت قليلا وهو يفكر ويفرك جبينه بيده :

– لا والله ياابني لااستطيع . . . قد يمضي الاسبوع والاسبوعان ولا استفتح بقرش واحد ، واذا استمر الحال على هـذا المنوال سنة اخرى سيعلن افلاسي لامحالة .

قال راغب :

– مثلك كثيرون . . . كذلك الفلاحون الذين احتضنوا الثورة وغذوها بالمال والرجال والمحصولات لن يستطيعوا الاستمرار ، لقد نفدت مدخراتهم ، ومن يستطيع ان يفلح ويزرع تحت قصف القنابل ؟ أليس اشرف لنا ان نرضى بالواقع مهما كان مراً بمحض ارادتنا ، من ان نرضى به غصباً عنا ؟

شعرت بضيق شديد ، انسحبت من الديوان وراغب مايزال يتحدث ويأسف على هدر الدماء بلاطائل ، صعدت الى غرفتي تمددت على سريري في الظلمة ، شعرت ان الحزن يطفح من قلبي ويسيل حتى يملأ الغرفة كلها ، غيمة دكناء حجبت النجوم التي كانت تطل علي من الشباك فعم الغرفة ظلام دامس .

اين انت ياعادل ؟. . . منذ اسبوع لم ار اختك ، ولم اعرف عنك شيئا . . . . ماأحوجني الان اليك لاعرف رأيك فيما يقوله راغب . امازلت تقول : كلما ازداد الخطر ارتفعت ارادة التضحية ؟ . . . لكن ما جدوى التضحية بلا فائدة ؟

الذي يغيظني حتى اكاد انفجر غيظا هو ان كلام راغب يبدو لي صحيحا ! . . ان تردي الحالة الاقتصادية في بلدنا ليس في صالح الثورة ابداً ، لان الثورة لم تتلق مساعدات من الخارج ، كانت تعيش على تبرعات ابناء الوطن.لم يسبق لي ان رأيت الفقر ماثلا في طرقاتنا واحيائنا كما اراه هذه الآونة .

انا لم اع مجاعة الحرب العالمية الاولى التي كان اهلنا يحدثوننا عن اهوالها ، انما وعيت الانتعاشة التي جاءت بعد الحرب مباشرة .

لذا كانت مناظر الفقر غير المألوفة لدى ، تؤلمني ، وتدهشني كثيرا .
منذ يومين رأيت في طريق الصالحيةمشهداً لن انساه ابدا : فلاح كهل باسمال بالية يقود فتاتين صغيرتين هزيلتين ، كان كلما راى امرأة بادية النعمة استوقفها وقال لها :

-- هل تريدين خادمة ياأختي؟ خذي هذه البنت ، خذيها بلقمتها الله وكيلك لاأريا منك شيئاً . لك الثواب عندالله .

فتنحيه المرأة عنها وتتابع طريقها . من يدرى قد تكون هي ايضا

في ضائقة . . ويبدو اليأس في عيني الاب ، والخوف والهلع في أعين الصغيرتين وتتابعان سيرهما وراء ابيهما دون ان تنبسا . كأنهما تخشيان المصير المجهول الذي ينتظرهما .

حقا ان الفقر لكافر .

وكم كان يحز في قلبي عندما كنت ارى كل يوم اثناء رواحي الى المدرسة اعداداً كبيرة من العمال تقف جماعات جماعـات بين حيي الشهداء وعرنوس عاطلين عن العمل، ترتسم على وجوههم علائم اليأس والقنوط ، يتمنى كل واحد منهم ان يكلف بأي عمل ليقوم به بأي اجر لسد الرمق فقط .

لا شك عندي ان هؤلاء الرجال الاشداء كانوا يتمنون أن يلتحقوا بالثورة لو وجد من يعول اسرهم ، ويدبر لهم السلاح . ولكن اين السلاح ؟

يقال ان مشط الفشك الواحد ارتفع سعره الى نصف (مجيدي) ولم تعد الناس بعد هذه الضائقة تتبرع بسخاء كما كانت في الماضي ، مما جعل الثوار يفرضون التبرعات على الاثرياء من الناس ، واحيانا كانوا يخطفون احد افراد الاسرة المتهاونة في الدفع ولايعيدونه الا اذا قبضوا المبلغ المفروض على اسرته .

اليوم بالذات رأيت من شباك غرفتي فلاحا يقود حمارا حمل عليه حملاصغيرا من الحطب ، كان يتبع الحمار عملاقان ، كل واحد منهما يركن على كتفه بلطة لتكسير الحطب ، يأمـلان ان يبيع الفلاح حطبه ليعملا في تكسيره .

احد المارة استوقف الفلاح وراح يساومه :

– بكم تبيع هذا الحمل الصغير ؟

– بليرة ياافندي .

– ليرة يالطيف هل هو من خشب الصندل ؟ ماهذا الغلاء ؟

– لايااخي ، هذا خشب زيتون ناشف يولع بكبريتة.فشر خشب الصندل .

ضحك الرجل وقال :

– ياسلام على معرفتك بخشب الصندل . . . هذا الحمل الصغير لايساوي اكثر من نصف ليرة .

– الله يعطيك .

– بستين قرش بعت ؟

– والله اقل من خمسة وسبعين بقرش واحد لاابيع .

– اشتريت من اجل خاطرك ، وخاطر حمارك العجوز المسكين .

كان احد العملاقين يتابع المساومة وكأن رقبته قد ركبت على لولب يلتفت من الرجل المساوم الى الفلاح ، ومن الفلاح الى الرجل المساوم . لكم خشيت اذالمتتم الصفقة أن يهوي هذا الرجل البائس الذي فقد صبره ببلطته على عنق احد الرجلين.بمثل هذه الحال كيف نستطيع الاستمرار بالثورة ؟ ؟ ؟

اقولها وقلبي ينزف دما ! . . . .

لم نعد نسمع أصوات الرصاص الا من عمق سحيق . الحملات تتوالى على الغوطة ، والفرنسيون يأتون بافواج جديدة من جيوشهم التي سحبوها من المغرب بعد أن قضوا على ثورة الامير عبد الكريم

الخطابي . عندما نرى جنودهم يخطرون على ارضنا نكاد نموت قهرا وغيظا .

هلّ الربيع ، كان يبدو لي باهتا ، لم اعد أستمتع برؤية ازهار البنفشة تنحدر كالشلالات على جدران بيتنا ، أو يهزني نغم حنون ينبعث من فنوغراف الجيران ، السعادة تتفجر من داخلنا ، ثم تلون الاشياء من حولنا .

نفوسنا كئيبة ، تطغي الكآبة حتى على ربيع شامنا الاخضر .

اصبح من العسير جداً على الثوار مهاجمة مخافر دمشق او المحيطة بها لكثرة التحصينات التي اقيمت حول هذه المخافر.

كانت آخر المعارك التي وقعت في الغوطة هي معركة عين السويس في قرية عين ترما . يومها قال راغب لأبي :

– اليوم استطاع الثوار ان يثأروا لمعركة جباتا الخشب ثأرا شافيا ولو استشهد منهم الكثير. لقد قتلوا من جنود الفرنسيين اعدادا لاتحصى ، كذلك من المرتزقة حتى يقال ان عددا من ضباطهم وزعمائهم الكبار قتلوا ايضا في هذه المعركة .

رفع ابي يديه الى السماء وقال :

– اللهم قوي ثوارنا ، وانصرهم على اعدائنا ، انك السميع المجيب .

بعد هذه المعركة الضارية فر اكثر الثوار الى الاردن او الى المرج او تواروا في اقاصي الغوطة خشية الحملات الانتقامية الشرسة التي كان يجردها الفرنسيون على الغوطة عقب كل معركة يفوز بها الثوار .

ذات يوم جاءنا سليم فجأة بعد غياب طويل في الاردن .

تحلقنا حوله نسأله بلهفة عن اخبار خالتي وصحة رشيد . وهو يجيبنا باقتضاب ، يبدو عليه التعب والكآبة . ثم قال :

– لقد جئت بمهمة صعبة علي جدا . . .
صمت قليلا ثم اردف بعد تردد :

– لقد استطعنا اخيراً ان نقنع رشيد بالاستسلام .. . جئت لأقوم بالاجراءات اللازمة . لان رشيد حكم عليه بالاعدام غيابيا، ويحتاج استسلامه الى اصدار عفو خاص من المحكمة العسكرية قبل عودته .

قال ابي ، والقهر باد عليه :

– لاحول ولاقوة الابالله العلي العظيم . استسلام رشيد يا ابني امر ضروري بعد المصيبة التي ألمت به .ماالفائدة من وجودكم في عمان بعيدا عن دمشق ، وتعطيل اشغالكم خلال هذه المدة الطويلة ؟

قال راغب :

– هل رشيد وحده الذي يستسلم ؟ كل يوم يستسلم عدد كبير من الثوار بعد فشل الثورة .

إنتفض سليم محملقاً بغيظ وقال :

– لايا راغب . . اذا كانت الثورة لم تنجح النجاح الذي كنا نأمله بالنسبة للتضحيات التي بذلت في سبيلها ، فهي لم تفشل

أيضا . لقد أدرك الفرنسيون انّنا شعب يرفض العبودية، ولن يخضع للضيم أبدا ، فاذا لم يفوا بوعودهم ستشتعل الثورة مرة أخرى .

أنا حضرت اجتماعات زعماء الثوار ، كان أكثرها يعقد في بيتنا في عمّان من أجل رشيد . ما زال أكثرهم يرفض الاستسلام ، وسيلتجيء الى البلاد العربية المجاورة ريثما تتضح نوايا الفرنسيين ، وقد اتّفقوا أن يشعلوا الثورة مرة أخرى اذا لزم الامر .

زعيم الثورة الدرزية رفض الاستسلام ، قرّر أن يعتصم مع فئة من رجاله في قرية صحراوية على الحدود. الذين سيستسلمون سيقومون بنضال سلمي يدعون الى الاضرابات والمظاهرات اذا لم يحقّق الفرنسيون وعودهم ..

وهكذا ترى أنّ الثورة لم تخفق كما تعتقد .

صمت راغب على مضض وقد بدا في عينيه انّه لم يقتنع ، ولكنّه لم يحب أن يجادل في موضوع بالغ الحساسية بالنسبة الى الحاضرين جميعهم.

كلام ابن خالتي سليم خفّف عنّي كثيرا وأنعش آمالي بعد أن كاد يتملكني اليأس . أصبحت أتمنى أن يستسلم عادل في أسرع ما يمكن بعد أن أيقنت انّه ليس في الاستسلام مذلة يأباها عادل .

بعد زيارة سليم لنا بأيّام قلائل ذهبنا كلنا الى الميدان لنستقبل رشيد . دهشت ، وتملكني فرح كبير حين رأيت جميع أهل حي الميدان خرجوا لاستقبال رشيد ، وقد زينوا حارته بالسجاد العجمي

وأغصان الاشجار ، واللوحات القرآنية التي تمجّد الجهاد . استقبلوه بعراضة ، وحملوه على الاكتاف حتّى أدخلوه البيت ، ووضعوه في صدر الليوان ، وكان الشباب يرددون :

رشيد آغا يا عزنا بسيوفنا نفلفل رزنا

ثمّ فئة أخرى تردد :

ميداني شاغوري اخوان ضد البغي ، ضد العدوان .

وظلّ الناس يتوافدون على الدار للسلام على رشيد حتّى صلاة العشاء.

كانت الاحياء كلها تستقبل ثوارها العائدين بالعراضات والاهازيج ممّا يؤكد ان الشعب يرفض الاعتراف بفشل الثورة ، وكان الفرنسيون يتغاضون عن هذا التحدي ريثما تمر هذه الفترة العصيبة ، فترة الاستسلام .

بعد أن خلا البيت من الرجال الاغراب دخلت النساء من الاهل والاقرباء للسلام على رشيد . عانق أمّي وجالت في عينيه دموع أبى عليها أن تسيل . ثم راح يربت على كتفي بحنان ويتمتم بكلمات لعلها أبلغ تعزية سمعتها قال :

– انّي أغبط سامي ، استشهد والثورة في قمّة عنفوانها ، رحل عنا وكلّه أمل بالنصر ، ليس مثلي.أنا استسلمت . . . وينظر الى رجله المبتورة وينكس رأسه ويعض على شفته ليستعين على بلع دموعه . واغرورقت عيوننا بالدموع فمسحناها قبل أن تنحدر تلافياً للحرج .

* * *

قال أبي ونحن نتناول قهوة الصباح في الليوان حيث كان يجتمع شملنا صباح يوم الجمعة :

– أبو عادل الخبّاز رجل معدّل ، صاحب وجدان وشهامة ، ويعرف الاصول . اليوم سيستسلم ابنه عادل كما قيل لي ، وقد أحب

أهل الحي أن يقيموا له الزينات ، ويستقبلوه بعراضة كما تستقبل الاحياء كلها ثوارها العائدين . لكن أبا عادل منعهم باصرار مراعاة لشعورنا . وقال لهم انه يعرف تماما انّ ابنه عادل لن يكون راضيا عن مظاهر الفرح هذه وقد استشهد في الثورة صديقه سامي صديق العمر ، ورفيق الجهاد ، والتفت أبي الى راغب ومحمود وقال لهما :

– يجب أن نذهب للسلام عليه اليوم بعد صلاة المغرب .

شعرت وأنا أستمع الى أبي انّ دمي كله قد صعد الى رأسي ووجنتي .

يا فرحة القلب الملتاع بعد سنين العذاب الطويلة الّتي قضيتها في الحزن واللوعة ، اليأس والامل ، اللهفة والهلع ، القلق العاصف ، والتوتر المستمر .

– كيف سيمر عليّ هذا اليوم ؟ . . . . ألست أنا أولى من الجميع بالسلام عليه ؟ ؟ . . .

كلما اقترب اللقاء نفد الصبر واستعرت نيران الاشواق . . . الامر الذي يقلقني ويعذبني كيف سألتقي بعادل ؟

أمّي لن تقبل أن نذهب لتهنئة أسرته لاننا لم نخلع بعد ألبسة الحداد على الرغم من انّه قد مضى أكثر من سنة ونصف على استشهاد سامي، لابد لي من لقاء عادل غدا ولو قطع رأسي في هذا السبيل .

صباح الغد سأذهب اليه قبل ذهابي الى المدرسة . أهله يعرفون ما بيننا. كان يرسل اليّ الرسائل بواسطتهم ، وكانت أخته تحمل اليّ أخباره ، وتحياته فلن يفاجأوا بزيارتي أبدا .

مضى الليل ولم أنم الاّ قليلا ، أرقني التفكير بعادل ، كنت أتخيلى لقاءنا كيف سيكون ؟ . . . ماذا سأقول له ، وماذا سيقول لي ؟ . . . وحين يسرقني النوم كانت تنتابني أحلام حلوة ، وأخرى مروعة . ما أبطأسير الزمن . . . منذ انأشرقتالشمس قمت من سريريوارتديت ملابسي ولبثت أنتظر ، أتفقّد الساعـــة في كلّ لحظة .

قالت لي أمّي :

– ما لك اليوم ؟ لمَ تذهبين الى المدرسة مبكرة قبل ميعادك ؟ . .

قلت لها :

– نسيت كتاب الافرنسي في المدرسة.سأذهب قبل الميعاد لأدرس فيه ، والاّ عاقبتني معلمة الفرنسي وهي شديدة جدا لا تقبل منّا أيّ عذر .

انطلت الحيلة على أمّي . خرجت من البيت قبل أن ينزل أبي وأخواي من غرفهم . كنت أدرك أنّي أقوم بمغامرة خطرة لكن لن أتراجع عنها أبدا. منذ ان خطوت نحو بيت أهل عادل راح قلبي يخفق بشدة حتّى كنت أسمع صوت خفقانه باذني . هاجس يؤكّد لي انّ عادل نفسه سيفتح لي الباب . . . كان ما توقعته . . .

شهق عادل حين رفعت حجابي والتقت نظراتنا .

سحبني من يدي . أغلق الباب . اعتم الدهليز الطويل . اخذني بين ذراعيه . ضمني الى صدره بكل ما لديه من لهفة وتوق . دفنت رأسي في عنقه . رحت أتشمّم رائحته الحلوة . كنت أنتفض بين ذراعيه ، أشعر انّ دمي كلّه يغلي في جسمي ، يجعلني أترنح كالسكرى بحميا

هذا اللقاء . كنّا كطفلين صغيرين غمرهما فرح مفاجيء أكبر من طاقتهما .

نبتعد عن بعضنا قليلا لأتفرس في وجهه ، ويتفرس في وجهي ثم نعود الى عناقنا دون أن ننطق بكلمة .

يا لحظة العمر المعذب ما كان أقصرك ! . . .

طرق الباب فانفصلنا الواحد عن الآخر في لمحة ونحن في عز نشوتنا . اتجه عادل نحو الباب ليفتحه . وأرخيت حجابي واتّجهت الى أسفل الدهليز وعاودت الرجوع قبل أن يفتح الباب لأوهم القادمين انّني آتية من داخل الدار .

فتح عادل الباب ، فاذا بعض الشباب من الاحياء المجاورة عرفت بينهم رفاقا لسامي جاؤوا لتهنئة عادل بسلامة العودة قبل ذهابهم الى أشغالهم ، فسحوا لي الطريق ، مررت من بينهم دون أن يعرفني أحد — انّ للحجاب مزايا في بعض الاحيان — .

سرت متمهلة نحو مدرستي . . ما أروع هذا الصباح ! . . .

الجو صاف مشرق . السماء داكنة الزرقة توشيها غيوم شفافة أراها على الرغم من حجابي الكثيف ، نسمات ندية تتلاعب بحجابي تجد فيه منفذا فتداعب وجهي ، أسراب السنونو تعلو وتهبط وتحط على أسلاك الكهرباء صفا واحدا .

أين كان مخبوءاً هذا الجمال كلّه ؟ . . .. كلّما تخيلتني بين ذراعيه اعترتني رعشة لذيذة . أتساءل أفي حلم أنا أم في يقظة ؟ الى متى سنظل في هذا الحرمان ؟ نسرق اللحظات التي من حقنا أن نستمتع

بها ، نعيش في جو من الخوف ، نمارس الكذب لنفوز بلقاء خاطف لا يشفي الغليل .

أيطالب أهل بلادي بالحرية ، ويعجزون عن منحها بعضهم بعضا ؟ ! نصف الامة يرسف في قيود خلقتموها أنتم أيها الرجال . هنا يكمن الغلط الذي نأبى أن نعترف به .

حين أمزق هذا الحجاب الذي يكاد يخنقني ، أستمتع بالضياء والهواء ، أخرج من البيت كما يخرج منه أخواي ، فلا يسألني أحد الى أين ؟ فاضطر أن أكذب واختلق الحيل ، يوم آتي أهلي فأقول لهم لقد تعرفت على عادل ابن أبي سعيد الخبّاز فأعجبت به ، وأعجب بي واتّفقنا على الزواج بعد أن ننهي دراستنا فيباركوا لي ويهنئوني على حسن اختياري .

حينئذ نصبح أصحاء حقا ، جديرين بالحريّة التي ننشدها الآن دون جدوى .

وصلت الى المدرسة ، كنت أولى القادمات ، ابتسمت للبواب أبي مظهر ابتسامة ود ، ومنحته ما كان معي من نقود قليلة . ضحك وقال لي :

ـ صباحك مبارك بألف صلاة على النبي .

أنا سعيدة . . . وأود لو أستطيع أن أمنح السعادة لكل الناس . . . رحت أتمشّى بين شجيرات المرجان الزاهية الخضرة ، والتي تشكل ممرات منفصلة عن بعضها في مدخل باحة المدرسة .

بي رغبة ملحة في ان أتحدث عن حلاوة لقائي بعادل ، عن الشعور الجنوني الذي اعتراني وأنا بين ذراعيه . ولكن الى من أتحدث ؟ حقا

انّ لي صديقات كثيرات لكن ليس بينهن واحدة تربطني بها رابطة صميمية تجعلني أثق بها فلا أخشى على سري أن يفتضح .

خير لي أن أكتفي بالحديث الى نفسي .

مرت حصص الدروس ، فهمت قليلا ممّا قاله الاساتذة ، وشرد ذهني عن أكثره . عدت الى البيت ، انزويت في غرفتي أتحدث الى نفسي كمهووسة ، هذا اللقاء الخاطف لم يشبعني أبدا .

يا لهفتي على جلسة مطمئنة مع عادل . . . يقول لي ، أقول له ما كتمناه في نفسينا سنين طويلة . لكن كيف السبيل الى ذلك ؟ السبل كلها مسدودة أمامنا ! . . .

لكن متى كان العشاق يقنطون ؟ . . . وحدهم يعرفون كيف يبتكرون الطرق للقاءاتهم مهما كانت تلك الطرق عسيرة ، والرقابة شديدة . لقد وجدها عادل . . . .

يوم الخميس كنا ننصرف من المدرسة ظهرا ولا نعود اليها . وجدته ينتظرني على الرصيف أمام المدرسة . أشار الي أن أتبعه ، انسللت من بين زميلاتي وتبعته . دخل في الزقاق الضيّق الذي كان على يسار بناء المدرسة . دخلت وراءه . سرنا في الزقاق الطويل تفصل بيننا بضعة أذرع كي لا نثير أيّة شبهة .

كان الزقاق ينتهي ببستان مسور بدك قصير ، في منتصف السور باب خشبي ، وقف عادل أمام الباب وأخرج من جيبه خشبة فتح بها الباب . دخل وترك لي الباب مفتوحا ، دخلت وراءه وأغلقت الباب خلفي ، رفعت حجابي ونظرت اليه ، أحاط كتفي بذراعيه وقال لي :

– وأخيرا استطعنا أن نلتقي وحدنا ، وأن أرى العينين الحلوتين البارعتين في تعذيبي .

وأختلس قبلة من عيني .

لم أجب وقد بدا على وجهي شيء من القلق وعدم الارتياح . قال :

– ما لك تضطربين هكذا ، لا تخشي شيئا ، هنا لا يوجد أحد يعرفنا .

قلت :

– أخشى أن يعرف أهلي بأمرنا فنحرم من بعضنا الى الابد .

قال :

– من أين لهم أن يعرفوا ؟ هذا البستان مسور لا يدخله أحد الا أصحابه ، وأنا أعرف ابن صاحبه ، أنه صديق قديم لي وقد أعطاني هذا المفتاح لنأتي الى هنا متى شئنا .

وأراني المفتاح .

سرى في شيء من الاطمئنان ، ورحت أتأمل المفتاح ، لم يسبق لي أن رأيت نظيره ، خشبة رفيعة منبسطة طولها شبر ، في رأسها ثلاثة مسامير يشكلون مثلثا ، وتقوم هذه الخشبة ذات المسامير الثلاثة بوظيفة المفتاح . ادرك عادل عجبي فقال لي :

– يبدو انك لم تري قبل الآن مفاتيح البساتين والحواكير .

قلت :

– أنا لم أر البساتين نفسها الا قليلا جدا ، فكيف لي أن أعرف مفاتيحها ؟

ضحك فتألقت العينان السوداوان ، وأنغرزت الغمازة في الخد الايمن ، و برقت الاسنان البيضاء في الوجه الاسمر . لكم تخيلت هذه الضحكة الحلوة واشتقت اليها . قال وهو يشدني اليه :

— منذ الآن ستزينها كثيرا يا حبيبتي . كل يوم خميس تنصرفين من المدرسة وقت الظهر ، تأتين الى هنا فتجدينني قد سبقتك ، وفتحت الباب ووقفت خلفه أنتظرك .

قلت :

— ولكنني لا أستطيع أن أتأخر عن ميعادي أكثر من نصف ساعة والا أفتضح أمرنا ، أهلي دائما بالمرصاد .

ابتسم وقال :

— فلنقنع بالقليل ، اليس خيراً من الحرمان ؟

قلت :

— لا تذكر الحرمان أمامي مرة أخرى ، لم أعد أصبر عليه بعد أن ذقت منه ما ذقت .

جلسنا على حجرين متقابلين في ظل صفصافة هرمة أرخت علينا اغصانها الحانية ، تحدثنا وتحدثنا ، تذكرنا مأساة سامي ، ورحيله المبكر عنا ، وفناجين القهوة التي كنا نشربها في الطيارة ، والكتب التي كنا نقرأها معه ، واللوعة التي تركها في قلبينا . وبكينا ، ومسح دموعي بشفتيه فكانت بلسما . ما كان أقصرها نصف ساعة ، مرت وكأنها دقائق معدودات . خرجت من البستان قبله ، سرت مسرعة ، ركبت الترام لأختصر الطريق وأصل في ميعادي ، كان من عادتي أن أعود من المدرسة مشيا . لم ينتبه أحد لتأخري .

عادل واحةخضراء في صحراء حياتي المجدبة . أيام الاسبوع كلها تكثفت في يوم لقائه ، في نصف ساعة من بعد ظهر كل يوم خميس ، كنت أحلم بهـذه النصف ساعة منذ ان نفترق ، أنتظر ميعادها ثانية ثانية . . كنا نجلس على مقعدينا الحجريين

تحت الصفصافة الهرمة ، ننسج أحلامنا الحلوة ، نعمر بيتا صغيرا في حديقة واسعة ليرتع فيها أطفالنا ، هو سيعمل في المحاماة ، لانه لا يحب أن يتقيد بوظيفة تحول دون نضاله الوطني ، وأنا سأعمل مدرسة ، اربي طالباتي على حب الوطن ، على غرار اساتذتي . كنت أعود الى البيت مطمئنة سعيدة راضية النفس ، وقد زودني عادل بقبلات حنونة أعيش على ذكراها الاسبوع كله .

اليوم حمل الي عادل خبراً افرحني جداً ، لقد قبل في مدرسة الحقوق ، وانتمى الى الكتلة الوطنية التي كان أكثر أعضائها من كبار الساسة الوطنيين وقد اشترك بعضهم في الثورة ، وهناك عرفوا عادل ولذا راحوا يمدحونه أمام أعضاء الكتلة ، كما قال لي إنه سيعمل في أوقات فراغه مدرساً في احدى المدارس الخاصة .

قلت لعادل ذات مرة :

– اليوم عرفت الانتهازية ، رأيتها بأم عيني تمثل أمامي .

دهش وقال :

– وكيف كان ذلك يابيدبا الفيلسوف ؟

قلت :

– رأيتها اول البارحـــة مجسدة في اخي راغب . اظنك تعرف ان اخي كان ضد الثورة ، وكم كان يتجادل مع المرحوم سامي من أجلها في كل مناسبة .

قال :

– اعرف ذلك ، طالما حدثني عنه سامي .

قلت :

– جاءنا اول البارحة منفوشا كديك حبش وقال لنا :

– هنئوني . . . لقد فزت بوظيفة مرموقة في مديرية الداخلية . . .

سأله ابي كيف توصل الى هذه الوظيفة .

قال :

– بلغني ان رئيس احد الدواوين في هذه المديرية عرف بشعوره الوطني ، وان لديه في الديوان وظيفة شاغرة ، وكنت اعرف احد اصدقائه الاثيرين لديه ، فذهبت الى هذا الصديق ورجوته ان يحدثه بشأني ، وان يذكر له انني اخو الشهيد سامي الصاروجي الذي ابلى في الثورة بلاء حسنا ، وان اسرتي قد نكبت في الثورة نكبة بالغة فاختارني رئيس الديوان لهذه الوظيفة وزكاني لدى المستشار الفرنسي ففزت انا بالوظيفة . . . . وكان قد تقدم اليها عدد كبير من الشباب فيهم من حملة الشهادات العالية .

لم استطع صبرا على هذه الصفاقة ، قلت له :

– من سخرية الاقدار ان تكون انت اول المنتفعين بالثورة وقد كنت ضدها على خط مستقيم !

نظر الي نظرة حاقدة وقال :

– ولم ازل ضدها الى الان ، الا يكفي انها ذهبت بسامي ! . . . . ولكن هذا لايمنع ان استفيد من الفرص .

قل بربك ياعادل أليست هذه هي الانتهازية بعينها ؟ . . . . .

قال عادل :

– هذا مانسعى للتخلص منه عندما يصبح الحكم وطنيا خالصا .

قلت :

– لقد وصل راغب الى هدفه من اقصر الطرق ، ودون جهد ، بينما ظل اخي محمود سنة كاملة بعد ان تخرج من مدرسة الحقوق يبحث في دوائر الحكومة عن وظيفة دون جدوى ، اخيرا وجد وظيفة صغيرة دون وظيفة راغب في مدينة حمص ، اضطر ان يقبلها مراعاة لظروف ابي المادية التي هي في تدهور مستمر . فأين العدل ، واين الانصاف؟

قال :

– لماذا تشغلين تفكيرك بأمور فردية من هذا القبيل ؟ وما أكثرها في بلدنا ... . نحن الان مقبلون في نضالنا الوطني على مرحلة شاقة جدا ، يجب ان يشغلنا التفكير بها عن كل شيء .

الفرنسيون يماطلون بتنفيذ وعودهم ، وكان اول شرط تعهدوا بتنفيذه هو اجراء انتخابات حرة لاختيار الجمعية التأسيسية التي ستضع دستور البلاد . وقد مضت فترة طويلة دون ان يسمحوا على الرغم من المظاهرات التي قام بها الشعب يطالب باجرائها . كأنهم يظنون ان اختيارهم احد رجال الدين لرئاسة الدولة كاف لارضائنا ، بل قولي لتخديرنا ، انهم لم يفهموا طبيعة شعبنا الى الآن . لذا قررنا ان نقوم بمظاهرة كبيرة في سورية كلها سيشترك بها الاهالي بجميع فئاتهم وسيعقبها اضراب شامل .

قلت :

– ولماذا لا تشركون المراة بهذه المظاهرات ؟ . اليس من حقها ان تدافع عن وطنها ؟ الى متى يبقى نصف الامة مشلولا ؟

قال عادل :

– لقد اقترحت هذا الاقتراح في اجتماعنا الاخير في الكتلة ، وآزرني كثير من الاعضاء الشباب ، لكن اقتراحنالم يفز برضا الاكثرية من الاعضاء وذلك خشية ان يستغل الفرنسيون هذه الظاهرة فيثيرون علينا رجال الدين من طرف خفي بواسطة عملائهم ، ونحن الان في فترة حرجة احوج مانكون فيها الى التماسك والتآزر .

وعلى ذكر المرأة الم تتابعي في الصحف تلك المعركة التي تدور رحاها الان بين محبذي السفور ، ومحبذي الحجاب .

قلت :

– لقد حملت الينا ذات مرة احدى الزميلات صحيفة قرأنا فيها مقالا رائعا عن تحبيذ السفور .

قال عادل منددآ بي :

– هذا تقصير منك ! . . . كان يجب ان تتابعي هذه المعركة الطريفة التي تخص المرأة . لقد وجد اخيرا بين كتابنا من تجرأ وطالب بسفور المرأة. انني اكبر جرأته هذه ، انها ليست قليـلة في مجتمع متزمت كمجتمعنا . لقد حفظت لك اعداد الصحف التي نشرت هذه المقالات بالتتابع لتقرئيها بامعان ، ولكن نسيت ان آتيك بها اليوم ، سأحملها اليك يوم الخميس القادم .

❁ ❁ ❁

كان عادل ينتظرني كالعادة خلف باب البستان حاملا لي اعـداد الصحف التي وعدني بها . قلت له على الفور :

– سأعطيك قبلة قبل ان تختلسها لأنك لم تنس الصحف هذه المرة.

قال ونحن نتبادل القبل :

– اياك وانتصبحي كتلك الشاعرة الاندلسية الشهيرة التي كانت تعطي قبلتها لمن يشتهيها . .

صفعته برفق على فمه وقلت له :

– ياخبيث ، الي يقال هذا القول انا التي مامنحت قبلتي لأحد سواك ولن امنحها لغيرك عمري كله ؟

فضمني اليه بحنان وقال :

– اعرف هذا وأؤمن به الايمان كله .

جلسنا على الحجرين تحت الصفصافة ، وراح عادل يحدثني عن المظاهرة ونجاحها الباهر ، والاضراب الشامل ، كان متفائلا جداً . قال لي :

– قمت انا وبعض زملائي بجولة في المدينة ، لكم تمنيت ان تكوني معي . ماكنت احسب ان شعبنا بجميع طوائفه متضامن الى هذا الحد .

كانت المحلات كلها مقفلة ، حتى الدكاكين الصغيرة في الاحياء المتطرفة كانت ايضا مغلقة ، واذا تصادف ان شذ احد الناس وفتح دكانه كان الصبية الصغار ينعتونه بالخيانة ، ويظلون يرشقون دكانه بالحجارة حتى يغلقها . لقد سبق هذه المظاهرة ، وهذا الاضراب مظاهرات واضطرابات كثيرة للغاية نفسها ، لكن لم يكن لها الاهمية التي كانت لهذين .

ارتبك الفرنسيون ، وادركوا التأثير الكبير الذي اصبح للكتلة الوطنية على الأمة كلها . تمنيت ان تري ساحة الشهداء يوم المظاهرة كانت تموج بالناس كالبحر المتلاطم ، وكأن هذه الجموع الغفيرة كلها من شيوخ وشباب وأطفال تفكر بعقل واحد ، وتنطق بلسان واحد ، كان

يقشعر بدني رهبة – انا الذي لم ارهب القتال الشرس في المعارك – حين اسمع هدير الجماهير يدوي :

نريد الانتخابات . . نريد الاستقلال التام . . بلا حماية ولاوصاية . . ثمّ هذا الهتاف :

أبعد يا فرنسوي عنّا نحنا نحنا العرب نحنا

أو

تحي الامّة العربية اسلام ومسيحية

ثم يروحون ينشدون :

بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان

يا فرنسا لا تغالي لا تقولي الفتح طاب

فاذا هجم رجال الشرطة بعصيهم ومسدساتهم لتفريق الجموع ثبت المتظاهرون امامهم ويروحون يرشقونهم بالحجارة غير مبالين بالضرب والتهديد ، فاذا ألقي القبض على بعضهم راحوا ينشدون :

يا ظلام السجن خيم انّنا نهوى الظلاما

وكأن الفرنسيون شعروا بخطورة الموقف، وخشوا ان تندلع نيران الثورة مرة اخرى ، فأرسلوا الى اعضاء الكتلة يطلبون منهم حل الاضراب للبدء بمفاوضات جديدة على اساس تحديد موعد لانتخابات الجمعية التأسيسية .

كنت أصغي الى حديثه بلهفة بالغة . قلت :

– لقد بدأنا نجني ثمار تضحياتنا .

قال :

– طبعا .

ثم ردد الجملة التي كان يرددها سامي :

– لكن المشوار طويل ، طويل جدا ياحبيبيٌ .

قال لي عادل منذ ان دخلت البستان وقد بدا على وجهه شيءٌ من الغضب :

– لماذا لم تأتي الخميس الماضي ؟ لقد انتظرتك هنا طويلا ، وقد انشغل بالي عليك ، حتى كدت يوم السبت ان اسأل احدى زميلاتك عن سبب غيابك عن المدرسة .

قلت :

– اوتفعلها يامجنون ؟ كنت فضحتنا أية فضيحة . امتي مريضة ياعادل. لقد اصيبت بمرض الخناق الصدري اصابة شديدة ، ياله من مرض رهيب لم اكن اعرف عن اعراضه شيئا . في بادىء الامر ظننا أنها تحتضر ، جئناها بالاطباء ، ظلوا يعالجونها بالادوية والابر ساعات حتى انتظم تنفسها ، ولم تلبث ان عادت الى حالتها الطبيعية وكأنها منهكة فقط ، امّا حالتها النفسية فسيئة جدا . اكاد لااصدق ان الانسان يصل الى النزع الاخير ثم يعود كما كان وكأنه لم يمرض خلال ساعات .

اصبحت قلقة عليها جدا ، اخرج من البيت وبالي مشغول عندها ، اخشى ان تداهمها نوبة في غيابي وقد تموت في احدى النوبات كما حذرنا الاطباء .

قال عادل :

– لقد احزنتني والله عليها ، انا احب أمك ولو انني لاأعرفها. كنت اسمع الكثير عنها من سامي .

قلت :

– فكيف لو عرفتها ؟ انها مثال الطيبة والوداعة ، لقد حذرها

الأطباء من الارهاق الجسدي والنفسي ولكن هيهات ان تعمل بنصائحهم انها لاتهدأ طول النهار ، كانت امي قبل ان يستشهد سامي فرحة بيتنا ، تراها دائما ضاحكة مستبشرة ، تحب ان تغني عندما تقوم بأعمالها البيتية ، وكان صوتها جميلا يضفي على بيتنا بهجة ، امّا الان فانها تعمل وتكفكف دموعها ، ومن حين لآخر تدمدم بأغنية واحدة بصوت حزين كأنه نواح :

ياغزالي كيف عني ابعدوك   شتتوا شملي وهجري عودوك

ثم تعقبها نوبة بكاء ، فكيف لاتمرض ، ولعل من اسباب مرضها ايضا زواج اخي محمود .

قال عادل بدهشة كبيرة :

ــ او تزوج محمود ؟ ؟ ومتى كان ذلك ؟

قلت :

ــ نعم تزوج . . . وأيّ زواج لاأراك الله مكروها !

قال :

ــ ولم ؟ وبمن تزوج ؟

قلت :

ــ اخبرتك مرة ان محمود وجد وظيفة في حمص . بعد سفره بأشهر قلائل وصلتنا منه رسالة مقتضبة يخبرنا فيها انه تزوج ، لأنه شعر بالوحدة وبغربة قاتلة ، وتصادف أنه تعرف على فتاة من اسرة طيّبة فتزوجها !.. ويصعب الامر على ابي وامّي فيغضبان على ابنهما الوديع الطيّب لانه تزوج دون ان يأخذ رأيهما ، فرحنا انا وراغب نهون عليهما الامر ونقول لهما :

« وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم . » ثم كتبت الى محمود ان يأتي لزيارتنا مع عروسه ، ويطلب رضا والديه . وياليتني لم افعل ، منذ اسبوعين جاءنا محمود ومعه امرأة طويلة ، جسيمة ، تبدو اكبر منه بكثير ،اذا رأيتهما معا تحسبها امه او خالته،عندما دخل علينا سألته امّي :

– واين العروس ياتقبرني ؟ فأشار الى المرأة التي الى جانبه ، فشهقت امي مندهشة وضربت بيدها على خدها ولبثت صامتة ، لقد ظننت باديء الامر أن هذه المرأة هي أم العروس . وضحكت انا من فعلة امي ضحكة عالية بالرغم مني . ارتبك محمود ، وتكهرب وجه العروس وأظنها كرهتنا منذ تلك اللحظة .

قال عادل :

– أهكذا يستقبل الناس عروس ابنهم ؟! لقد احزنتني والله على العروس . هذا امر يتعلق بمحمود وحده، مالكم وماله ؟ ربما وجد سعادته مع هذه المرأة اكثر من اية امرأة اخرى مهما بلغت من الكمال والجمال . متى نؤمن انّ الزواج شيءٌ شخصي لادخل للآخرين به ؟

قلت :

– هذا مالاتستطيع امي ان تفهمه ابدا . كانت تحلم ان تخطب لمحمود فتاة في الخامسة عشرة من عمرها ، غضة بضة ، شقراء ، ذات عينين خضراوين ، ترضى بالسكن معنا وتأتمر بأوامر امي ، وتنجب لنا البنين والبنات .

قال عادل :

– واذا كان محمود لايحب العيون الخضر ؟

قلت :

– رأي محمود ليس مهماً . امي تحبهما خضراوين وكفى ، لذا

شعرت امي بخيبة عندما رأت العروس على عكس ماكانت تحلم به تماما . اصبحت تعتقد ان ام العروس سحرت ابنها وخطفته منا وزوجته من بنتها العانس ، وهيهات ان يترك حمص ويعود الينا ، لذا داهمها المرض بعد سفر محمود بأيام قلائل .

قال عادل :

ـ خففي عنها مااستطعت ، انت وحدك تستطيعين ان تقنعيها بالرضا بالواقع .

قلت :

ـ سأعمل جهدي . لقد مضى الوقت ونحن نتحدث بأمورنا الخاصة ، هات حدثني ماعندك .

قال :

ـ الاخبار طيّبة هذه المرة : بعد المظاهرات والاضرابات لم يجد الفرنسيون بداً من الاذعان الى إرادة الشعب . ولم يحل الاضراب ، وتهدأ المظاهرات حتى تعهدوا باجراء انتخابات الجمعية التأسيسية بعد ايام قلائل ، نحن الآن مشغولون باعداد قائمة بأسماء الذين سنرشحهم لهذه الانتخابات . اما الذي يقلقنا نحن الشباب ، هو ان بعض الشخصيات التي ناضلت في سبيل الوطن وبذلت كثيرا من التضحيات تريد ان تفرض نفسها على القائمة .

قلت :

ـ هذا لايجوز اذا كانت هذه الشخصيات لاتتمتع بالمؤهلات التي تخولها لهذا المنصب .

قال :

ـ طبعا لايجوز قطعا ، يجب ان نضع في القائمة اسماء ذوي

الكفاءات من الوطنيين المثقفين الذين لهم معرفة بالتشريعات والقوانين ليضعوا دستور البلاد .

ان اخشى مانخشاه نحن الشباب هو ان يؤدى هذا التطاحن على المراكز بين الكبار الى انشقاق في الصفوف .

نظرت الى ساعتي فاذا الوقت قد سرقنا ، ودعت عادل وسرت مسرعة الى البيت يساورني شيْ من القلق خشية من هذا الانشقاق بين صفوف الوطنيين الذي حدثني عنه عادل .

حان ميعاد اجتماعنا فجئت الى البستان وانا متلهفة على سماع الاخبار التي سيحملها الي عادل اكثر مني في اي وقت مضى .

كان ينتظرني تحت الصفصافة الهرمة ، استقبلني بابتسامة عريضة وقال لي فورا :

– بشراك ستشتركين هذه المرة بمظاهرة كبيرة نعول فيها على المرأة .

قلت :

– وماالداعي الآن الى هذه المظاهرة ؟

قال :

– تبين لنا ان نوايا الفرنسيين ليست صافية تماما، وقد بلغنا انهم يعدون الآن قائمة بأسماء الموالين لهم ليطرحوها في الانتخابات باسم قائمة الحكومة ولابد لهذه القائمة ان تنجح عن طريق الغش، والتلاعب بأوراق الانتخابات، عندئذ تذهب جهودنا ، وتضحياتنا كلها سدى ، مافائدة الجمعيــة التأسيسية اذا اصبحت اداة طيعــة بيـــد الفرنسيين تخضع لاوامرهم ، وتسن لنا القوانين التي يرغب فيها المستعمرون .

قلت :

ـ ماالعمل اذن ؟

قال :

ـ ليس امامنا من حل سوى ان يرفض الشعب هذه القائمة ، ولن يقنع الفرنسيون بهذا الرفض الا اذا اضربت البلد ، وقام الشعب بمظاهرات شاملة يعبر فيها عن رأيه بالاشخاص الذين وردت اسماؤهم في القائمة .

لقد تداولنا الامر مع التجار فلم يستجيبوا لنا هذه المرة . لقد ملّوا من المظاهرات والاضرابات التي تعطّل اشغالهم ، فاقترح بعض الاعضاء ان نشرك النساء هذه المرة بالمظاهرة ليثرن النخوة والحمية في النفوس ، وسيستجيب التجار لنداءاتهن حتما فيغلقون محلاتهم ويتم الاضراب الذي نعول عليه كثيرا . ووافق الجميع على هذا الاقتراح .

قلت :

ـ أتدري كم افرحتني بهذا الخبر؟ لكم كنت أغبط الرجال على ما يقومون به من أعمال في سبيل الوطن ، ولكم تمنيت أن أخدم بلادي خدمة فعلية ، ليس بالشعور فقط ، فلم يتح لي ذلك . قل لي ، متى ستكون هذه المظاهرة ؟ منذ الآن سأقوم بتمرين حنجرتي على الهتافات .

ضحك عادل فانغرزت الغمازة في الخد الايمن ، وتمنيت أن يختلس منّي قبلة ، ولكنه لم يفعل ، كان في شغل شاغل مني .

قال :

ـ لا تستعجلي الامور ، هل أنت على يقين من أنّ أهلك سيسمحون لك بالاشتراك في المظاهرة ؟

قلت :

– ومن قال لك انني سأطلب موافقتهم ؟ سأشترك في المظاهرة وليفعلوا بعدئذ ما شاؤوا .

قال مازحا :

– حقا ان الاستقلال يؤخذ ولا يعطى . أراك تعلقين على اشتراكك في المظاهرة أهمية كبرى ، أخشى أن يجر عليك هذا التصرف أمورا لا تحمد عواقبها ، أنا أعرف أهلك ، رجعيين متزمتين ، أخشى أن تندم على ما ستقومين به أشد الندم .

قلت :

– دعني وشأني ، لن يثنيني عن الاشتراك في المظاهرة شيء مهما كانت العواقب . قل لي الآن : ما هو السبيل الى الاشتراك في المظاهرة ؟

قال :

– أظن أن المشتركات كلهن من طالبات دار المعلمات ، من أخوات أو قريبات زملائنا في الكتلة ، سأعطي اسمك للجنة ، وستتصل بك المسؤولة عن مظاهرة السيدات ، وستحدد لك الميعاد والمكان الذي ستنطلق منه المظاهرة .

* * *

كان ميعاد المظاهرة يوم الخميس . اجتمعنا بعد انصرافنا من المدرسة في دار احدى الزميلات في حي المهاجرين . كان عددنا عشرين طالبة ، أعدت لنا سيارات مكشوفة . وقفنا بها وكنا نرتدي ملاءات سوداء محتشمة ونرخي على وجوهنا حجابا كثيفا كي لا ندع لرجال الدين حجة لمهاجمتنا . أحاط كل سيارة عدد كبير من الشباب المتظاهرين ، تماسكوا بالايدي وشكلوا نطاقا حول السيارة كي لا يصل اليها رجال الشرطة . كنت ألمح عادل بين الشباب يبتسم لي ، ويشير الي بيده مشجعا .

انطلقت السيارات من حي المهاجرين تسير على مهل ، بين كل سيارة وسيارة مسافة قصيرة . كانت هذه المسيرة أشبه بالموكب منها بالمظاهرة . بدأنا بالهتافات منذ وصولنا الى طريق الصالحية :

يا أهل الشام . . . يا أهل النخوة والحمية . . . . الفرنسيون يريدونكم أن تنتخبوا الخونة ، وتدعوا الوطنيين ، فليسقط فلان وفلان وفلان الى آخر الاسماء التي وردت في قائمة الحكومة . وليحيى فلان وفلان وفلان ونعدد الاسماء التي وردت في قائمة الوطنيين .

اغلقوا محلاتكم ، اضربوا عن الانتخابات حتّى تلغى قائمةالحكومة. باسم دماء الشهداء ندعوكم . . . . ويرد المتظاهرون هتافاتنا . فاذا التجار يستجيبون لنداءاتنا فورا . واذا هم يغلقون محلاتهم . ويتبعوننا .

ولما وصلت المظاهرة الى ساحة الشهداء لم تعد سياراتنا تستطيع السير بين الجموع الغفيرة الاّ بصعوبة بالغة . كانت تقوم معارك بين رجال الشرطة والمتظاهرين كي يمنعوا الشرطة من الوصول الينا . وهيهات أن يستطيع شرطي واحد الوصول الى سيارة من السيارات التي تقلنا .

كنت أشعر وأنا واقفة بالسيارة كأنّه قد نبتت لي أجنحة أستطيع التحليق بها عاليا ، على الرغم من الملاءة السوداء التي كانت تسربلني من رأسي حتّى قدمي ، والحجاب الكثيف المسدل على وجهي.أشعر كأني موجة متمردة من موجات هذا البحر المتلاطم أمامي.شعور غريب كان يغمرني ، لأول مرة أحس أنّني انسانة ذات كيان وهدف ، وانّني على استعداد لان أموت في سبيل الدفاع عنهما.لا أشعر بالخوف مطلقا ، بل أشعر بالقدرة على المجابهة والتحدي.سأقف أمام أبي ، وأخي

راغب وأمّي وأقول لهم: خرجت بالمظاهرة مع الشباب لأدافع عن وطني وليس في هذا الكون قوة تستطيع أن تحول دون ارادتي .

ران على المتظاهرين صمت شامل حين بدأت احدى الزميلات تلقي خطبة حماسية . كانت تمسك الورقة بيد ، وتزيح حجابها قليلا باليد الاخرى لتستطيع القراءة .

كان المتظاهرون يقاطعونها عند كل مقطع بالتصفيق والهتافات .

ثمّ تابعت المظاهرة سيرها الوئيد جدا الى سوق الحميدية حيث ألقت زميلة أخرى خطبة ثانية ، ثمّ دخلنا سوق مدحت باشا فالبزورية وما تكاد سياراتنا تدخل هذه الاسواق حتّى تغلق المحلات كلها في لحظة ، ويقف التجار أمام محلاتهم يصفقون لنا ، ويهتفون معنا وبعضهم يتبع المظاهرة .

كانت هذه هي أسواق دمشق الرئيسية ، فاذا أضربت تبعتها بقية أسواق البلد . فالغاية من المظاهرة قد تحققت اذن ، وتمّ الاضراب بفضل اشتراك المرأة في المظاهرة .

كان الفرنسيون قد زجوا ببعض الضباط مع جنودهم ليعاونوا الشرطة في قمع المظاهرة وليقبضوا على بعض الشباب المتحمسين ، ويقودوهم الى المخافر ، ويستجوبوهم . ولابد أن يضربوا ويعذبوا أثناء الاستجواب ، وقد يحاكم بعضهم ويحكم عليه بالسجن الطويل .
رأى القائمون على المظاهرة أن ينقذوا الفتيات قبل أن يقبض عليهم رجال الشرطة ، أو الجنود الفرنسيون .

كانت السيارات تقف أمام منعطفات الطرق لتنزل احدى الفتيات وتتوارى بين الجموع الغفيرة ثم تخرج من أحد المنافذ ، وكان يسير وراءها بعض الشباب من المتظاهرين ليحموها حتّى تصل الى بيتها .

نزلت من السيارة بمنعطف سوق البزورية ، وجدت عادل أمامي ؛ قال لي : اتبعيني .

خرجنا من سوق البزورية الى سوق الحرير ، كانت الاسواق تبدو موحشة جدا ، وهي مغلقة ومعتمة وخالية من الناس . قبض عادل على يدي وضغطها قليلا وقال لي :

— كنت عظيمة جدا ، كان صوت هتافك يعلو على جميع الاصوات ، لكم أنا فخور بك .

قلت :

— لأنني كنت أهتف من صميم قلبي .

قال :

— يجب أن نسرع ما استطعنا ، ما كنت أحسب أنّ المظاهرة ستستغرق هــذا الوقت الطويل . لقد أذّن المغرب ؟ وأهلك لا شك يتفقدونك الآن ، وقد لا يخطر لهم أبدا أنّك اشتركت في المظاهرة .

قلت :

— لا يهمني الاّ أمر أمّي لانها مريضة .

ثمّ أردفت :

— يا ليت المظــاهرة مرت أيضــا من خان الجمرك ، من أمام دكان أبي ، ربّما كان فطن الى انّني بين المتظاهرات ، وربّما أعجب بجرأتنا واقدامنا ، وتحمّس لنا كغيره من التجار .

وصلناالى سوق الحميدية من ناحية جامع الاموي ، وما كدنا نطل على السوق حتّى رأينا بعض رجال الشرطة يعاونهم عدد من الجنود الفرنسيين يلاحقون فلول المتظاهرين .

خشي عادل أن يقبضوا علينا فدخل جامع الاموي مع الداخلين

لصلاة المغرب ، كان للجامع حرمة كبيرة لا يقبضون فيه على أحد .

خلعنا أحذيتنا ، وحملناها بأيدينا ، وسرنا في صحن الجامع بيني وبين عادل بضع خطوات.خرجنا من الباب المؤدي الى حي العمارة ، ورحنا نسرع في سيرنا ما استطعنا .

من العمارة إلى حي العقيبة ، الى حينا في سوق ساروجة.هذه الطريق أطول ممّا لو ذهبنا من سوق الحميدية الى المرجة فسوق ساروجة .

كنت أعرف ما ينتظرني في البيت من ويل.وعلى الرغم من ذلك كنت أسير الى جانب عادل فرحة سعيدة ، وكلي بهجة وتفتّح للحياة .

دخلناحارتنا . منبعيد رأيت أخيراغب واقفا فيمنتصف الحارة يتلفّت يمينا وشمالا فعرفت انّه يبحث عني ، ثمّ أدركت انّه لمح عادل قبل أن يدخل بيته ، ولمحني وراءه . تظاهر راغب باللامبالاة وعاد ادراجه متمهلاً نحو بيتنا ، ووقف أمام الباب ينتظرني . عندما وصلت فتح لي الباب ودخل خلفي ، لكزني بقبضة يده في رأسي لكزة قوية وقال لي :

— أين كنت يا كلبة ! . . .

لم أرد عليه ، اسرعت الخطى ، قطعت الدهليز . دخلت باحة الدار . كانأبي وأمّي واقفين فيمنتصفها وأعينهما تراقب مدخل الدهليز .

قالت أمّي :

— أين كنت يا مقصوفة العمر ؟ . . . . أذن العشاء وانت خارج البيت ؟ . . .

تقدم أبي مني وصرخ بوجهي : أين كنت ؟

قلت باعتداد كبير :

– كنت بالمظاهرة مع رفيقاتي .

قال :

– تخرجين بالمظاهرة دون علمي ؟ ! . . . أنا ما عندي بنات تخرج بالمظاهرات مع الشباب .

ولطمني على وجهي لطمة جعلتني أترنّح . ثم استلقاني بلطمة أخرى جعلتني أعتدل ، وراحت اللطمات تتالى على وجهي وأنا واقفة أمامه صامدة ، متحدية لطماته ، ومع كل لطمة كان يقول لي : أنا ما عندي مدارس ، ما عندي مظاهرات بعد اليوم ، ما في طلعة من البيت ، لا مدرسة ولا مظاهرة . إلى أن دخلت بيننا أمّي فأصابتها لطمة ، قالت بأنفاس متقطعة :

– كفى ، كفى يا أبا راغب هل جننت . . ؟

وسحبتني من يدي ودفعتني الى المخدع وأغلقت الباب خلفي .

فاذا راغب يصرخ :

– كذابة ، . . والله كذابة ، . . هل صدقتها يا أبي ؟ أتوجد مظاهرات بعد العشاء ؟ كانت مع عادل ابن الخباز رأيتهما قادمين من أول الحارة . متى يحل عن ديننا ابن الحرام هذا ؟ ؟ ما له ولنا ؟ هو الذي دفع سامي الى الثورة ، وجاء ابن الكلب الآن ينتهك شرفنا ... انا أعرف شغلي معه ، نحن دائماً نسير مرفوعي الرأس..جاء ابن الخباز الآن ينكّس رأسنا أمام الناس ! . . .

خشيت على عادل ، وجدتني أخرج من المخدع ، ولا أدري كيف جاءتني هذه الاكذوبة لأبرر وجودي مع عادل ، قلت وكأني أتضرع :

– صدقني يا أبي أنا لا أعرف عادل ، أحلف لك انّني لم أره ، لكن بعد المظاهرة قبض علينا رجال الشرطة وأخذونا الى المخفر

ليستجوبونا ، تأخرت لبينما جاء دوري ، وعندما خرجت وجدته أمام المخفر سار وسرت وراءه حتى وصلنا . . .

قبل أن أتم كلامي قال راغب بلهجة تمثيلية :

– يا لطيف . . . ، يا لطيف ! . . . هذه مصيبة ألعن من الاولى! . . .

أنا أعرف ماذا يفعل الفرنسيون ورجال الشرطة بالفتيات اللواتي يسوقونهن الى المخافر . لن تخرج واحـــدة من بين أيديهم سليمة أبدا . هذه قاعدة . . .

شدهت ، ولم أعد أعرف ماذا أقول . لم يخطر لي انّ هذه الكذبة ستؤدي بي الى هذا كلّه .

ضرب أبي جبينه بيده وقال :

– هذه لم تكن بالحسبان !

ولم يعد يقوى على الوقوف فجلس على حافّة الديوان .

عادت أمّي فدفعتني الى المخدع وأغلقت الباب خلفي . نظرت من الشباك فاذا الثلاثة يتهامسون فيما بينهم .

ويرتفع صوت أمّي :

– لا ، لا ، مستحيل ، أنا اعرف بنتي ، دعوني أفهم منها أولا .

قال راغب :

– أتظنين انها ستعترف لك؟ . . ستنكر كل شيء ، هذه عادة البنات .

قال أبي :

– أنا لا أستطيع أن أنام اليوم قبل أن يطمئن بالي . اذهب ياراغب الله يرضى عليك وآتني بها حالا .

ذهب راغب . تساءلت :

– من هي التي سيأتي بها راغب في هذا الليل ؟ أتكون خالتي أم رشيد التي اعتدنا أن نلجأ اليها في الملمّات ؟ الا يكفيها المسكينة ماعندها من هم وغم . ؟

بعد قليل دخلت عليّ أمّي ، كانت أنفاسها تتلاحق ، وهالة زرقاء ظهرت حول عينيها الكابيتين فعرفت انها بوادر نوبة الخناق الصدري التي كانت تنتابها بين حين وحين ، قلت لها متوسلة :

– استريحي يا أمّي ، لا يهمّك أمري ، صحتك فوق كل شيء .

قالت :

– يلعن صحتي ، أتمنى والله أن أموت لأستريح منكم . . .

ثم اقتربت منّي ووشوشتني :

– أنا أمّك يا بنتي ، احكي لي بصراحة ، هل اعتدى عليك أحد ؟ . . . لا تخافي سأتدبر الامر مع أم فوزي الداية التي ستجيء بعد قليل وتخفي الواقع عن أبيك وأخيك .

نشبت من مكاني واقفة وكأنّ ناراً مستني ، وحملقت الى أمّي ، وقلت :

– أم فوزي الداية ؟ ؟ . . هل ذهب راغب اذن ليأتي بها ؟ هل جننتم؟ما الداعي لهذا كلّه ؟ ومن يوقع نفسه في لسان أم فوزي ؟ هذه فضيحة ستنشرها الداية في الحارة كلها . غدا ستفتح بابا وتغلق بابا وتحكي للناس الحكاية وتجعل منها سيرة . يا خجلي ! . . . يا ليت الارض تنشق

وتبتلعني الآن ... تأكدي لن أدع أم فوزي تمسني ولو مت، الموت أهون عليّ من ذلك .

نظرت اليّ أمي بعينيها الحزينتين المتوسلتين وقد ازدادت أنفاسها تقطعا وقالت :

– اشفقي عليّ يا بنتي . . . . أشعر أنّ ساعتي قد دنت ، ما دمت واثقة من نفسك لم لا تدعيها تكشف عليك ونقلع عين العدو ؟ سنحلفها يمينا مغلظة على المصحف لتكتم أمرنا ولا تحدث به أحدا .

نظرت الى أمي بهلع وهي تجهد نفسها لتتحدث اليّ على الرغم من تقطّع أنفاسها ، وجدتني مضطرة الى ان أذعن لكلامها، لا اقتناعا به لكن خشية عليها من نوبة قاتلة . قلت :

– سأدعها تكشف علي من أجلك أنت فقط ولو أنّ الموت أهون علي من هذه الفضيحة ؟ من قال انّ أم فوزي قادرة على الكتمان ولو حلفت على المصحف ؟

ثم ركضت الى المطبخ وأتيت بكوب ماء نقطت فيه عشرين نقطة من الدواء الذي وصفه الاطبّاء لأمي عندما تفاجئها النوبة فتجرعته على مهل ، ثمّ أتيت بوسادة وضعتها خلف ظهرها ورجوتها أن تمدد رجليها وتسترخي ما استطاعت كما نصحها الاطباء . بعد قليل بدا عليها شيء من الهدوء ، وراحت أنفاسها تنتظم شيئا فشيئا . ثمّ سمعت صوت خطوات في أرض الديار فعرفت أنّ الداية قد وصلت فاقشعر جسمي ، وغمرني شعور بالقرف والاشمئزاز والمهانة. ويدفع الباب وتدخل تلك الآفة التي يطلقون عليها اسم أم فوزي الداية . كنت أكره تلك المرأة القصيرة البدينة ، ذات النظرات الخبيثة واللسان اللساع ، كانت تزورنا من حين لآخر وتحمل لأمي

أخبار الحي ، وما يحدث فيه من فضائح . كنت أختفي من وجهها على الرغم من تدليلها لي وتذكيري دائما بأنها أول من استقبلني على هذه الدنيا . رحبت أمي بها ، ثم قالت لها :

— نريد يا أم فوزي أن نطمئن على صبرية ، اليوم وقعت في الحمام على شيء يابس وأخشى أن يكون قد أصابها مكروه .

طبعا لن تخفى هذه الحيلة على امرأة داهية مثل أم فوزي ، هزت رأسها وضحكت ضحكة ذات معنى وقالت :

— تعالي يا تقبريني ، لن أؤذيك أبدا .

تركتها تفعل ما تشاء ثم رفستها برجلي دون أن أنظر اليها ، أو أنطق بكلمة . ضحكت من رفستي وقالت :

— كل شيء منك مقبول ، لانك الحمد لله صاغ سليم . . .

تنهدت أمي بارتياح ثم قالت :

— قومي يا أم فوزي وقولي ذلك لأبي وراغب .

خرجت ام فوزي من المخدع ، سمعتها تقول لأبي بصوتها الخشن :

— اللهم صلي على النبي ، بنتي صبرية الحمد لله مثل الليرة الذهب .

معنى ذلك على ما يبدو انها تريد أجرها ليرة ذهبية .

لا شك أن أبي دفع الليرة راضيا كل الرضا بعد أن اطمئن على شرف الاسرة الرفيع الكامن بين ساقي أنا وحدي من دون أفراد الاسرة كلهم .

بعد أن ذهبت أم فوزي ، خرجت من المخدع ، واتجهت نحو الدرج دون أن ألتفت صوب الليوان حيث كان أبي وأخي راغب. كان

صوت ضرب خطواتي على الارض ينبيء عن احتجاجي الكبير ، صعدت الدرج بسرعة ، دخلت غرفتي ، ارتميت على سريري وكأن كلابا مسعورة قد نهشتني.أشعر أنّ كل مسامة في جسدي كانت تنزف ذلا ومهانة ! . . .

يريدون أن يخرجوني من المدرسة قبل أن أنال شهادتي بسنة واحدة ! .

يريدون أن يسجنوني في البيت ! . . . ويتفجر صراخ مجنون من أعماقي وينطفيء في حلقي كحشرجة حيوان جريح في غابة موحشة .

آه ! . . . حتّى الصراخ أصبحت عاجزة عنه ! . . . وتتشنج أعصابي فأروح أمزق شرشفي بأسناني وأصابعي مزقا صغيرة .

– أين أنت يا سامي ! . . . لو كنت حيّا لما استطاعوا أن يهينوا أختك تلك الاهانة الكبرى .

أين أنت يا عادل ! . . . لن تراني يوم الخميس المقبل ، لقد اغتالوا الفرحة في قلبينا ، وقتلوا طموحاتنا الكبيرة ، أشعر أنك أصبحت بعيدا عني بعد السماء عن الارض ! . . . . ولكن لا ، لا ، لن يستطيعوا أن يفرقوا بيننا الى الابد ، سأفر اليك ولو كنت في آخر الدنيا .

أشعر أن الحرارة تشع من جسدي كوهج النار ، وبدأت أحس بالوجع في وجنتي ، لم يكن عندي قدرة على الوقوف والسير خطوتين فقط لأنظر وجهي في مرآة الخزانة،تحسسته بيدي ، كان متورما ، لا شك أن أصابع أبي مطبوعة عليه بلون أحمر أو أزرق ، الاصابع التي كانت تقطر حنانا عندما تربت كتفي كيف استفرست في لحظة . كيف

فقدت حنانها وانسانيتها ؟ ابة قوة هائلة لهذه المحرمات التي ينشئوننا عليها منذ انعي الدنيا ويظلون يثبتون أصولها، ويعمقون جذورها حتى تصبح أقوى من الحب ، أقوى من الحنان ، كم أحالت الانســـان الوديع الى مجرم سفاح . لا شك عندي لو لم تطمئن أم فوزي أبي على شرف العائلة الكامن بين ساقي لكان قتلني وعاش عمره حزينا علي ، يخيل الي أنه الآن يتعذب ، يتمنى أن يأخذني في حضنه ، أن يمسح آلامه التي سببها لي ، أنا أدرك تماما كم يحبني وكم أنا غالية عليه ، ولكنه لن يستطيع أن يفعل ذلك لانه يجد فيه ضعفا يمس رجولته . كل شيء عنده أهون من أن تمس هذه القدسية . أي مفهوم خاطيء للرجولة هذا !

أليس الرجل الكامل الرجولة هو من يقف أمام التيار ولا يبالي ؟ يفعل ما يمليه عليه ضميره ولا يبالي بالآخرين، يقول كلمة الحق ولا يهمه رضي الناس أم غضبوا . انني لا أحقد على أبي مهما نالني منه ، لأنني أعرف كم هو أسير هذه المعتقدات التي تأصلت في نفسه جيلا بعد جيل منذ مئات السنين .

أحقد على راغب . هو الذي أثار أبي وحرضه عليّ ولولا راغب لاستطعت أن أقنع أبي بآرائي ، ولمّا كنت اضطررت أن اكذب عليه ، هذه الكذبة الخرقاء التي جرت عليّ هذه الاهانة التي لن أنساها طوال عمري . . ترى اذا أضربت عن الطعام والكلام هل أثير حنانه فيرضى عني ويرجعني الى المدرسة ؟ . . . . . سأعتصم بغرفتي هذه ، ولن أخرج منها حتى أحصل على ما أريد .

مضى يومان وأنا معتصمة بغرفتي لم أخرج منها ولم أذق شيئا سوى الماء، أبي وراغب لم يحاولا أن يرياني أو يتحدثا الي . أمي وحدها كانت تصعد الدرج على الرغم من مرضها وتحمل الي الطعام ، وتحاول أن تغريني بالمشهيات ، أن تستجر الكلام مني ، أن تثير حناني بمرضها فلم تنجح أبدا .

في اليوم الثالث خارت قواي فلم أعد أستطيع الوقوف الاّ بصعوبة بالغة ، أمّي لم تصعد اليّ،أرسلت اليّ الطعام مع أم عبدو التي كانت تأتي الى بيتنا صباح كل يوم بضع ساعات منذأنمرضت أمّي لتنظّف البيت وتعد الطعام ثمّ تنصرف . الذي كان يعجبني في هذه المرأة انها كانت تعرف حدودها وليس في طبعها شيء من الفضول ، كانت حين تحمل اليّ الطعام تنظر اليّ بحنان وتتنهد دون أن تسألني شيئا خشية أن يزعجني سؤالها ولا أخال انها عرفت شيئا ممّا حدث في بيتنا أو حاولت أن تعرف .

بعد أن انصرفت أم عبدو من بيتنا بقليل سمعت ضجة في الطابق التحتاني وتناهى اليّ صوت راغب وكأنّه يتشاجر مع أحد . تساءلت لماذا لم يذهب راغب الى وظيفته ؟ هل أخذ اجازة ليراقب البيت ؟ ومع من يتشاجر الآن ؟ . تحاملت على نفسي ووقفت أمام الشباك فلم أفهم ممّا يقول شيئا ، ولم أر أحدا ، لانّ شباك غرفتي لا يكشف أرض الديار كلها . قلت في نفسي :

ــ مالي وله فليتشاجر مع من يشاء .

شعرت بدوار في رأسي فعدت الى سريري ، نظرت الى صينية الطعام على الكمودينه تفوح منها رائحة زكية فكاد يغيب صوابي ، اوليتها ظهري وتمددت على السرير . لن اتراجع مهما تحملت من الم وعذاب ولو أديا بي الى الموت . . .

في صباح اليوم الثاني دفع باب غرفتي وانا في حالة فظيعة من الاعياء ودخلت عليّ ام فوزي الداية ، شعرت بقوة مفاجئة تدب في اوصالي . جلست في السرير وقلت لها :

ــ مالذي جاءبك ؟ وماذا تريدين مني ايضا؟اخرجي حالا من غرفتي.
وضعت اصبعها على فمها وقالت :

ــ هس،احمل اليك رسالة من عادل،وهو يريد جوابها منك الآن.
وبرقت عيناها الخبيثتان وهي تخرج الرسالة من صدرها وتناولني اياها .
شدهت ، فتحت الرسالة ونظرت اليها فعرفت خط عادل ، فرحت اقرأ :

حبيبتي ! . . . بلغني ماتعانين من مشقة واهانة .

توقفت عن القراءة ونظرت الى ام فوزي نظرة ازدراء . لقد حدث ما توقعته . من اين درى عادل بأمري ان لم تكن ام فوزي وقد اشاعت الخبر في الحارة كلها ؟

تابعت القراءة :

ارسلت اليوم أمي الى اهلك لتخطبك لي ، لأنقذك مما انت فيه ، فطردها اخوك راغب ، وأهانها اهانة بالغة ، قال لها : نحن لانزوج اولاد الخبازين . . . .

خرجت من داركم كسيرة القلب ، مجروحة الكرامة . . .

كنت اقرأ وتمر في ذهني حوادث البارحة : حدث هذا اذن عندما سمعت الضجيج في الطابق التحتاني ، وصوت راغب يلعلع دون ان افهم ممّا يقول شيئا ،

ياله من لئيم ! . . . لماذا يحول دون زواجي من عادل ! وماشأنه هو اذا كنت انا احب عادل ؟ تابعت القراءة :

فكرت كثيرا ولم اجد وسيلة لانقاذك سوى ان اترك دراستي الان ، واعمل مدرسا في قرية نائية نفر اليها انا وانت ، وهناك نتزوج زواجا شرعيا ونحقق احلامنا ، ونجعل اهلك تجاه الامر الواقع. سأدرسك لتدخلي الفحص مع زميلاتك ولن تخسري شيئا ابدا ، بعد المظاهرة القي القبض على بعض الزملاء وأودعوا السجن ، انا الان اشعر انني مراقب من قبل السلطة فالفرار الى قرية نائية في صالحي ايضاً ، ذهبت إلى مديرية المعارف فرحبوا بي لأنهم بحاجة قصوى الى اساتذة ، وعينوني فوراً في قرية في اقصى الشمال ، اختاري الوقت المناسب لتجديني رهن اشارتك ، يجب ان نسرع ماامكننا ، انا افضل ان نفر اليوم فاذا وافقت اكتبي إليّ لتجدي سيارة تنتظرك بعد منتصف الليل في اول منعطف بعد حارتنا ، تشجعي ولاتخشي شيئا مادمت الى جانبك .

تناولت قلما من درج الكمودينة وكتبت في ذيل الرسالة: حبيبي ، أمي مريضة جدا، لاشك عندي ان فراري معك سيقتلها حتما، وسأعيش عمري بعدها حزينة معذبة الضمير ، اذهب انت الان الى تلك القرية النائية ، سأكتب اليك ، وعندما اطمئن على صحة امي ستجدني انا رهن اشارتك ، سأفرّ معك الى آخر الدنيا ، ولن يستطيع احد ان يفرق بيننا

الاّ الموت . . ويؤسفني ماجرى لأمّك في بيتنا ، اعتذر لها نيابة مني ، وطيب خاطرها مااستطعت .

طويت الرسالة واعطيتها لأم فوزي وقلت لها دون ان انظر الى وجهها الكئيب :

ــ هذا هو الجوابسلميه الى عادل بيدك ، واياك وأن يراه احد .

قالت :

ــ امرك ياتقبريني .

وأخفت الرسالة في صدرها ثمّ قالت :

ــ لماذا انت قاعدة هناوحدك ؟ سألت امك فقالت لي انّك حردانة في غرفتك ، لاتخرجين منها ابداً . ولاتأكلين ولاتشربين ، أمّك مشغول بالها عليك ، انها مريضة ياحسرة قلبي عليها ،البارحة لم تنم ابدا ، نوبة رائحة ونوبة آتية حتّى الصباح .

ــ قلت لها : أنا سأراضي بنتي صبرية ، أنا دايتك ومثل أمّك ، قومي الله يرضى عليكانزلي معي لعند أمّك ، رضا الله من رضا الوالدين .

قلت لها بلهجة قاسية :

ــ هذا أمر لا يعنيك أنت أبدا ، فهمت ؟ أنا سأنزل متى شئت .

نظرت اليّ بلؤم ثمّ قامت متثاقلة وهي تقول :

ــ خير ان شاء الله ، أنت تعرفين صالحك أكثر مني .

رسالة عادل أنعشتني كثيرا ، أحيت في الامل . ما معنى أن أظل مضربة عن الطعام ما دام لا أحد يهتم بأمري ولو أشرفت على الموت سوى أمّي المسكينة ، يعلم الله كم تعاني من أجلي ، لا شك انها تبذل جهدها لتقنع أبي ليعيدني الى المدرسة . لم يعد يهمني أمر المدرسة ما دام عادل سيدرسني لأدخل الفحص في ميعاده . غدا صباحا عندما

أتأكد أن أبي وراغب قد خرجا من البيت ، سأذهب الى أمي لأندس في فراشها وأدفن رأسي في صدرها الحنون ، لأعوض عليها ما سببته لها من عذاب .

نظرت الى الكمودينة التي الى جانب السرير. كان عليها مائدة طعام حملتها الي أم عبدو قبل أن تنصرف ، لم أذق منها شيئا على الرغم مما كنت أكابـد من عذاب الجوع ، ومشقة الاعياء . تناولت كوب اللبن ، تجرعت نصفه ثم أخذت قرص لحمة مقلية ورحت اعلكه على مهل ثم بلعته بصعوبة ، لان حلقي كان جافا ، كأن اشواكا قد نبتت فيه ، تناولت القرص الثاني استعنت على بلعه بجرعات من اللبن ، اكلت الثالث مع السلطة بتلذذ . هدأ الالم في أحشائي ، تمددت على سريري ، بدأ الظلام يهبط ، رفعت اللحاف حتى رأسي وأغمضت عيني ورحت أحلم بالفرار مع عادل وأتخيله كيف سيكون .

ذات يوم ، بعد منتصف الليل ، ستقف سيارة عند مدخل حارتنا وسأخرج في الظلمة ، أسير على رؤوس أصابعي كي لا أثير أية ضجة ، أحمل بيدي حقيبة صغيرة وضعت فيها أشيائي الضرورية — كما في الروايات تماما — يستقبلني عادل بلهفة واضطراب ، وسأكون أنا هادئة الاعصاب ساكنة الجأش ، نركب السيارة ، تنطلق بنا ، أضع رأسي على كتف عادل وألقي عن كاهلي عذابات سنين طويلة ، السيارة تطوي بنا المسافات وأنا صامتة ، كلما تحدث الي عادل أشير اليه أن يصمت ، لا أريد أن أجرح روعة هذا الصمت الشعري . عندما يستيقظ أهلي ويفتقدونني ، ويقيم راغب البيت ويقعده نكون نحن قد وصلنا الى

القرية النائية . سأطلب من عادل وأصر عليه أن نذهب أولا الى مختار القرية ليعقد زواجنا وسيتم هذا بسهولة تامّة .

لا توجد في القرى تلك التعقيدات التي توجد في المدن ، ثمّ ندخل بيتنا ، سيكون على رأس تلّة ، مخبوءاً بين شجيرات العنب والتين ، ليس فيه الاّ باحة صغيرة وغرفة واحدة تفوح منها رائحة (الحوارة) التي تطلي بها الفلاحات جدران بيوتهن ، كم أحب هذه الرائحة المنعشة ، رائحة التراب الندي ، في صدر الغرفة فراش ، وقرب الموقد بساط وبضع وسائد . غرفة معلم في قرية نائية.سنبدع من هذه الحياة المتواضعة عالما من السحر والجمال ، من الحب والحنـــان ، والفرح والبهجة ، سنسهر على بيادر النجوم ، ونصحو على تلاوين الشفق ، وزقزقة العصافير .

غفوت على الحلم الاسطوري ، والامنيات العذبة ، كنت جائعة الى النوم جوعي الى الطعام ، وأغرق في سبات عميق .

صحوت في الضحى على صوت أم عبدو تحكي لأمّي في الطابق التحتاني بصوت عال ، لم أفهم ممّا تقول شيئا . ناديتها فصعدت اليّ وقالت وهي تبكي وتلطم وجهها :

ــ مصيبة كبيرة ، حلّت بحارتنا ، الحارة قائمة قاعدة ، اليوم عند صلاة الصبح اغتال الفرنسيون عادل ابن أبي سعيد الخبّاز . . .

شهقت كقطعة حديد ملتهبة اندلق عليها ماء بارد . . . . الطعنة النجلاء لا تشعر بالألم فورا . . . رحت أردد بخفوت وذهول :

مات عادل ، وانتهى كل شيء ! . . . .

لم صرخ ، لم أنفجر باكية . ببلاهة أنظر الى أم عبدو التي كانت تحكي وتبكي ، وتصف جمال عادل وشبابه الغض ، يقولون ليس لعادل اعداء الا الفرنسيون ، من يقتله يا ستي غيرهم ، الله ينتقم منهم يا رب ! . .

بمثل ومضة برق خطر ببالي راغب . . لكن لا لا مستحيل. أيصل به الحقد واللؤم الى حد الاجرام . وعدا ذلك هو لا يعرف عن علاقتي بعادل شيئا سوى انه رآنا يوم المظاهرة قادمين معا ، أيرتكب جريمة لمجرد الظن ؟ ؟ لا ، لا ، مستحيل . . . .

الفرنسيون وجدوا عادل خصما عنيدا ، قد يكون بلغهم أنه أسقط لهم طائرة أيام الثورة فأرادوا أن ينتقموا منه ، أو يزيحوه من طريقهم ، أن يجعلوه عبرة لغيره من الشباب المتحمس ، ألم يكتب الي البارحة يقول ، أشعر انني مراقب . . لو قبلت أن أفر معه البارحة عند منتصف الليل الى القرية النائية أما كنت أنقذته من الاغتيال ؟ . . .

أنا المجرمة ! . . . .

برودة تسري في أطرافي ، أسياخ محماة تنغرز في عيني فتفيض منهما الدموع ، خلية نحل تطن في رأسي ، أغمض عيني ، الحياة لعبة ، لعبة سخيفة بلهاء لا تستحق اهتمامنا . . . . .

أفتح عيني ، لا أجد أم عبدو أمامي ، لا أدري متى انصرفت ، تتركز نظراتي على النافذة . . . بقفزة واحدة أهوي الى أرض الديار وينتهي كل شيء وأستريح راحة أبدية . .

أتصور أمي المريضة تركض وترتمي على جثتي الممزقة ، تتخبط

حولها كدجاجة مذبوحة ، وعندما يبلغ الخبر أبي ستهطل الدموع من عينيه كعجوز مفجوعة ، وينسى تقاليد الرجولة التي يقسر نفسه عليها .

لا ، لا ، لن أفجع العجوزين ، لست أنانية الى هذا الحد ، ألا يكفيهما فجيعتهما بسامي ؟ سأظل أجتر حزني بصمت . سأواريه في أعماقي ، لن أطلع عليه أحدا ، سأضن به ضن البخيل بماله ، سأدلله ، وأسهر معه الليالي الطويلة فاذا أصبح الصباح تبلد حسّي ، أعيش كالميتة لا يهمني شيء من أمور هذه الدنيا ، أعمل كآلة بلا تفكير أو حس ، فاذا رحل العجوزان عن هذه الدنيا سأعرف كيف أضع حدا لحياتي . . .

* * *

أضيفت الى هذه الصفحة من المذكرات صفحة أخرى ثبتت عليها بدبوس كتب فيها :

بعد عشر سنوات من هذا التاريخ ، طرق علي الباب ذات صباح فتحته فاذا صبية لا أعرفها قالت لي :

ـ أنت الست صبرية ؟

قلت :

ـ نعم ، أنا هي ، ماذا تريدين ؟

قالت :

ـ جدتي أم فوزي الداية تريد أن تراك قبل أن تموت ، انها الآن تحتضر .

خطر لي فورا أن أرفض . ما لي الآن وللداية أم فوزي ؟ . . . لكن تحرك فضولي وتساءلت ما عساها تريد مني هذه المرأة المحتضرة ؟ تركت أبي المفلوج وحده في البيت ، وذهبت مع الصبية . لم يكن بيت أم فوزي بعيدا عن بيتنا . أدخلتني الصبية الى غرفة في صدرها فراش قذر تمدد عليه جسد نحيل يلهث ، تفوح منه رائحة كريهة . كدت لا

أصدق أنّ هذه الكومة من العظام هي تلك المرأة البدينة أم فوزي الداية .

أومأت كومة العظام الى الصبية أن تخرج من الغرفة ، ثمّ قالت لي بصوت خافت كالانين وألفاظ متقطعة :

– سامحيني يا بنتي قبل ألقى وجه ربّي ، أنا أخطأت بحقّك ، أتذكرين الرسالة التي جئتك بها من عادل ابن الخباز ؟

قلت :

– نعم أذكرها . .

قالت :

عندما خرجت من داركم أحمل جواب الرسالة رأيت أخاك راغب في الحارة ، لعب الشيطان بعقلي ، وغرني المال ، فساومت أخاك على الرسالة وقبضت ثمنها ، ودفعتها اليه ، فقرأها وأعادها اليّ . في نفس اليوم قتل عادل . لا أدري حقا اغتاله الفرنسيون كما يعتقد أهل حارتنا ، أم أخوك هو الذي اغتاله ؟ لقد عشت عمري بعد هذه الخطيئة التي اقترفتها معذبة ، لا أعرف الراحة أبدا ، سامحيني يا بنتي قبل أن أموت .

نظرت اليها بقرف ، بصقت على الارض وخرجت دون أن أنطق. تريد الشريرة أن أسامحها بعدأن كانت السبب في قتل عادل ،وتحطيم حياتي !

فعلها المجرم اذن . . . الآن وضحت الحقيقة . . ما كان شكا في قلبي أصبح الآن يقينا ، حقدا أسود . . .

راغب قتل عادل بعد أن قرأ الرسالة . . ألم يقل يوم المظاهرة : أنا سأعرف شغلي معه . . . . قد يكون أرسل اليه من يغتاله ، وكان هذا سهلا في تلك الايام ، المرتزقة كثيرون ، والسلاح متوفّر لديهم ، وبقليل من المال ينفذون ما يطلب منهم دون تردد أو خوف . ممّن

يخافون ؟ الفرنسيون يسندونهم وقد يكافئونهم اذا أراحوهم من أمثال عادل . .

المرأة الشريرة الجشعة أم فوزي عاشت بعد فعلتها الدنيئة معذبة الضمير أمّا راغب فلم يبد عليه أي عذاب أو ندم ، كان يعيش مرتاح الضمير راضي النفس ، ألا يكفي انّه أنقذ شرف العائلة وحال دون زواج أخته من ابن الخبّاز ؟ ! . . .

ما الذي دعا هذه المرأة المحتضرة أن تنبش الرماد في قلبي حتّى تصل الى الجمرة المطمورة فيه فتنفخ فيها أنفاسها المتقطعة حتّى تشعلها من جديد ؟ . .

لم أنفجر كبركان بعد أن عرفت الحقيقة الفظيعة ، بل أشعر أنّ قلبي يحترق كقطعة من الصوف ، تأكلها النيران على مهل دون أن تشتعل ويتصاعد لهبها . كان دخانها الخانق يعشعش في حنجرتي ، أختنق ، ولا أموت .

★ ★ ★

ركود غريب يطرأ على المذكرات ، صفحات بيضاء تليها صفحات لم يخط فيها شيء سوى التاريخ في أعلى الصفحة . ممّا يدلّ انّ كاتبتها تعيش فعلا كالميتة ، يمر اليوم وكأنها لم تعشه ، أو تنفعل بأيّ حدث من أحداثه لتدونه في مذكراتها .

أحيانا تسجل في بعض الصفحات سطرا أو سطرين دون أي تعليق كمن يكتب خبرا لا أهمية له كأن تكتب مثلا :

لم أنم البارحة أبدا ، فاجأت أمّي نوبة ظلّت تعاني منها حتّى الصباح .
وبخط مضطرب تكتب بعد هذا الخبر :

متى سينتهي عذابها ؟
كأنها تتمنّى لها أن تموت .

بعد أخبار كثيرة من هذا القبيل لا أهمية لها تسجل عمّي ما يلي : مؤامرة تحاك لي : أبي وأمّي يريدان ارجاعي الى المدرسة ، يبدو ان أبي يعذبه الندم . يؤلمه صمتي الجريح المغلف بالكبرياء . أمّي تعتقد أن سبب ذبولي وكآبتي هو اخراجي من المدرسة . رفضت طلبهمابتشف . لم يدركا بعد انّني أعيش كالميتة بسببهما فقط .

يعزّ علي أن أفجعهما بشكل آخر ، لماذا أعود الى المدرسة ولم يبق لي أي هدف أسعى اليه من ورائها ! . . .

أيها الساكن في سويداء قلبي ، يا من رحل عن الدنيا ولن يرحل عني أبدا ، أليس عودتي الى المدرسة خيانة لك ؟ خيانة لاحلامنا !آمالنا التي تحطّمت كقطعة من الكريستال الشفاف على صخرة صمّاء . . .

قطعت صلاتي كلها بالمدرسة ، أحرقت كتبي ودفاتري ، ظللت أتهرب من زميلاتي ، وأطلب من أم عبدو أن تنكر وجودي في والبيت كلّما جئن لزيارتي حتّى انقطعن عني بعد أن يئسن مني .

الانسانة الوحيدة التي أرغب في رؤيتها هي نيرمين ، لا أدري لماذا انقطعت عني . بعثت اليها برسالة مع أم عبدو بعد أيّام قلائل جاءتني ، كدت لا أعرفها ، انها لا تقل عني شحوبا وذبولا ، صعدنا الى غرفتي قلت لها :

– ما لك يا نيرمين؟كدت والله أن لا أعرفك،ولماذا انقطعت عني؟
نظرت الي نظرة امتزج فيها الالم بالسخرية ، ورجفت شفتها

العليا فعضت على السفلى ، وأغمضت عينيها ، وبلعت دموعها وقالت لي بصوت مرتجف :

– تزوجت ! . . .

صرخت باستغراب :

– تزوجت ؟ . . .

هزت رأسها ورددت: نعم تز . و . و . جت . ثم فتحت عينيها وقالت وهي تضحك بسخرية أليمة :

– ما لك ؟ لم لا تهنئيني ، ألا يهنئون العروس ؟

قلت :

– ولكن أمرك لا يشجعني على أن أهنئك .

قالت :

– عزيني إذاً ، قولي كلمة .

قلت :

– لا أدري ماذا أقول وأنا لا أعرف عن قصتك شيئا . قالت :

– تريدين اذن أن تعرفي القصة ، تأكدي انها ليست غريبة ، مثل آلاف القصص التي تجري في بلادنا منذ قديم الزمان . .. . تزوجت يا عزيزتي من عجوز غني كان صديقا لأبي ، توفيت زوجته منذ زمن بعيد . ولما زوج بناته الثلاث – أنا في عمري صغراهن – أصبح وحيدا ، صار يتردد الينا من حين لآخر ، ويجد في زيارتنا بعض السلوى ، وكان قد عرف ما آل اليه حالنا بعد الثورة فراح يعرض علينا مساعدته بسخاء وكرم ، مصرا أن نعتبره أخا لأبي الذي كان يكن له من الحب والود مثلما يكن الاخ لأخيه .

في باديء الامر ظننت انه معجب بأمي . كنت أتساءل : لو خطبها هل تقبل أن تتزوجه وقد تخطت الخمسين من العمر ؟ وكلما رأيتهما معا يتسامران راح يخامرني شيء من الشك ، ربما كانا يحبان بعضهما بعضاً أيام الشباب وقد كبتا ذلك الحب، وتهربا منه وفاءاً لزوجيهما، فلما تكررت اجتماعاتهما الآن تحركت ذكريات الماضي في نفسيهما . وكم حاولت أن أفضي لأمي بما يدور في نفسي لأؤكد لها أن زواجها، من (عمو شكري) لن يزعجني أو يسيء الي أبدا ، ولكنني لم أجرؤ على مفاتحتها ، كان لها هيبة كبيرة في نفسي .

أما بعد أن زوجتني من هذا العجوز فقد انهارت تلك الهيبة. أصبحنا نتشاجر كل يوم ، مهما أسأت اليها لا يشتفي قلبي . . . لا أدري كيف استطاعت أن تهيمن علي هيمنة كالسحر ، لم أصح منها الا بعد أن تم الزواج ، وأصبح العجوز يستبيحني كل يوم . . . الآن أدركت ما معنى الارض المستباحة . . . وأي ذل ، وهوان ، وقهر ، ينطوي عليه هذا المعنى ، لقد استغلت أمي يأسي من الحياة ، وزهدي بحب أي انسان بعد سامي ، فاستطاعت أن تنفذ ما تريد .

كنت أصغي اليها ذاهلة دون أن أنطق بكلمة ، فلما انتهت من سرد قصتها ، قلت :

— أكاد لا أصدق ما أسمع منك يا نيرمين ، ما الذي حدا بأمك لأن تضحي بك وهي على ما علمت ذات ثقافة، وتجربة بالحياة وفهم وذكاء؟ قالت :

— ولم لا تصدقين ؟ كأنك يا حبيبتي لست من أهل هذه البلاد ! .

ألا تعلمين أن تضحية المرأة عندنا واجب لا شكر عليه ؟

ضحكت في سري . . . . إليّ يقال هذا الكلام ؟

أتمّت نيرمين كلامها :

— أمّي ضحت بي من أجل أخي ، أليس هو الذكر وأنا الانثى ؟ . . ظل زوجي يبعث الى أخي بالمال حتّى أتمّ فحوصه ، واشترى أدوات العيادة ، وتذاكر السفر له ولزوجه الفرنسية ، وما كاد يصل الى دمشق حتّى استأجر عيادة وبيتا لسكنه ، هذا كلّه من مال زوجي . الذي يقهرني حتّى الموت انّ أخي لم يشعر بتضحيتي في سبيله أبدا ، فهو لم يسألني مرة : هل أنا سعيدة مع هذا العجوز ؟ ولم تزوجته ؟ ان اهتمامه كله الآن ينحصر بزوجه الفرنسية ، انّ أخشى ما يخشاه هو ألاّ تنسجم مع عادات وتقاليد بلادنا المتأخرة ، لم يخطر له مرة أن يرفّه عني ، فيدعوني الى نزهة من تلك النزهات التي يقوم بها مع زوجه . انّ الذي يغيظني أكثر انّ أمّي راضية عنه كل الرضا ، لا يهمها الا أمر نجاحه وسعادته . لن أغفر لها فعلتها معي أبدا . أصبح بيني وبينها هوة سحيقة ، وتحول انسجامنا وحبنا الى تنافر وتباغض .

المصيبة الاكبر ان العجوز غيور أيضا ! . . لا يسمح لي أن أخرج من البيت الاّ برفقة أمّي ، فأضرب عن الخروج لانّني أصبحت لا أحب رفقتها ، اغتنمت اليوم فرصة غيابه عن البيت فارتديت ملابسي على عجل وخرجت دون أن تراني أمي ، يجب أن أعود الآن قبل أن يرجع هو ، لا قبل لي بمناقرته وعتابه ، ولوم أمّي وتحاملها علي ، شيء يسحق النفس . . .

قامت نيرمين فتعانقنا وتبادلنا قبلة طويلة وانصرفت دون أن أحكي لها شيئاً عن مأساتي .كنت احسب نفسي اتعس مخلوق على وجه الأرض فاذا نيرمين أتعس مني ! . . . حقا هناك توافق كبير بين حياتنا نحن الاثنتين ، هي استشهد حبيبها ، وأنا اغتيل حبيبي ، أنا انقطعت عن الدراسة ، وهي انقطعت عنها أيضا ، النتيجة واحدة ولو تباينت الاسباب ، هي تعيش مع أسرتها في جو من الكره والبغض أكثر مني ، ألا يكفي انها مجبرة على النوم والتلاحم كل يوم مع انسان تكرهه حتى الصميم ؟

يا الهي مافظع هذا . . ، في اية مذلة ، ومهانة ، وحقارة تعيش هذه الفتاه الرقيقة الناعمة ؟ ! . . . . بينما انا لا أكره امي وابي بل مازلت ابذل لهما من نفسي ، واجد بعض الراحة في هذا البذل ، اكره اخي راغب ، لكن اجدني مجبرة على مسايرته ، استطيع ان اتوارى من وجهه متى شئت . وفي هذا كله بعض العزاء .

★ ★ ★

لم تعد عمتي تؤرخ مذكراتها بالأيام ، صارت تؤرخها بالشهور . معنى ذلك ان ايامها اصبحت متشابهة تنجر وراء بعضها كجثث ميتة . بتواريخ متباعدة جدا تدون بعض الحوادث التي تراها هامة :

اصبح ابي لايطاق . . . دائما ضيق الصدر ، عابس الوجه ، سريع الغضب ، لايكف عن الشكوى ، ولايمل التذمر من وقف الحال ، والخوف من الافلاس ، انه يصب شكواه على امي المسكينة باستمرار فيسبب لها الحزن والمرض .

اما آن لهذا العجوز ان يشبع من دنياه ؟ . . من الربح والخسارة ، من العمل المتواصل ؟ وماذا سيحدث لنا اذا افلس ؟ انه يعرف تماما اننا لن نموت جوعا .

راغب لايأتي الى البيت الا آخر الليل. اتحاشى النظر اليه والحديث معه ماإستطعت ، لانتكلّم الاّ في امر ضروري دون ان ينظر احدنا الى الاخر .

اعيش ببلادة سلحفاة في قوقعتها . لايهمني مايجري في البلد من احداث كنت فيما مضى اتابعها بلهفة . لااخرج امام الضيوف الالأقدم لهم فنجان قهوة او شاي ، ثم أتوارى في غرفتي ، لااخرج من البيت الاّ لأستدعي الطبيب اذا فاجأت امي نوبة ولم يكن في البيت احد سواي ، أو لأشتري دواءا من اقرب صيدلية .

امّي تصر علي ، وتقنعني لأذهب الى الخياطة لتخيط لي بعض الاقمشة الجميلة التي اختارها لي ابي من دكانه ، مسكينة امّي ! . . . تحسبني اعيش كغيري من الصبايا افرح بالثوب الجديد ، والحذاء الجديد .

رفضت طلبها ، شيئ مضحك . . . ماحاجة واحدة مثلي إلى الثياب الجديدة ؟! انّ ما لدي منها يكفيني عمري كلّه .

●

احب الساعات الي حين آوي الى سريري . من اعماق الظلام استقدم طيف الحبيب الغالي ، تنبثق امامي هالة من نور يتكون في وسطها الوجه الذي اعشق ، ترن في اذني الضحكة المرحة كلحن يعزفه صبي عاشق في ضوء قمر صغير ، تبرق الاسنان اللؤلؤية في الوجه الاسمر ، وتتغرز الغمازة ، اتحدّث اليه ، يتحدّث اليّ احاديث كنا نتبادلها ولا نشبع من تكرارها . لأشكواليه تعاستي وتفاهة ايامي . البارحة صحوت عند الفجر من حلم واضح كاليقظة تماما ، فاذا انا اضم الوسادة الى صدري بشوق لاهف ، وكأنني اضم عادل ، اقول له ، ويقول لي كلمات لم

يقلها عاشق لمعشوق . دفعت الوسادة عني ونهضت من سريري واقفة وانا اسمي بالله واتساءل أهذه هي بوادر الجنون ؟

ضحكت من نفسي . وهل يعرف المجنون بوادر جنونه ! . . .

ثم اليس تصرفي كلّه، منذ أن بدأت استقدم كل ليلةطيف الحبيب جنونا في جنون ؟ . . . ماذا يخيفني ؟ . أليس الجنون أرأف وأرحم بي من هذا العقل السمج الذي لم اجن منه الاّ التعب والعذاب ؟

عدت الى سريري ، عانقت الوسادة بشوق اكبر وانا اقول :

– تعال يابحر الجنون لأغرق فيك وأنسى ماضي وحاضري ومستقبلي .

★ ★ ★

حادثة طريفة حدثت البارحة في بيتنا .

دخل راغب غرفة امي قبل ان يذهب الى وظيفته وقال لها على مسمع مني :

– سآتيكم اليوم بفتاة لطيفة وشاطرة لتساعد صبرية بشغل البيت والاعتناء بك ، ثمّ تتسلّى معها صبرية في وحدتها .

قالت امّي باستغراب شديد :

– واين وجدت تلك الفتاة ، وما هي ؟

قال بلا مبالاة ، وصوت خفيض و كلمات متلاحقة :

– فتاة مسيحية ، تعرفت عليها في الديوان اثناء الوظيفة . جاءت

تطلب مساعدة من الدولة ، لانها غريبة ويتيمة ، كانت انت مع والديها ليزوروا بلادنا فقتل ابواها في حادث سيارة ، ونجت المسكينة ، وبقيت وحدها ، غريبة لاسند لها ولامعين .

قالت امّي :

ـ ياساتر ، يالطيف من مصائب الدهر . . .

ثم اردفت :

ـ انتظر ياراغب لنأخذ رأي ابيك قبل ان تأتي بها ، وهل انت متأكد من صدقها ؟ أتدخل علينا فتاة لانعرف عنها شيئا ؟

قال :

ـ من هذه الجهة كوني مطمئنة ، هل انا غبي الى هذا الحد ؟ لقد عرفت عنها كل شيْ ، يتيمة بريئة ، ومسكينة . سأذهب الان الى ابي في الدكان واحكي له عنها ، فاذا وافق اتيتكم بها عند الغداء ، ارى ان نعطيها غرفة النصية لتنام فيها ، وستعيش معنا بيننا وكأنها واحدة منّا ، لنا ثواب كبير عند الله .

ثمّ خرج مسرعاً كأنّه يريد ان ينهي الحديث قبل ان يسمع منا أيّ تعليق عليه .

قلت لأمّي :

ـ انا لم اشك لراغب التعب في خدمتك ، او الضيق من الوحدة ليأتينا بهذه الفتاة .

قالت أمي :

ـ سبحان الله.. انّه اخوك الكبير يابنتي ، لماذاتسيئين به الظن دائما.. لأنه يغار عليك ، ويفكّر بمصلحتك ؟ انتظري لنرى ماشأن هذه الفتاة

فاذا لم تعجبنا فما اسهل الاستغناء عنها ، وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم .

قلت :

– لااحب ان نتجادل في مو ضوع راغب الذي طالما تجادلنا فيه ، انت دائما ضعيفة الارادة تجاه راغب، كان يجب ان ترفضي تلك الفتاة منذ ان حدثّك عنها ، امّا اذا دخلت بيتنا فمن الصعب ان تخرج منه بالسّتر والسلامة ولو ذقنا منها الامرين ، مادام راغب وراءها . انا اعرف ابنك اكثر منك ، لم يأت بهذه الفتاة الا لغاية في نفسه . انتظري تري صدق قولي .

خرجت من غرفتها حانقة ، ولم اعد اليها . حين اقترب ميعاد مجيء راغب ظللت في باحة الدار ورحت اتشاغل بتقليم شجيرات الورد ، وانتظر مجيئه مع فتاته بفضول كبير .

في ميعاده تماما فتح الباب ودخل راغب ، ودخلت وراءه امرأة شقراء تحمل بيدها حقيبة ثياب صغيرة ، على وجهها مسحة من جمال ، وقحة النظرات رخيصة الهندام والزينة ، تسير وراءه وتهز ردفيها بابتذال .

منذ النظرة الاولى ادركت الغاية من مجيئها الى بيتنا . وقفت انظر اليها باستغراب دون ان اتقدم منها خطوة . قال لها راغب وهما يقتربان مني :

– هذه اختي صبرية .

مدت المرأة يدها فمددت يدي وتصافحنا وأنا اقول لها بفتور وصوت خفيض .

– أهلا وسهلا .

قال راغب :

– اسمها صوفي ، ونحن سنناديها صفية لأن نطقه اسهل على امّي وأبي .

رفعت المرأة حاجبيها المزججين وقالت بلكنة اجنبية خفيفة :

– ربما لاأرد اذا نوديت صفية ، لانّني معتادة سماع اسمي صو . . و . . في ونطقته ممطوطا وهي تزم شفتيها بغنج . زورها راغب ، وتحول بحركة من يده ورأسه كأنه يقول لها : اهكذا اتّفقنا ؟ . . . لايبدو عليها انها انزعجت من برودة لقائي ، سار راغب وسارت وراءه تتلوى وتهز ردفيها نحو غرفة امّي .

ظللت اراقبها من بعيد . مكثا قليلا ثمّ خرجا . قادها راغب الى غرفة النصية وتركها هناك لتفرغ حقيبتها . ونزل وهو يصفر لحنا مرحا ، ونادى ام عبدو لتهيئ لنا طعام الغداء .

جاءت امّي من غرفتها وجلست معنا على المائدة . كان الطعام مجدرة مع مخلل اللفت ، وباذنجان مقلي مع البقدونس المفروم ، والثوم المدقوق . قال راغب :

– غداؤنا اليوم مجدرة وباذنجان فقط ؟ ! على الرغم من انني احبهما كثيراً لكن لم يسبق لنا ان تغدينا مثل هذا الغداء ، من عادة امّي ان تنوع لنا اشكالا كثيرة ولذيذة .

ونظر اليّ وهز رأسه كأنه يقول لي : انّ هذا من تدبيرك انت . . . ولم يكن شهد الله من تدبيري ابداً كان من تدبير امّي ، جاء عن غير قصد منها .

قالت امّي :

– انا والله ياابني اشتهيت اليوم اكلة مجدرة .

قال بلؤم :

– ولكنها لاتناسبك ابدا .

قالت :

– مللت من الحمية ، فطلبت من ام عبدو هذه الاكلة التي تجيد طبخها اكثر مني .

بينما كنّا نتكلم كانت المرأة قد ملأت صحنها بالمجدرة وراحت تأكلها مع المخلل اللفت بشهية ونهم وتقول وهي تتلمّظ :

– كويسة المجدرة ، مالها ، كويسة .

ثمّ تأخذ الباذنجان وتمعسه بأصابعها مع البقدونس والثوم على طريقتنا الشامية ، كأنها عاشت بيننا وأكلت معنا مرات عديدة .

بعد الغداء راح راغب يعرفها على بيتنا ، دخلا غرفه كلها ، ثمّ صعدا الى غرفـــة الطيـــارة ، والسطح ، ولم ينزلا الاّ قبيل المغرب ، بعد صلاة المغرب عاد ابي من عمله ، ما كاد يجلس على مقعده في الليوان حتى جاء راغب وقدّم اليه المرأة. منذأن وقع نظر ابي عليها تجهّم وجهه وقطّب حاجبيـــه ، ولمّـــا انحنت المرأة لتقبل يده سحبها منها دون ان ينطق. ظلّ صامتا ينظر الى الارض ، والغضب باد عليه . وران الصمت علينا جميعا . ارتبك راغب ، بينما ظلت المرأة الشقراء تعبث بخصلة من شعرها ، وتتفرس في وجوهنا غير مكترثة لكل ما يجري حولها .

التفت ابي اليّ وقال بلهجه جافّة :

– لا اريد ان اتعشى . . . هاتي لي فنجان شاي مع كعكة الى غرفتي .

وقام وصعد الى غرفته ، قالت امّي :

ـ بعد اكلة المجدرة الثقيلة لااستطيع ان انعشى.انا ايضا سأشرب فنجان شاي فقط .

هيأت لهما الشاي ، واخذته الى غرفتيهما . دخل راغب والمرأة الى المطبخ وتعشيا هناك . شممت رائحةبيض مقلي . تحاشيت الدخول الى المطبخ . ذهبت الى غرفة أمّي وقلت لها :

ـ مارأيك ياستنا بهذه المرأة الطريفة التي جاءنا بها ابنك راغب ؟

قالت :

ـ استغفرك اللهم لاتحكينا كلمة كبيرة ، يظهر يابنتي انها من بنات الخطا،الله يصلحك ياراغب ، كيف سولت لك نفسك ان تدخل هذه المرأة الى بيتنا ؟ ! . . . والله يابنتي عندما حدثني عنها ظننت انها يتيمة صغيرة مسكينة مقطوعة من شجرة ، وأظن ان اباك ظنها كذلك حسب ماوصفها له راغب . قلت في نفسي : نربيها على ايدينا ، وستكون لك عونا في المستقبل ، لان ام عبدو ستتركنا عمّا قريب ، بدأ اولادها يشتغلون. امعبدو كبرت وتعبت وآن لها ان تستريح، لم يخطر ببالي ابدا ان راغب سـيأتينا بامرأة مقطعة ، موصلة ، بنت حرام بهذا الشكل . لااعتقد ان اباك سيقبل بوجودها بيننا . عرفت ذلك من تعابير وجهه . ولو كنت استطيع صعود الدرج ، لصعدت اليه الآن وفهمت منه ماينوي ان يفعله غدا .

قلت :

ـ المهم الا يأتي اليك راغب الآن ويلعب بعقلك كعادته ويقنعك لتقنعي ابي ببقاء هذه الآفة بيننا .

قالت :

ـ استعنت عليك بالله ماطول لسانك ، هل انا طفلة صغيرة ليلعب بعقلي ؟ .

ضحكت وقلت لها :

– لك سوابق معروفة .

ثم قمت وجئتها بالدواء فشربته وآوت الى سريرها .

صعدت الى غرفتي واغلقت بابها ، وانقطعت عن دنيانا ومشاكلها المعقدة ، لأنعم مع طيف الحبيب سويعات اضحك فيها على نفسي ولأهرب من واقعي المر التافه .

يبدو ان القدر شاء ان ينتقم لي ولو بعد حين طويل . . . بعد طلوع الفجر حين نهض ابي الى صلاته ، سمعت صوته يلعلع في الصوفة ، كما سمعت ذات يوم صوت راغب يلعلع في ارض الديار ، ويطرد ام عادل من بيتنا ويقول لها : نحن لا نزوج اولاد الخبازين . . . نشبت من سريري وشققت باب غرفتي قليلا وتواريت خلفه. رأيت ابي واقفا في اعلى الدرج يقول لراغب الذي كان على ما يظهر في منتصف الدرج أمام باب النصية :

– اخرج من بيتي الآن ياكلب ، أنت وهذه المرأة القذرة التي جئتنا بها . هل جننت ؟ . . انسيت انك تسكن في بيت شريف ضمن اسرة ، أم حسبت نفسك تسكن في ماخور ؟ . . . أنا لم أمت بعد لتتصرف بالبيت كما تشاء ياقليل الشرف .

صعد راغب بضع درجات حتى وقف قبالة ابيه تماما وقال له بتحد :

– انا أحب هذه المرأة . . . مالكم ومالي ؟ سأتزوجها على سنة الله ورسوله وقد جئت بها الى هنا لأعرفكم عليها قبل ان نتزوج .

قال ابي باستغراب :

— تتزوج امرأة عاهرة ؟ ابني انا يتزوج عاهرة ؟ ؟ . . .

قال راغب :

— والله انها امرأة شريفة ، وبنت عائلة محترمة .

قال ابي :

— اخرس . هذه بنت عائلة ؟ . . انّنا لانعرف قرعة ابيها من أي بلد ، لو كانت شريفة لما سمحت لكأنتتسلل الى غرفتها عند منتصف الليل قبل ان تتزوجها . . كنت أراقبك،رأيتك متى دخلت النصية ومتى خرجت منها .

قال راغب بصوت مرتجف :

— انها زوجتي امام الله ، لم يبق الا ان يكتب لنا الشيخ العقد .

قال ابي :

— ولكنه لم يكتبه بعد . . ولم تصبحا زوجين . انا لااسمح لك بالزواج من عاهرة . افهمت ؟ . اذا كنت مصرا على الزواج بها خذها واخرج من بيتي الآن .

قال راغب بصوت كسير :

— اخرج الآن ؟ الى اين تريدني ان اذهب قبل أن يطلع النهار ؟

قال ابي وهو يضع يده على خصره ويشير بيده الأخرى اشارة استهزاء :

— الى جهنم الحمرة . . . الى الماخور الذي اخذتها منه ، اتحسبني لأعرف بنات المواخير ، ؟ انا اعرف الواحدة منهن من بين مئة امرأة .

اعرفهن من تصرفاتهن المبتذلة ، من نظراتهن الوقحة .

قاطعه راغب بلهجة مسمومة مهددة :

ـ طيّب سأذهب بها الان ، ولن اريكم وجهي بعدها طول العمر . . .

قال ابي :

ـ روحة بلا ردة . . . من قال اننّا نريد ان نرى وجهك ، وجه النحس ، مات سامي وعشنا بعده لانستطيع ان نعيش بعدك انت يامغضوب ؟

ثمّ انكفأ الى غرفته وهو يبربر ، واغلق الباب خلفه بشدة فسمع له صوت ضج منه البيت .

عاد راغب الى غرفة النصية حيث المرأة لاتزال قابعة فيها . واغلق الباب خلفه . خرجت من غرفتي وسرت على رؤوس اصابعي . نزلت على الدرج بخفة ، واتّجهت صوب غرفة الجلوس الّتي تنام فيها امّي حين تكون مريضة لاتستطيع ان تصعد على الدرج ، وجدتها واقفة امام الباب مستندة الى عارضته وهي تلهث .

قلت لها :

ـ حزرت والله انّني سأجدك خارج فراشك .

قالت وهي ترتجف :

ـ انفضحنا . . . . . انفضحنا يابنتي امام الجيران . ياسواد وجهي منهم ، منذ سكنا هذا البيت لم يروا منّا ناقصة ، هل جنّ أبوك ؟ ألم

يستطع ان يصبر حتى يطلع النهار ، ثمّ يحكي مع راغب بهدوء ؟ ربما كان اقنعه ليتخلى عن هذه المرأة .

قلت :

هيهات أن يتراجع ابنك عن رأيه . . . لقد أراد أبي أن يضبط راغب بالجرم المشهود حتّى لا يكذب عليه ويظل يراوغ حتّى يتملّص من فعلته الشنعاء . أظنّ أنّ أبي ظلّ طول الليل ساهرا يراقب من شباك غرفته مدخل الدرج حتّى ضبط راغب خارجا من النصبة .الحق والله مع أبي ، رأى وقاحة ابنه ، واستهتاره ، وتحديه لنا كلنا ، فلم يعد أبي يستطيع السيطرة على أعصابه فانفجر كما رأيت غير آبه لأحد .

أعدت أمّي الى فراشها فجلست فيه وراحت تبكي وتندب حظها :

ـ الولد الرائع استشهد في ريعان شبابه ، الولد المرضي الآدمي خطفته منا امرأة عجوز وزوجته من بنتها العانس ، أكبر الاولاد تخلّى عنا من أجل امرأة . .

ونطقت بكلمة نابية على غير عادتها جعلتني أضحك وأكتم صوت ضحكتي . كنت أشعر بفرحة تغمرني ، ما أحلى لذة التشفي ! أنسي راغب يا ترى حين أقام البيت وأقعده ليمنع زواجي من عادل الانسان الشريف الرائع ؟ أما أن يتزوج هو من فتاة عاهرة فأمر لا أهمية له ، لأنه رجل ، والرجل مباح له كلّ شيء . . .

اسطورة الرجل هذه متى ستزول من مجتمعنا ؟ أم ترانا سنظل نتوارثها جيلا بعد جيل حتى تقوم القيامة . . .

ظللت مع أمّي أتحدّث اليها وأهوّن الامور ما استطعت خشية أن تفاجئها نوبة .

حين أشرقت الشمس رأيت راغب والمرأة ينزلان على الدرج ، راغب يحمـــل حقيبتين كبيرتين حشر فيهمـــا أشـــياءه كلها . والمرأة تحمل حقيبتها ويتّجهان نحو الدهليز . وضع راغب الحقيبتين على الارض وجاء الى غرفة أمّي ، فوجيء لمّا رآني الى جانبها ، كنت أبتسم بشماتة ظاهرة على الرغم مني ، وقف في العتبة متجاهلا وجودي وابتسامتي وقال :

– أمّي ، ارضي عليّ، ليس بيدي حيلة ، هذا نصيبنا ، لا تواخذونا أزعجناكم .

وانصرف بمنتهى البساطة واللامبالاة .

ما كاد ينصرف راغب حتّى نزل أبي من غرفته مرتديا ملابسه الكاملة ، نظر الى أمّي وكانت لا تزال تكفكف دموعها المنهمرة .

قال بانفعال شديد :

– ما لك تبكين يا مجنونة ؟ صحتّك في نظري تساوي مئة راغب . كلمة واحدة لا أحب أن أكررها ثانية ، لا أريد بعد اليوم أن أسمع ذكر راغب في هذا البيت لا بالخير ولا بالشر . اعقلي يالمرأة ماذا جنينا من راغب منذ خاق الى يومنا هذا الآ المتاعب والمشاكل ؟ وأخيرا باعنا بامرأة عاهرة . . لقد أصبح رجلا ، وموظفا فلا تخافي عليه هو لم يسأل عنّا ، فلماذا نسأل نحن عنه ؟ ، فليعش حياته كما يريد .

والتفت اليّ وقال :

– الله يرضى عليك خذي بالك من أمّك،الانفعال يضرها كثيرا . ثمّ اتّجه نحو الباب . قلت :

ـ انتظر قليلا سأغلي لك فنجان قهوة .

قال :

ـ سأشربها في المحل .

بعد أن ذهب أبي طلبت مني أمّي أن أكتب رسالة الى أخي محمود أبعثها اليه اليوم ، أصف له حالنا ، وأحكي له حكاية راغب وكيف طرد من البيت ، ثمّ أحكي له عن مرض أمّي وكيف يزداد يوما فيوما لبعد أولادها عنها . ثمّ أردفت أمّي :

ـ عساه بعد هذه الرسالة يشفق علينا ، فيعود مع زوجه الى دمشق ، لم يبق لهما ما يربطهما بحمص بعد أن ماتت أمّ زوجه .

بعد أيّام قلائل جاءني جواب الرسالة . فهمت منها أنّ محمود واقع في حيرة من أمره يقول لي :

ـ كلّما جاء أمر نقلي الى دمشق أطلب التأجيل ، لانّ زوجتي ترفض باصرار عنيد أن تسكن معكم . ولما أصريت على العودة الى دمشق عرضت عليّ أن نبيع البيت والدكان اللذين تملكهما في حمص وتشتري بثمنهما بيتا في دمشق نسكن فيه . انّني أشعر بالخجل من أبواي ، كيف أسكن بعيدا عنهما بعد هذا الغياب الطويل في بيت تملكه زوجتي وأرفض السكن معهما في بيت الاسرة الكبير ؟ هل تستطيعين أنت أن تمهدي للامر ، وتهونيه عليهما لأعود الى دمشق في أسرع ما يمكن ، لأنعم برؤيتكم كلّما عنّ لي ذلك ؟

ما كنت أحسب انّني سأنجح في مسعاي بهذه السرعة . لقد رضي أبواي على مضض منهما أن يعود محمود الى دمشق ويسكن مع زوجه بعيداً عنّا .

• • •

منذ أمد طويل لم أر أمّي فرحة مسرورة كما رأيتها خلال هذا الاســبوع الذي أمضاه محمود وزوجه في زيارتنا ، ريثما اشترت زوجه بيتا في دمشق انتقاه لها أبي .

بدأنا نشعر بشيء من التعاطف مع زوجة محمود ، كانت تسعى لرفع الحواجز التي بيننا ، تحاول أن تشعرنا أنها واحدة منّا ، تساعدنا في شغل البيت ، وتتقرّب من حماتها ، وتبدي اهتمامها بصحتّها ، فبدأت أمّي ترضى عنها ، لاسيما بعد أن رأت فتاة راغب (المزنطرة) كما كانت تنعتها ، كانت تقول لي :

— زوجة محمود امرأة معدلّة ، تعرف كيف تدير بيتها وتحفظ سمعتها لكن يا حيف لو كانت أصغر ، وأجمل ، وتنجب أطفالا ، لما كان لها نظيرا . .

بعد أن عاد محمود وزوجه الى دمشق أصبحا يزوراننا مرتين في الاسبوع فتنتعش أمّي بزيارتهما ، وتروح تشكوني اليهما لانني أصبحت كئيبة دائما شاردة الذهن ، أحب العزلة في غرفتي ، ولا أعتني بهندامي وتصفيف شعري كما يروق لها ، ولا أخرج أمام الضيوف ، ولا أزور أحدا ، حتّى انقطع الناس عنّا وأصبحنا نعيش في شبه عزلة .

• • •

الايّام المتشابهة الرتيبة تمرّ بسرعة عجيبة . أكاد لا أصدق أنه مضت سنة كاملة على طرد راغب من بيتنا . . بلغنا أنّه تزوج من المرأة الشقراء ، واستأجر بيتاً بعيدا عنّا . وانّه يعيش معها في هناءة وسعادة .

ذات يوم جمعة جاءنا محمود ومعه خالتي أم رشيد التي لم نرها منذ شهور بعيدة . استقبلها أبي بترحاب ومودة ، وعاتبتها أمّي لانقطاعها عنّا ، وأمّي مريضة لا تستطيع الذهاب اليها .

قالت خالتي :

ــ والله انني مشتاقة الى كلّ واحد منكم ، لكن يا حسرة عليّ ، أصبحت لا أستطيع الخروج من البيت الاّ نادرا ، يصعب عليّ أن أترك رشيد وحده بعد أن أصابته تلك المصيبة أصبح يحب العزلة ، مدمنا على الشراب ، وهذا أكثر ما يؤلمني منه ، وكثيرا ما يتشاجر مع أخيه لأتفه الاسباب ، يريده أن يترك الدراسة ويقوم بأعمالنا كلها كما كان هو يقوم بها والحكي بيننا سليم ولد جاهل ليس قد هذا الحمل ، وأنا أصبحت عجوزا ،لا أستطيع أن أشتغل كما كنت أشتغل أيّام الصبا.

قال أبي :

ــ هذا لا يجوز ، رشيد رجل عاقل ، يجب أن يتغلّب على عاهته ، هل هو أول واحد قطعت ساقه.. يجب أن نشجعه كلنا ليعود الى ممارسة حياته الطبيعية .

قالت خالتي :

ــ ليس لنا غيرك يا صهري ، رشيد يحبّك ويستمع لنصحك .

قال أبي :

ــ ان شاء الله سأتردد اليه من حين لآخر وأحاول اقناعه .

أعددت نارجيلتين واحدة لأبي ،وأخرى لخالتي أم رشيد التي كانت تدخن النارجيلة مثل الرجال . سحبت خالتي نفسا طويلا من الناربيش فكركرت النارجيلة كركرة موزونة ، ثم التفتت خالتي الى أبي وقالت وعليها سيماء الجد :

ــ هل صحيح يا صهري أنّ المرأة تخلق من ضلع الرجل الذي هو زوجها ؟

قال أبي باستغراب :

– وهل لديك أدنى شك في ذلك يا أم رشيد ؟

قالت :

– أحببت أن أتأكد من ذلك لأنك ما شاء الله أنت عالم بهذه الامور .

قال :

– اناهم ثبت ايماننا ، ونجنا من الشك .

قالت :

– قل لي اذن ما ذنب ابنك راغب اذا خلق الله من ضلعه هذه المرأة التي جعلها من قسمته ونصيبه ؟

قال أبي :

– استعنت عليك بالله ما أدهاك يا أم رشيد . . . الآن فهمت قصدك من هذا اللف والدوران . أرجوك لا تحاولي أبدا اقناعي بالرضا عن راغب ، أنا لم أمنعه من الزواج بمن يريد . لكن لن أسمح أبدا أن تسكن امرأة مشبوهة مع بنتي وزوجتي .

قالت :

– أنا لا أطلب منك أن تسكنه وزوجه معكم ، انما أطلب منك أن تسمح له أن يزوركم وزوجه كما يزوركم أخوه محمود . الدنيا يا صهري فيها موت وحياة ، وليس من الصواب أن تحرموا من ولدكم في الحياة . منذ أيام قليلة زارني راغب وزوجه . المرأة أسلمت وتحجبت ولبست ملاءة مثلنا . ان الله قبل التوبة ، فكيف لا نقبلها نحن ؟

قالت أمّي بصوت مرتجف :

– أنا يا أبا راغب مريضة على حافّة قبري ، أريد أن أشبع من رؤية أولادي قبل أن أموت .

تنهّد أبي وقال :

– لا حول ولا قوة الاّ بالله ، حسبي الله ونعم الوكيل ، افعلوا ما بدا لكم .

قال محمود :

– راغب وزوجه عندي في البيت ، سأذهب الآن وآتي بهما . . .

هذا كلّه اذن من تدبير أخي محمود . . انّه يعمل الآن كحمامة سلام بين أفراد الاسرة . شعرت بغصة في حلقي ، وانقباضا في قلبي ، وحنق على خالتي أم رشيد ، انّ أحدا غيرها ما كان ليستطيع أن يقنع أبي بالسماح لراغب وزوجه بالدخول الى بيتنا . . كم أخشى أن يعودا للسكن معنا أيضا فتعود الى بيتنا الراكد على أشجانه مشكلات ومشاجرات لم أعد أستطيع احتمالها وأنا في حالتي هذه .

* * *

ما كنت أحسب أن أمورنا المعقدة ستنحل بهذه السرعة ، لقد اجتمع الشمل ، وعاد راغب وزوجه ، ومحمود وزوجه الى البيت ، ودارت فناجين القهوة ، والاحاديث التافهة ، ولم يرد ذكر سامي الشهيد على شفة . . . لقد أصبح نسيا منسيا . . . . لقد وصل كل واحد من أفراد أسرتنا الى مراده الاّ أنا ! . . .

لم يعد أحد يشعر بمأساتي حتّى أبي وأمّي . . . لقد اعتادوا كلهم صمتي وكآبتي وذهولي .

لا شك ان الكنتين ، العضوين الجديدين في أسرتنا ظنتا انني خلقت هكذا ، فتاة ساذجة ، خجولاً ، منطوية على نفسها ، لا وزن لها بين أفرادالاسرة،ميزتها الوحيدة انها تخدم أبويها بحنان،وتدبّر شؤون البيت.

* * *

لم تعرفا صبرية الفتاة الطموح ، المثقفة ، يوم كانت تتقد حماسة واندفاعا ، وتبعث البهجة في البيت بأحاديثها وتعليقاتها الذكية ، يوم كان كل واحد من أخوتها يحسب حساب نقدها اللاذع ، تعرفانني ميتة الشعور والحس ، أجلس بينهم وكأنني غير موجودة .

أصبح أبغض الايام الي هو يوم الجمعة ، حيث كان يجتمع شمل الاسرة بعد صلاة الظهر ، فنتناول طعام الغداء معا . كان طعامنا يأتي مرة من بيت راغب ، ومرة من بيت محمود . لانني لا أستطيع وحدي أن أقوم بالطبخ ، وتنظيف البيت ورعاية أمي المريضة ، لا سيما بعد أن تركتنا أم عبدو .

كنت أشعر بينهم بغربة موحشة . وكم كانت زوجة راغب تثير حنقي فيما بيني وبين نفسي .

عرفت الخبيثة كيف تستميل أبي وأمي ، كانت حين تأتي لزيارتنا تلبس ثيابا محتشمة ولا تضع على وجهها شيئا من المساحيق ، وتتحدث باتزان ، تتقرب من أبي ، فتبدي له اهتمامها به ، وحرصها على خدمته وراحته . كم يخيفني أن يرضى عنها ويسمح لراغب في السكن معنا .

* * *

يبدو ان الانانية صفة ملازمة لبني البشر فلا ينجو منها أحد حتى الامهات .

كانت أمّي تدعو لي فيما مضى هذه الدعاء في كل مناسبة :

الله يبعث لك يا بنتي ابن حلال يسر قلبك وخاطرك . ثم تلتفت الى من حولها وتقول :

ـ نذرا عليّ اذا تزوجت صبرية أن أهديها هذه السجادة العظيمة التي أهداني اياها أبي يوم عرسي .

وتشير الى السجادة الكبيرة التي كانت تغطي أرض الصالة كلها . فلمّا مرضت لم يعد لسانها يجري بهذا الدعاء أبدا . لقد تناست أمر زواجي ! . . . من يخدمها ويؤنس وحدتها اذا تزوجت ؟ الامر الذي يشغل بال أمّي الآن هو ان كنتيها لا تنجبان أطفالا .

كانت تقول لي :

ـ ما أسوأ حظنا ! . . . سينطفيء اسم أسرتنا . . . محمود تزوج من امرأة عاقر ، وراغب تزوج من امرأة مشبوهة ، والمشبوهات قلما ينجبن .

* * *

اليوم حمل الينا محمود خبراً جعل أمّي تبكي فرحا . انّ زوجه حامل بعد عقم دام خمس سنوات .انها الآن في الشهر الخامس.لقد كتمت خبر حملها حتّى تأكّدت منه تماما ، وتحرك الجنين في بطنها ، يا لها من امرأة قارحة ، خشيت أن يشمت بها الاعداء ان لم يكن الحمل واقعا ، لاسيما سلفتها زوجة راغب .

حين عاد أبي من عمله زفّت أمّي اليه البشرى بصوت يتهدّج فرحا :

ـ أبشر يا أبا راغب ، أبشر بعد أربعة أشهر سنصبح أنا وأنت

جدين ، زوجة محمود حامل ، في الشهر الخامس ، أسألك يا ربّي أن تمدّ بعمري حتّى أستمتع برؤية حفيدي ، وبعدها لا يهمني متى أخذت أمانتك . . .

ابتهج أبي للخبر وراح يسألنا : متى كان ذلك ولماذا كتم عنّا الخبر الى الآن ؟ . . .

مضت الأشهر الاربعة دون أن أحس بها ، شأن غيرها من الشهور ، لكن أمّي استبطأتها كثيرا .

ذات صباح باكر جاءنا محمود يقول لنا إنّ زوجه وضعت بنتا ، إنها المرة الاولى التي أرى بها أخي محمود منفعلا بالفرح حتّى تكاد الدنيا لا تسعه .

امتعضت أمّي قليلا ، كانت تحلم بمولود ذكر يحمل اسم الاسرة . ثم لم تلبث أن أشرق وجهها وقالت :

— من يأتي بالبنت يأتي بالصبي ، عقبال الصبي يا ابني ، سأعطي بنتك اسمي . سمها سلمى .

قال محمود :

— أي والله ، انّه لأسم جميل ، يكفي انّه اسم أمّنا الحبيبة .

قالت أمّي :

— كي لا يمحى هذا الاسم من الاسرة ، فأنا على وشك الرحيل يا ابني . . .

قال محمود :

— لا سمح الله ، بعد الشر يا أمّي ان شاء الله تستعيدين صحتك الكاملة .

قالت :

ـ والله لو لم أكن مريضة لزغردت ، وغليت الكراوية وعزمت عليها الاهل والجيران ليباركوا لنا بالمولودة الغالية . لكن هكذا أراد لي ربّي .

ثمّ تفك أمّي من جيدها سلسلة ذهبية كانت تحيط رقبتها ولا تخلعها منها أبدا وقد علّق في السلسلة حجر عقيق مثلّث نقشت على احد وجهيه آية الكرسي وعلى الوجه الثاني اسم سلمى .

قالت :

ـ خذ هذه يا محمود نقوطا مني لسلمى الصغيرة كي تحفظها من العين .

بعد أن ذهب محمود ظلّت أمّي فترة ساهمة تفكّر ، ثمّ قالت لي في شيء من الخوف والتوجّس :

ـ أخشى يا بنتي أن تكون هذه المولودة بيضة العقر كما يقولون لانها أنثى جاءت بعد عقم طويل .

قلت متخابثة :

ـ يا لطيف من هذه المصيبة الكبيرة التي ستحلّ بنا، سينمحي اسم الاسرة الكريمة من الوجود ! . . .

* * *

صحة أمّي تسوء يوما فيوما . أصبحت لا تغادر فراشها أبدا . ولمّا حمل محمود الينا المولودة الغالية أجلسنا أمّي بصعوبة في سريرها ووضعنا الصغيرة في حجرها ، فضمتها اليها وبكت ، ثمّ قالت :

ـ خذوها عني لم أعد أصلح لشيء .

أصبح هوس أمّي الوحيد هو أن تستدعي الاطباء كل يوم لينقلوها

ممّا هي فيه من بلاء . كانت تعطي محمود حليها خلسة عن أبي الذي كان غارقا بالديون ، ليبيعها محمود ويدفع ثمنها أجراً للأطبّاء وثمنا للأدوية التي كانت كلها تذهب هدراً دون جدوى .

يقول الاطبّاء انّ حالة أمّي خطيرة جدا ، لقد أوشكت شرايين القلب على الانسداد .

* * *

ثلاث ليال لم أعرف خلالها النوم أبدا . كنت أرى أمّي تتعـذّب عذابا لا يوصف ، تموت وتحيا أمامي في الليلة الواحدة عدة مرات . لم أشك التعب لأحد ، ولم أطلب مساعدة أحد من أفراد الاسرة . كنت أكتم ما أكابده ، وما تكابده أمّي عن الجميع ، حتّى عن أبي نفسه .

* * *

ماتت أمّي ! . . . .

انطفأت الشعلة التي كانت تضيء بيتنا ، وتغمره بالحب الكبير والحنان الدافيء.يوم العزاء شعرت بحرج كبير أمام الناس . كانت خالتي أم رشيد تولول وتبكي وترثي أختها . أما أنا فلم تجر من عيني دمعة واحدة ، ولم أعرف أن أرثي أمي بكلمة . كأنّني أصبحت كصخرة صمّاء لايهزها شيء .

كابدت مشقة كبيرة فيأثناءأيام (العصرية) الثلاثة تبعهايومالخميس. كنت أجلس الى يمين خالتي أم رشيد والى يساري زوجتا أخوي ثمّ بقية الاهل ، كنّا نرتدي ألبسة داكنة ، ونضع على رؤوسنا أغطية بيضاء . نجلس صامتات ، نصغي الى قراءة القرآن الذي كان يتلوه شيخ ضرير يجلس في الغرفة المجاورة ، فاذا دخلت علينا المعزيات ، وكنّا يدخلن ثلاثا ثلاثا يمكثن قليلا ثمّ يخرجن دون أن يفهن بكلمة ،

كنّا نقوم ونقعد كلنا معا ، وكأنّنا أصنام ركبت على نوابض تحركها .

بعد ان انتهت ايام العزاء قال لي ابي :

– يصعب علي ان تبقي وحدك في هذا البيت الكبير حين اذهب الى شغلي ؟ مارأيك في ان نطلب من احد اخويك ان يسكن معنا .ليؤنس وحدتك ؟

قلت :

– ارجوك ياأبي ، اذا كنت تحبني وتريد راحتي حقاً ، دعني اسكن معاك وحدنا. لاأريد حتى خادمة صغيرة ، انا لاأتضايق من الوحدة ابدا بل اتضايق من الناس . سأتسلى اثناء غيابك بالقراءة وشغل البيت .

قال ابي :

– لك ماتريدين .

كان يحار في امري،يريد ان يرّفه عني فلا يعرف سبيلا الى ذلك .

حمل الي ذات يوم عصفوري كناريا في قفص جميل فتظاهرت بالفرح اكراما له فسرّ بذلك كثيراً .

كانت زوجة اخي محمود تتردد إلي بين حين وآخر . انها انسانة طيّبة وعلى الرغم من ذلك كنت اتضايق من زيارتها . متى يدرك هؤلاء الناس الذين حولي انّني لست بحاجة اليهم ، اشعر بالوحشة عندما اكون بينهم . واستأنس عندما اكون وحدي مع خيالاتي واطيافي ؟ .

بالامس جاءتني زوجة محمود قبيل العصر.جلسنا في الديوان . رأتني ساهمة كئيبة كعادتي فأرادت ان تسليني.قالت لي :

– من رأى مصائب غيره هانت عليه مصيبته . سأحكي لك قصة حدثت عندنا في حمص منذ زمن بعيد ، لابد انك سمعت اغنية مطلعها :

اسكابا يا دموع العين اسكابا   وعلى الحبايب شققنا التيابا

لهذه الاغنية قصة مؤلمة جدا ، كان يتواترها اهل حمص ، وطالما سمعت امي التي عاصرت هذه القصة ترويها لزوارنا .

كان في حمص ، رجل غني جدا ، عنده خدم وحشم وبساتين وضياع وعربة تجرها خيول مطهمة ، وكان يسكن مع اولاده وبناته ، وأحفاده في بيت كالقصر ، يحوطه بستان كبير ، يخترقه نهر العاصي وكانت اصغر بناته فتاة يافعة ، جميلة جدا ، يروق لها ان تتنزه كل يوم في البستان ، وتلعب مع ابن السائس الفتى الوسيم الذي كان يكبرها ببضع سنوات . احيانا كان يحلو للفتاة ان تركب حصانا في غفلة من اهلها فيسرع الفتى ويأتيها بحصان وديع من الاسطبل يرفعها عليه ، ثم يقود الحصان على ضفاف العاصي بين الاشجار الوارفة ، ويروح يغني لها بصوته الشجي اغنيات ناعمة مرحة ، وكان الفتى والفتاة يجدان في هذه النزهات متعة كبيرة ، ولم يلبثا ان احبا بعضهما حبا جارفا ، فلما كبرت الفتاة خطبت لابن عمها ، ويصعب عليها الامر ، فتتداول مع الفتى ، ويتفقان على ان يفرا الى قرية نائية تسكن فيها عمة للفتى عجوز ارملة ، وحيدة ، قد لاتضيق بهما اذا حملا اليها شيئا من المال ، وسيعيشان معها كزوجين .

لم يكن عسيرا على الأب وأبنائه ان يعثروا على العاشقين الصغيرين ،

فقتلوا الفتى فورا ، وألقوا جثته في نهر العاصي ، وجاءوا بالفتاة الى القصر ، وخشوا ان قتلوها ان تشيع القصة ، ويلوك الناس سمعة الاسرة العريقة ، فما كان منهم الا ان قيدوا الفتاة ، وجاءوا بأصغر اخوتها ، وكان لم يتجاوز الثانية عشر من عمره ، وأعطوه بارودة وأجبروه ان يطلق الرصاص على اخته ليقولوا للناس وامام الخدم ان الحادثة وقعت قضاء وقدرا . واطلق الصغير الرصاص على اخته ، ولما رآها تحشرج وتتخبّط امامه بدمائها جنّ جنونا ميئوسا منه ، اما الأم المفجوعة بابنتها القتيل ، وابنها المجنون فلم يعد يقر لها قرار في القصر ، كانت تهجره منذ الصباح ، وتسير وحدها كالمهووسة على ضفاف العاصي تبكي وتغني وكأنها تنوح :

اسكابا يادموع العين اسكابا وعلى الحبايب شققنا التيابا

وذات يوم خرجت كالعادة ولم ترجع . وذاعت القصة والاغنية في البلد كلها . ومع الايام نسي الناس القصة ، لكن الاغنية ظلّت خالدة لأنها كانت صادرة عن قلب مفجوع ، وراح الناس يضيفون اليها مقاطع جديدة لاتمت الى القصة بصلة .

كانت وهي تتحدث اليّ اتساءل فيما بيني وبين نفسي :

«االذي جعل امرأة اخي تروي لي هذه القصة ؟ هل جاءت عفو الخاطر ام عن قصد منها ؟ هل تعرف شيئا عن مأساتي مع عادل التي تشبه هذه المأساة فأحبّت ان تخفّف عني حين تروي لي مأساة افظع منها ؟ . . . .

لكن لا . لا . . من اين لها ان تعرف ؟ كانت منقطعة عنّا ،

تسكن في حمص ، حتى اخي محمود نفسه لايعرف شيئا عن هذه المأساة الا اذا حدثه راغب عن علاقتي بعادل ، ثم عن حزني الكبير عندما اغتاله الفرنسيون وقد يكون محمود قد نقل الحديث الى زوجه .

على الرغم من انني تألمت من القصة كثيرا لم ابد امام روايتها شيئا من التأثر حتى جعلتها تشعر انني لا أتجاوب معها مهما ساقت الي من الأحاديث لأفتح لها قلبي ، اخيرا انقطعت عن زيارتي واصبحت لا أراها الا يوم الجمعة حين يجتمع شمل الاسرة .

* * *

اصبح بيتنا بعد رحيل امي كبيت مهجور يرين عليه الصمت والوحشة. كنت بعد ان افرغ من تنظيفه اهيم بين حجراته كشبح ضال . كان لابد لي كل يوم من أن اغلي ثلاثة فناجين قهوة احملها الى الطيارة استعيد بالخيال تلك الفترة المشرقة من حياتي ؛ اجلس في المكان الذي كنت اجلس فيه امام عادل وسامي ، اتخيلهما امامي ، نشرب القهوة معا نتحدث عن الثورة والكتب وآمال المستقبل ، لقد تجمد شعوري بعد ان اغتيل عادل حتى لم يعد يلذ لي ان اقرأ كتبا او صحفا جديدة ، كنت أقرأ في الكتب القديمة وأتذكر تعليقات سامي وعادل على محتوياتها فلا امل منها . .

وعندما يجتمع شمل الاسرة ويتحدث ابي واخواي عن اخبار البلد والوضع السياسي ، واضرابات التجار ، واعتقالات الوطنيين ، والمظاهرات التي كان يقوم بها الطلاب ، والوفود التي يبعث بها الوطنيون الى باريز لتطالب بابرام المعاهدة بين سورية وفرنسا ، وتعنت الفرنسيين ، ومماطلتهم ، كنت اسمع هذا كله دون ان انفعل به ، او أشارك بالحديث ، مامعنى ان انفعل مادام لايسمح لي ان اشارك مشاركة فعلية

في هذه الاحداث الهامة التي تمر في وطني ؟ . . . ولوترك لي المجال لكنت اتممت المسيرة بعد استشهاد سامي وعادل ، ولأصبحت اكثر اندفاعا وحماسة عن ذي قبل . حين كنت في المدرسة دعيت زميلاتي الى تأليف جمعية نسائية تناضل الى جانب الرجال في القضايا الوطنية فاستجاب اكثرهن الى دعوتي .

لكن بعد حادثة المظاهرة حكم علي ان اعيش معزولة عن هذه القضايا كلها ، كمن يعيش خارج الدائرة ويتفرج من بعيد علىمايحدث فيها. كنت اضعف من أقاوم هذا التيار الجارف فحكمت على نفسي ان اعيش كالميتة . كان هذا هو الحل الوحيد !

• • •

ذهب اليوم ابي الى عمله ثمّ عاد بعد ساعة متجهم الوجه وقال لي :

ـ البلد كلها مضربة من اجل المعاهدة . لاادري متى سننتهي من هذه الاضرابات ؟ . . الى الآن لم نجن ايّة فائدة منها ! اصبحت الحالة لاتطاق . ماهذا الحظ السيئ الذي يلازمني ؟ يوم وصلت بضاعتي من الجمرك الى المحل اعلن الاضراب . لقد استدنت والله ثمنها بفوائد كبيرة ، كنت آمل ان ابيعها وأفي ديوني كلها من ارباحها وأخرج من هذه الازمة الخانقة التي تستحكم في منذ سنين ، واذ طلع لنا الاضراب . اذا طال امده ذهب الموسم ، وبارت البضاعة وافلس أبوك في آخر عمره .

قلت :

– لاسمح الله ياابي ، مايزال الموسم في أوله ، ولن يطول الاضراب اكثر من بضعة ايام .

قال :

– بضعة ايّام ؟ . . . يقولون ربّما استمرّ شهرا او اكثر حتى تبرم المعاهدات ، وهيهات ! . . .

• • •

حين اجتمع شملنا يوم الجمعة سمعت راغب يقول لأبي :

– لم نر سورية اضرابا شاملا كهذا الاضراب . الناس صامدة ومتحمسّة جدا على الرغم من الازمة الاقتصادية التي يشكو منها الجميع

تحول ابي دون ان يذكر شيئا عن اوضاعه المادية فقد كان حريصا ألا تعرف الكنتان عنها شيئا . قال لراغب :

– وكيف سيدبر الناس امورهم اذا امتد الاضراب طويلا ؟

قال راغب :

– لقد ألّفت لجان من الوطنيين في كل حي لجمع التبرعات وتوزيعها على العمال وصغار الكسبة ليدبروا أمورهم ريثما ينتهي الاضراب .

قال محمود :

– لقد سمح للفرانة واللحامة ان يفتحوا دكاكينهم ساعتين صباح كل يوم ليشتري الناس حوائج طعامهم فقط ثم تغلق الدكاكين كلها. سأمر عليكم قبل ان اذهب الى وظيفتي لأشتري لكم ماتريدون .

• • •

كان ابي متفائلا جدا حين قال : ربّما استمر الاضراب شهرا كاملا . لقد مضى مايقرب من الشهرين ولم ينته بعد .

لقد تحملت خلال هذه المدة الطويلة مشقة كبيرة من مداراة أبي. لم يعد يبرح البيت ، او يعرف ان يتحدث عن شيء سوى عن البضاعة التي ستبور ، والافلاس الذي ينتظره . لقد اصبح هذا الحديث لديه فكرة ثابتة لايتحول عنها . كنت مجبرة على ان استمع اليه بكثير من الصبر حتى تكاد احيانا تزهق روحي ، فليس في البيت احد سواي يستمع الى شكواه المستمرة .

رحم الله امي كم تحملت من هذه الشكوى . كان يخيل الي انه موشك على الانهيار او الجنون ، فأحاول جهدي ان أهون عليه الامر ما استطعت دون ان اناقشه فيه ، فانا ادرك ان النقاش معه لايجدي شيئا. لكم وددت ان اقول له : اذا كان في هذا الاضراب فائدة للوطن فما قيمة افلاس افراد امثالك ! ؟ . . . انت فقدت ابنك في سبيل الوطن ، ايصعب عليك ان تفقد مالك وقد اصبحت في آخر العمر ؟

لكن لااعتقد انّ المال وحده هو سبب مأساة ابي ، كان حريصا على سمعته كتاجر عريق ، وكان المحل غاليا عليه جدا عاش فيه ستين سنة ، كان في العاشرة من عمره حين بدأ يعمل فيه مع ابيه ، ومنذ ذلك الحين الى يومنا هذا لم ينقطع عنه ابدا ، يذهب اليه صباح كل يوم ولا يعود منه الا بعد صلاة المغرب. عاش فيه اكثر ممّا عاش في بيته ، حتى اصبح جزءا منه فكيف يهون عليه ان يطرد منه امام زملائه التجار ؟ كنت أراه يرفع يديه نحو السماء عقب كل صلاة يصليها ويقول :

اللهم لااطلب منك شيئا سوى ان اموت مستورا .

* * *

اخيرا انتهى الاضراب بعد ان اذعن الفرنسيون لارادة الشعب ، وذهب وفد من الوطنيين الى باريز لمفاوضة الحكومة الفرنسية في ابرام معاهدة بين سورية وفرنسا تضمن حقوق البلاد السورية .

فتح ابي متجره . وحدث ماكان يتوقعه تماما ، لقد انتهى موسم الشتاء وبارت البضاعة التي استوردها بالدين . كان يعود كل يوم من المحل مهموما كئيبا ، يقول لي :

— لم ابع ذراعا واحدا ، ولم استفتح بقرش واحد . لقد انهك الاضراب الناس ، من منهم الآن يفكّر بشراء الالبسة ؟ . . انهم احوج الى الطعام منهم الى اللباس .

وذات يوم جاء الدائنون على حين غرة من ابي ومعهم موظف الحجز فختم المحل بالشمع الاحمر وخرج منه ابي مقهورا ذليلا .

كانت الصدمة اكبر من ان يتحملها رجل شيخ في مثل عمره فوقع على الارض مفلوجا ، وبعث جيرانه التجار الى راغب ومحمود بالخبر . فجاءا وحملاه وعادا به الى البيت فاقد الوعي .

تلقيت الخبر بأعصاب باردة كأنّني كنت اتوقعه . ظننت انّ نهاية ابي قد حانت ، وأسفت ان تأتي على هذا الشكل المأساوي ! . . .

طلبت من أخوي ان ينزلا سرير ابي من غرفته في الطابق الفوقاني ويضعا السرير في غرفة الجلوس لانها اقرب الى دورة المياه .

رفعنا ابي على سريره ، وذهب محمود ليأتي بالطبيب .

قال الطبيب بعد ان فحص ابي فحصا دقيقا :

ـ قد يعود الى وعيه بعد فترة لااستطيع تحديدها الآن . امّا اصابته بالفالج فيؤسفني ان اقول لكم انّه ميؤوس منها جدا . القلب سليم والعمر بيد الله .

رددت في سري : القلب سليم ! . . . ياويلي الى متى سيمتد العمر ؟ ايّة مصيبة جديدة تلك التي داهمتني اليوم، وكيف سأتدبرها وحدي؟.

كتب الطبيب وصفة الدواء وناولها الى محمود وقال لي :

ـ التعليمات مكتوبة على الورقة . تستطيعين ان تسقيه الحليب او عصير الفاكهة بواسطة ملعقة ، يلي ذلك الدواء ، ملعقة منه كل ست ساعات ، واذا جد شيْ استدعوني متى شئتم .

انصرف الطبيب، وران علينا الصمت لحظات كأنّنا لم نستوعب بعد هذه المفاجأة غير المنتظرة . لاشك ان أخوي يفكران الان كيف يستطيعان ان يتركاني وحدي مع ابيهما المفلوج، وكأن كل واحد منهما يخجل ان يكون البادىء بالانصراف . احببت ان اخرجهما من هذا الحرج فقلت لهما :

ـ لافائدة من وجودكما معي . لم لايذهب كل واحد منكما الى بيته وقد اوشك ان يؤذن المغرب . ؟

قال محمود :

ـ كيف نتركك وحدك ؟ سأذهب وآتي بزوجتي وبنتي لننام عندك ونساعدك على تمريضه .

نطق راغب اخيرا وقال :

ـ يكفي ان نتناوب المجيْ الى هنا انا وانت فقط .

فهمت انّه لايريد ان يزعج زوجه المدللة . فقلت :

– دعوني اليوم أجرب تمريضه وحدي ، فاذا مشي الحال فلا داعي لازعاجكما . المسألة طويلة لايعرف لها اول من آخر .

وكأني قد اتيتهما بالفرج ، فلم يصرا على البقاء معي ، ولم يضيعا كلمة واحدة على سبيل المجاملة .

قام راغب اولا وألقى نظرة على ابيه تنّهد وتحوّل متظاهرا بالحزن وكان ابي يبدو وكأنه غارق في سبات عميق .

قال محمود :

– سآتيك بالدواء الآن .

• • •

كانت ليلة ثقيلة مرهقة . سقيت ابي بضع ملاعق من الحليب ثمّ ملعقة من الدواء . كان عندما تمس الملعقة شفتيه يفتحهما وهو مغمض العينين ويتلقى الحليب بسهولة ، بشكل غريزي كالطفل الرضيع لحظة يمس بشفتيه حلمة أمّه وهو مغمض العينين .

اكلت لقيمات من الجبن والزيتون امام النملية ثم جئت بلحافي ومخدتي وتمددت على الديوان المقابل لسرير ابي ، تغطيت باللحاف ورحت اتساءل :

هل خلقت نسيجا وحدي ؟ لقد تمرست بالمصائب الى حد تبلدت فيه عواطفي فلم اعد أبالي بشيء . لا أحب الشكوى او التذمر ، اجد فيهما ضعفـــا ومذلّة ، اتقبّل الواقع مهما كان . يخجلني ان اقول ان اكثر ماازعجني هذا اليوم هو ان ادع غرفتي التي اعتدت النوم فيها وأنام هنا على هذا الديوان لأراقب هذا المريض المفلوج الذي هو ابي .

لقد هجرتني اطيافي وخيالاتي التي كنت انعم بلقائها كل ليلة . لم يكن الجو ملائماً لمناجاتها ابدا .

شعرت بوحشة عندما اطفأت النور . كانت أشعة قمر صغير تتسلل من الشباك المطل على ارض الديار وترسم على جدار الغرفة المقابل للشباك ظلالا باهتة لأغصان شجرة النارنج ، تتحرك الظلال كلما هبّت نسمة حركة ايقاعية كأنها ترقص ، رحت أراقبها دون اي تفكير . الصمت المطبق على البيت الكبير جعلني اشعر بالخوف ، تحولت اطيافي الى اشباح ، تنبهت حواسي كلها ، راحت اذناي تتلقفان كل حركة او نأمة ، سمعت خربشة في اسفل الباب ، اضأت النور فاذا القط ظريف يريد ان يخرج من الغرفة ، اخرجته ثم اغلقت الباب ، عدت الى مكاني دون ان اطفئ النور ، لم استطع ان اغفو ، ظللت على الرغم من الارهاق الذي اشعر بـه اتقلب على الديوان حتى سمعت أذان الفجر . مسكين يا ابي في مثل هذا الميعاد من كل يوم كنت اسمع وقع خطواتك وانت تنزل على الدرج لتتوضأ ، اسمع صوتك الحنون وانت تتلو تسابيحك وتردد ادعيتك ، ثمّ تصلي ، ثمّ ترتل القرآن فاشعر ان الحياة ماتزال تمور في بيتنا ، حقاً لقد هجره اكثر سكانه لكنك انت يا ابي رب البيت. سيظل بيتنا مفتوحا مادمت حيّا ولو كنت مفلوجا .

نهضت ووقفت امام سرير ابي ، مايزال مغمض العينين ، صدره يعلو ويهبط بانتظام . سقيته الحليب والدواء . علي الآن ان اتفقده وأنظفه .

ارتبكت ، ياالهي كيف ابدأ ؟ تجرأت ورفعت اللحاف وجردته من سرواله ، اقشعر بدني وشعرت بالاشمئزاز ، ولكنّني استمريت ،

رفعت ساقيه المترهلتين الباردتين وسحبت من تحته الخرق المبتلة المتسخة التي كنت وضعتها تحتـــه فوق المشمع ، ثمّ مسحت الساقين بخرقة مبلولة ثم غطيته باللحاف. كان الامر اسهل ممّا توهمت ، شعرت وانا أنظفه كأنّني أم تنظف ولدها الصغير فتحرك في قلبي شيء من الحنان والرأفة .

بعد الظهر جاء راغب ومحمود ومكثا لدينا قليلا وقبل ان يذهبا سألاني فيما اذا كنت بحاجة الى مساعدتهما ، فاكدت لهما انّني لست بحاجة الى شيء .

أحب إلي ان ينصرفا ويتركاني وحدي .

بعد يومين بدأ ابي يستعيد وعيه شيئا فشيئا ، كان يفتح عينيه عندما اناديه وينظر الي نظرات تائهة ثم يتمتم بكلمات لاافهمها ، وبعد ايام قليلة استعاد وعيه كاملا .

بكى بحرقة عندما ادرك انّه اصبح مفلوجاً وراح يعاتب ربّه :

– لم يارب هذا العذاب كله ، لم لم تأخذني اليك مرة واحدة ؟ ثم يروح يستغفر ربّه ، ويرجوه الصفح والغفران على مابدا منه من لجاجة ونفاد صبر . شاع الخبر في الحارة كلها ، وزاد في ارهاقي زيارات الاهل والاصدقاء والجيران . كنت لاافتر عن الحركة لحظة واحدة ، استيقظ مع شروق الشمس ، انظف ابي ، أغير ملابسه وملاءات سريره ، اطعمه ، اسقيه الدواء ، اشطف ارض الديار ، ارتب البيت ، اغسل ، اطبخ ، اغلي القهوة للضيوف ، افتح الباب الذي كان يطرق

في كل لحظة ، وعندما . . . يمسي المساء . اصبح كتلة . . . اعصاب مرهقة .

* * *

بدأ سيل الزوار يخف شيئا فشيئا حتّى راغب ومحمود أصبحا يزورراننا مرة أو مرتين في الاسبوع . استسلم أبي الى مرضه وصار يرفض أخذ الدواء ، كان يقول لي :

– الذي ابتلاني يشفيني متى شاء .

لم أر أبي منذ أن ابتلي بمرضه القهار راضيا شاكرا ربّه كما رأيته بعد أن زاره أحد أصدقائه التجار وقد حمل اليه براءة ذمّة من دائنيه ، فلم يبق في ذمّته قرش واحد لدائن واحد ، وكان ذلك بفضل أصدقائه التجار الذين وقفوا منه موقفا نبيلا جدا ، فعندما طرحت بضاعته للبيع اشتروها بأثمان جيّدة اكراما لأبي فوفّى بثمنها الديون جميعها . كما استأجر المحل أحد جيرانه بسعر جيّد . وكنت أسمعه يقول :

– الآن أموت مرتـــاح الضمير راضي النفس ، مســـتورا ، لامعي ولا عليّ . أجار الدكان يكفيني وبنتي حتّى آخر العمر .

* * *

نيرمين هي النافذة الوحيدة التي أطل منها على الحياة . كنت أنتظر زيارتها صباح يوم الثلاثاء من كل أسبوع . كانت حين تخرج من عند الحلاق تمر علي فنمضي معاً ساعة وبعض الساعة نفضي الى بعضنا بهمومنا فنشعر بشيء من الراحة . كنت حين أسمع طرقاتها على الباب يخفق قلبي ، فأهرع اليها ملهوفة ، نتعانق ونتبادل القبلات فأشعر انّني أحيا ، وانّ الدماء تجري ساخنة في عروقي . . . لولا نيرمين لما أدركت حواسي

سير الزمن ، ربّما كنت نسيت في أي يوم من أيّام الاسبوع أنا . تكرّ الايّام الرتيبة المتشابهة دون أن نشعر بها .

* * *

فات ميعاد نيرمين هذا الثلاثاء ولم تأت . شعرت بخيبة مرة ، ضقت بنداءات أبي ، توترت أعصابي ، حرت ماذا أفعل ولمّا يئست من مجيئها دلقت شراب النارنج الذي صنعته من أجلها في البحرة ولم أذقه . . . أتراها مريضة ؟ أم ضاقت بزيارتي ففضلت عليّ صديقة أخرى تجد عندها شيئا من السلوى والترفيه عن النفس ؟ هي لا تخرج وحدها من البيت الاّ حين تذهب الى الحلاّق ، وراودتني فكرة .

سأنسرق من ابي المفلوج وأذهب أتفقدها في بيتها ، ثمّ عدلت عن ذلك ، خشية أن تضيق بي ، سأصبر حتّى الثلاثاء القادم فان لم تأت سأذهب اليها حتما .

مضى الاسبوع وكان طويلا مملا . ولمّا هلّ يوم الثلاثاء رتّبت البيت وعصرت شراب النارنج ووضعته في ابريق بلّلور على حافّة البحرة .

جاءت نيرمين في ميعادها ، أخذتها بين ذراعي وقبلتها بلهفة . قلت لها :

— كم عذبتني هذا الاسبوع . لقد انشغل بالي عليك .

قالت وقد بدت لي شاحبة جدا :

— أتدرين ماذا فعلت الثلاثاء الماضي ؟ عوضا عن أن آتي اليك ذهبت الى احدى الدايات ، وكنت شعرت انّني حامل منذ اسبوعين فأعطتني

الداية دواء طرحت على أثره حملي ، وقام في بيتنا عزاء ، أمي وزوجي يبكيان وأنا أضحك في سري شامتة بهما ، انهما لم يعرفا انّني أنا سبب هذا الاجهاض .

قلت :

ــ أمجنونة أنت يا نيرمين ؟ تأخذين دواء من داية جاهلة وتعرضين نفسك للخطر ؟

قالت :

ــ الحياة عندي لا تساوي قشرة بصلة . الموت أهون عندي من أن آتي بولد من رجل لا أحبه .

وأتمت بنزق :

ــ ألا يكفي انّني أبغض أمّي وزوجي وأخي ، أتريدين لي أن أبغض أيضا ولدي ؟ هذا أقسى أنواع البغض .

قلت :

ــ لكن ما ذنب هذا الطفل البريء ؟ ربّما أصبح سلوى لك .

تحولت وقالت :

ــ في اعتقادي ان الطفل يجب أن يكون ثمرة حب وانسجام ، لا ثمرة بغض وتنافر . في أي جو مسموم تريدين لي أن أربي طفلي لينشأ تعيساً معقدا ؟ . . . وهل تعتقدين انّني سأمضي عمري كلّه مع هذا العجوز السمج ، لا أفعل شيئا سوى أن أندب حظي وأنجب أطفالا ؟

نظرت اليها مشدوهة ، هذه ليست نيرمين التي أعرفها . ثمّ أردفت :

ــ بدأت استيقظ يا صبرية ، أو على الاصح أشفى من مرضي . . . أنا وأنت بليدتان أضعنا صبانا سدى .

قلت :

– ظروفنا هي التي تحكمت فينا .

قالت :

– لا . . وألف لا ، كان يجب أن نقاوم ، استسلمنا كنعجتين بليدتين .

قلت :

– برأيك ماذا كنا نستطيع أن نفعل ؟

قالت بصوت خفيض وهي تشد على الكلمات :

– نفر . . . نفر من هذا البلد اللعين وسكانه الاغبياء .

قلت مستغربة :

– نفر ؟ ؟ . . والى أين ؟

قالت :

– بلاد الله واسعة ، فلسطين ، لبنان ، . . تستطيعين هناك أن تعملي وتكسبي وتعيشي حرة طليقة ، اذا سدت في وجهك جميع السبل تعملين خادمة ، لا أحد يعرفك ، انّه أشرف في نظري من حبسك في هذا البيت المهجور مع هذا المريض المفاوج تجترين مأساتك ليلا ونهارا ، ألم يخلف أبوك أولاداً غيرك ؟ هم أيضا مسؤولون عنه . هنا تعملين خادمة غير مأجورة ، وأسيرة أيضا ، بينما لو عملت خادمة في أيّ مكان آخر لاستوفيت أجراً على أتعابك ، وعشت حرة طليقة كما تريدين أنت لا كما يريد لك الآخرون .

قلت بترفّع :

– أنا مت منذ أن اغتيل عادل ، وتحطّمت آمالي كلها ، لم يعد لي أيّة أمنية في هذه الحياة ، عشت كالميتة من أجل ألاّ أفجع أبواي العجوزين بشكل آخر .

ابتسمت بسخرية وقالت :

ـ كلام سخيف ، فارغ ، الميت لا يشعر مع الآخرين . أتعتقدين لو متنا أنا وأنت هل كان عادل وسامي يحزنان علينا أكثر من بضعة أيام قد لا تتعدى الاسبوع الواحد ؟ فما معنى أن نحزن عليهما نحن العمر كلّه ؟

فوجئت بكلامها ، فبلعت ريقي كأنّني لا أهضمه ، وقلت لها :

ـ عادل وسامي رجلان ، الحياة مفتوحة أمامهما ، أمّا نحن النساء فكل شيء مغلق أمامنا في هذا البلد . أتريدينني أن أتزوج مثلما تزوجت أنت ؟ الزواج الناجح في مجتمعنا مصادفة نادرة . خير لي أن أظل هكذا من أن أتزوج من انسان لا أحبّه ، أنا عشقت عادل ، أحببته حتّى الوله ، فأين هو ذلك الرجل الذي يستطيع أن ينسيني عادل ويحل محلّه ؟ ؟

قالت :

ـ هل تريدين من ذلك الرجل أن يطرق عليك الباب ويقول لك ها أنذا قد جئت فتعالي الي يا حبيبتي ؟ اخرجي من سجنك هذا . . . ابحثي عنه فلا بد لك أن تجديه .

قلت :

ـ كيف أخرج وأنا محكوم علي بالقوة بالبقـاء في هذا السجن ؟ لقد قاومت جهدي ولكني فشلت ، انّك تتحدثين وكأنّك لست بنت هذا البلد..هل استطعت أنت التي تخرجين انى شئت ، أن تجدي ذاك الذي ينسيك سامي ؟

احمر وجهها ، ارتبكت ، تلكأت . ثمّ قالت وهي تتحاشى النظر اليّ :

– ربّما وجدته . . ، ربّما ذات يوم . . .

وكأنها قد طعنتني في صميمي ! . . . قلت بعصبية بالغة :

– لقد وجدته فعلا ، ولكنّك تخفين عني أمرك ، ما عهدتك هكذا يا نيرمين ؟ ماذا طرأ عليك اليوم ؟ لست تلك الفتاة المثالية التي أحبها أخي سامي .

قالت ضاحكة :

– المثالية ! . . . ألم أقل لك لقد استيقظت من سباتي، من مثاليّتي اللامجدية ، لقد شفيت أخيراً .

ونظرت الى ساعتها وهبّت واقفة وقالت :

– لقد حان موعد ذهابي ، يجب أن أذهب الآن . الآن .

لقد شعرت انهــا تريد أن تتخلّص مني ومن أسـئلتي الملحة ، وتتهرب من نظراتي العاتبة فلم أصرّ عليها بالبقاء لتتناول شراب النارنج الذي تحبّه كثيرا . خرجت نيرمين دون أن نتبــادل القبلات كما هي عادتنا ، قالت لي قبل أن أغلق الباب وراءها :

– فكري بما قلته لك ، أنا أريد لك الخير ، أريد أن أخرجك من جحيمك هذا . ربّما أصبحت في القريب العاجل قادرة على ذلك .

قلت :

– شكراً لعواطفك النبيلة، ندبري أنت أمرك فأنا لست بحاجة الى أحد.

عدت الى أرض الديار أرتجف حنقا . كان أول ما وقع نظري على ابريق عصير النارنج الذي لم نذقه، ما يزال على حافّة البحرة . تناولته بيدي وطوحت به الى آخر الديار ، فتناثرت شظايا البلور، وسال العصير الذهبي على الرخام، وشعرت ان كل شيء بيني وبين نيرمين قد انكسر !

صرخ أبي يناديني فقد أزعجه الصوت الفظيع الذي جاء من ارتطام ابريق البلور بالرخام . أسندت رأسي الى جذع شجرة الليمون وأغمضت عيني وظللت هنيهة أسمع نداء أبي دون أن أرد عليه حتى هدأت أعصابي قليلا أو كادت، ذهبت الى غرفة أبي وجدته يبكي . قال حين رآني :

ـ ما هذا الصوت ؟ لماذا لم تردي علي ؟ لقد خفت ، خشيت أن تكوني قد وقعت على الارض أو أصابك مكروه .

قلت :

ـ اطمئن لم يصبني شيء ، أواني الفخار يا أبي لا تتكسّر .

قال :

ـ أنت فخار ؟ أعوذ بالله . . أنت من الصيني الممتاز .

ضحكت وقلت في سري :

ـ ربّما كنت كذلك بالنسبة اليك فقط .

أحزنني عجزه وبكاؤه من أجلي أكثر من أي وقت مضى ، وقفت أمام سريره أخذت يده وقبلتها فنظر اليّ باطمئنان .

قلت في سري :

ـ يا لك من قاسية يا نيرمين ! . . . الى من تريدنني أن أترك هذا العاجز وأفر معك ؟ الى الكنتين الغريبتين يعذبانه ويستهتّران به في آخر عمره ؟ . . .

أمضيت الاسبوع في عذاب وضيق وقلق أتساءل في كل لحظة :

ـ هل كانت نيرمين جادة فيما تقول ، أم هي نزوة من نزواتها لا تلبث أن تزول ؟ أتراها ستزورني في ميعادها من يوم الثلاثاء أم تذهب الى ذاك الرجل الذي احتلّ قلبها مكان سامي ! . . .

وأشعر بغصة تخنقني ، تأكلني الغيرة . هل انفصمت علاقتنا الى الابد أم تراها تعود اليّ نادمة ، ويستمر ما بيننا من مودة والفة ؟ ؟ . .

أنا أحوج الى نيرمين من أيّ انسان آخر في هذه الدنيا . . الهي الهمها أن تظل الى جانبي ريثما أمضي البقية الباقية من عمري .

• • •

مساء يوم الاثنين بين المغرب والعشاء طرق بابنا طرقاتمتتالية . هرعت اليه وقلبي يحدثني انها نيرمين . فمنذ مرض ابي لم يطرق بابنا طارقفي مثل هذا الوقت من الليل . اضأت الدهايز وفتحت الباب فكان ماتوقعته . دخلت نيرمين الى الدهليز تسبقها عاصفة من عطر ثمين ، ترتدي ألبسةزاهية أنيقة ، عيناها تتألقان وكأنهما ترقصان . اخذتني بين ذراعيها وراحت تقبلني بلهفة ، وانا لاأبادلها القبلات بل أحاول ان اتملّص منها و ابتعد عنها،فمنذأن وقع نظري عليها رابني شيءٌ من امرها لم ارتح اليه ابدا . قالت وهي تقبض على يدي الاثنتين وتنظر في عيني :

— صعب عليّ ان ارحل من هذا البلد دون ان اراك وأودعّك ، سأعطيك عنواني لنتراسل .

حملقت اليها وقلت غاضبة :

— اوفعلتها يانيرمين ؟ قولي مع من تفرين يا . . .

قبل ان أتم كلامي وأقذفها بكلمة جارحة قالت بمنتهى العفوية :

— أفر مع حلاّقي وانس .

وكنت قد سمعت منها تذكر هذا الحلاّق فلم آبه له ، او أهتم به ، رفعت يدي دون ارادة مني ولطمتها على خدها بكل مالدي من قوة .

ـ انشوهين سمعتك ، وتغضبين الله يابلهاء من اجل حلاّق ارمني ؟ ؟ . . لا ، لا يانيرمين انت ارفع من ذلك .

قالت بصوت منفعل :

ـ أنت مجنونة ، مهسترة ، الا تعلمين ان الله يغضب من الخيانة والكذب والنفاق ، ويرضى عن الامانة والصدق والصراحة ؟ وانّ الناس كلهم عنده سواء ؟ انا احببت هذا الرجل ، وجدت فيه نبلا وشهامة ورجولة ، ايقنت انه الوحيد الذي يستطيع ان يخرجني من جحيمي ، وينقذني من زواجي غير المشروع الذي لايرضي الله ولا الناس ذوي الضمير .

قلت :

ـ كفى ، كفى ، هذا كلّه لم تجديه الاّ عند هذا الحلاّق الأرمني ؟

قالت :

ـ اتحكمين على الانسان بالسوء وانت لاتعلمين عنه شيئا سوى انّه حلاّق ارمني ؟ كنت احسبك افهم ، وأذكى ، وأبعد أفقا ، واقل تعصبا ممّا وجدتك عليه الان . كنت اظن انك الو حيدة التي ستفهمني وتعذرني انت التي احببت ابن الخبّاز حتّى الوله .

قالت هذا وانكفأت راكضة نحو الباب دون ان تلتفت اليّ او تعطيني عنوانها . ظللت واقفة مكاني كصنم ، كأنّني قد سمرت الى الارض . لقد افحمني منطق نيرمين . ادركت فوراً انّني قلت ماقلته عن الحلاّق الارمني غيرة وحسداً منه لاّنه سيحرمني من نيرمين الى الابد .

نيرمين آخر الثالوث الذي احببت في هذه الدنيا . . .

الى ايـّة بقعة من هذه الارض الواسعة سيفر بها هذا الارمني ؟ ! . .

لقد ماتت نيرمين بالنسبة اليّ فجأة .

اغلقت النافذة التي كنت اطل منها على الحياة .

ياليتني لم اتصرف هذا التصرف الارعن . ربـّما كانت نيرمين عوضت عليّ برسائلها عمـّافقدت من حضورها ، او ربـّماالتقيناذات يوم ....

لقد تصرفت كما لو كنت اخي سامي العاشق الولهان فوجئ بغريم له . سرت في الدهليز الطويل أجر رجلي ، متهدلة الكتفين كأنـّني أعود من مقبرة بعد أن واريت في التراب انساناً عزيزاً علي .

دخلت غرفة ابي . كان يغط في سبات عميق ، منبسط الاسارير ، يبدو على وجهه الهدوء ، والرضى والاستسلام ، نظرت اليه نظرة كره وتمتمت :

— يجري مايجري وتظل انت المفلوج تتنفس بانتظام . . .

ارتميت على الديوان . لماذا تستعصي عليّ الدموع عندما اكون في اشد الحاجة اليها ؟ ؟ . . .

اشعر بالاختناق . كأنّ حنجرتي تكاد تنفجر .

• • •

انقطعت عمـّتي عن تدوين مذكراتها زمنا طويلا شأنها دائما كلـّما فاجأتها نكبة جديدة ، كأنها لاتستطيع ان تركّز افكارها حتى يندمل الجرح قليلا ، عندئذ تستوعب المأســاة بكل ابعادها . حين عادت الى التدوين لاحظت أنه طرأ على تفكيرها تغيير جذري كأنها اقتنعت بآراء نيرمين دون ان تشعر ، او انها شعرت بذلك ولكنها لاتريد ان تعترف بهذا الاقتناع ولو على الورق .

لم تعد تذكر احباءها الثلاثة ، عادل وسامي ونيرمين . اصبحت لاتفكر الابنفسها ، بحظها العاثر ، وشبابها المهدور ، وعمرهاالضائع . تتذمر من خدمة ابيها المفلوج وتتمنى له الموت ، يزداد حقدها على اخويها وزوجتيهما لأنهم يتناسونها مع ابيها المفلوج .

تارة تشبه نفسها بكلبة جموح مربوطة من عنقها بسلسلة مشدودة الى وتد مغروس في هذا البيت العتيق . او تقارن بين نفسها التي تجف يوما فيوما ، وبين الكائنات التي تمور فيها الحياة من حولها ، تعترف انها هزمت هزيمة شنعاء حين انتصرت على نفسها المتمردة ، صفحات وصفحات من هذا القبيل ، كنت اخترت بعض مقاطع منها لفتت نظري عندما تصفحت المذكرات اول مرة واثبتها في مكان آخر من اول هذا الكتاب .

* * *

لقد انشغلت عمتي بنفسها عن كل مايجري حولها . حتى عندما اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية التي هزت العالم كله لم تبالي بها عمتي ولم تذكرها في مذكراتها الا عرضا ، عندما تتذمر من تعتيم الانوار او من الغلاء الفاحش ، فلم تعد اجرة الدكان تكفيها وأباها الا بالتقتير الشديد. في اواخر الحرب كنت قد اصبحت صبية يافعة ، وكان يروق لي ان ازور عمتي من حين لآخر عندما اعود من المدرسة ، كنت اشعر انها تحبني ، وتفرح بزياراتي فتروح تشكو لي همومها وترتاح الي أكثر من اي فرد آخر من افراد اسرتنا حتى انها خصصت لي غرفة في الطابق الفوقاني كنت ألجأ اليها على الرغم من امتي لأفرغ الى دراستي عندما أضيق ببيتنا الكئيب وبثرثرة امتي ومشاحناتها مع ابي .

كنت اشفق على عمتي في وحدتها وانقطاعها عن العالم فأحمل اليها

لأسليها ماأسمعه من اخبار الحرب التي كان يتداولها النـــاس ويتلقونها بكثير من الحماسة ، او بالاحرى الشماتة بهزيمة الحلفاء المستعمرين لبلادنا فأقول لها مثلا :

– هل سمعت ياعمتي ؟ اتمد اغرق الالمان البارحة بارجتين كبيرتين للانكليز وقامت الطائرات الالمانية بغارة فظيعة على لندن ،والقى هتلر خطابا هاما استمر ثلاث ساعات ، كان الناس يستمعون اليه من الراديو باللغة الالمانية دون انيفهموا شيئا .

فتتحول وتقول :

– لاادري لماذا يحب اهل بلدنا هذا الطاغية هتلر ؟ ايرجى الخير من انسان يحتل بلاد غيره ويقتل الناس الابرياء ، ويسلبهم حريتهم ؟

فأقول لها :

– الا يكفي ان يكون هتـــلر عـــدواً للفرنسيين والانكليز والصهاينة لنحبه ؟

فتبتسم بسخرية وتقول :

– وماذا نجني نحن من هذه العداوة ؟ . . . لو ذهب الفرنسيون وجاءنا هلر او موسوليني لخرجنا من تحت الدلف لتحت المزراب ! . .

فانظر اليها مشدوهة وأنا اتساءل :

– لماذا تحب عمتي ان تخالف الناس ؟

لم يخطر لي آنئذ ان عمتي كانت صادقة الرؤية ، وان ذكاءها الفطري وعدم تأثرها بآراء الغير بسبب انعزالها يجعلانها صافية التفكير تعرف الصواب أكثر ممن كانوا يتـــابعون الاحـــداث ويندفعون وراءها بعواطفهم دون تحكيم عقولهم .

° ° °

يوم عيد الجلاء كتبت عمتي هذه الصفحة في مذكراتها :

أحلم يغمر شامنا ام حقيقة واقعة ؟

اكاد لااصدق انه حقا جاء اليوم الذي حلمنا بهمنذأنوعيناهذه الدنيا ومن قبل حلم به آباؤنا واجدادنا وبذلنا من اجله التضحيات الكبيرة . . . .

منذ زمن طويل لم أشعر بحافز يدفعني الى الخروج من البيت كما اشعر اليوم . ارتديت ملاءتي ، وتركت ابي في غيبوبة كأنه يعالج سكرات الموت . قطفت ازهار شجرة الليلك كلها . حملتها وخرجت من البيت ، رفعت حجابي وسرت سافرة ، اعب الفرح من الوجوه الضاحكة ، كل الوجوه كانت ضاحكة ، السماء تمطر فرحا ، الارض تنبع فرحا ، خيل الي ان الناس كلهم قد هجروا بيوتهم وخرجوا الى الشوارع يهزجون ويرقصون كالمجانين ، يتجهون نحو غرب المدينة حيث سيقام أول مهرجان لعيد الجلاء في مدخل دمشق الغربي .

اتجهت انا نحو الشرق ، نحو مقبرة الدحداح .

كانت المقبرة خالية حتى من حفار القبور ، كأن الموت كان في اجازة ايضا ، وقفت هنيهة خاشعة بين القبور في صمت رهيب ، ثم سرت نحو قبر عادل ، فغمرته بازهار الليلك ، عانقت الشاهدة وبكيت ، لو كنت حيا لوضعت يدي في يدك ورقصنا مع الراقصين ! . . . .

اتجهت بأنظاري نحو الغوطة ، قرأت الفاتحة ووهبتها لروح سامي وأرواح جميع الشهداء .

* * *

الصفحة الاخيرة من المذكرات كتبتها عمتي بخط مضطرب ، تقول لي :

اخط لك هذه الكلمات قبل ان ارحل عن هذه الدنيا.لقد حاولت ان أجنبك رؤية هذه المأساة اشفاقا عليك لكنك ابيت الا ان تظلي الى جانبي اتكوني شاهدة عيان عليها .

لقد هممت أن أحرق هذه المذكرات قبل ان ارحل . لكني في اللحظة الاخيرة آثرت ان اهديها اليك .

فاقرأيها بامعان لكي لاتقعي فيما وقعت فيه عمتك فيذهب عمرك سدى .

• • •

١٩٨٠ / ٥ / ٣٥٠٠

« دمشق يابسمة الحزن »

تدور احداث هذه الرواية في دمشق ابان الانتداب الفرنسي فتصف لنا حياة أسرة دمشقية في ظل جو وطني يدعو الى النضال والثورة على المستعمر فتداخل الحدث الخاص بالحدث العام ويتساوقان بتناغم وانسجام يدل على براعة المؤلفة وتمكنها من فنها في الانتقال والربط بين الجوين مما اتاح لها التعرف على فئات مختلفة من الناس وتشريح المجتمع الدمشقي تشريحا دقيقا وتصويره تصويرا بارعا فاحيت لنا ماضيا قريبا ملونا بشتى الوان الانفعال والاحساس.

واذا كان الادب تعبيرا عن الحياة فان ذلك ما يميز هذا العمل الروائي الذي يكشف لنا باشراقة الحدس وشمولية الرؤيا وبساطة التركيب بنية المجتمع في تلك الفترة فينفذ الى صميم العلاقات القائمة من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والاخلاقية ، حيث العبارة هي تكثيف لعلاقة ما ضمن الاسرة وخارجها بعفوية الفطرة السليمة والذكاء اللماح والعبارة الرشيقة والسرد الممتع .

مطبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي

دمشق – ١٩٨٠

سعر النسخة

٧٥٠ ق.س.ل